عبد الوهاب مطاوع

نهر الدموع

فريق متميزون
E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: نهر الدموع.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة

نـهر الدموع

عبدالوهاب مطاوع

مقدمة..

دمعتان سابحتان في نهر الدموع.

قالت الأولى: أنا دمعة رجل اغتصب منه صديقه زوجته وتزوجها.

فقالت الدمعة الثانية: لا تحزني يا أختاه فأنا دمعة هذا الصديق الذي بكي نادمًا بعد أن تزوجها!

إنها أمثولة قديمة يتعزى بها كثيرون عن آلامهم وهمومهم وهي صادقة إلى حد كبير.. وسوف تتذكرها كثيرًا وأنت تقرأ قصص هذا الكتاب الواقعية الإنسانية التي تصور معاناة الإنسان مع أقداره وآلامه وقد اخترتها بعناية مما نشرته في بريد الجمعة عبر السنين استجابة لرغبات قراء عديدين طلبوا مني جمع هذه القصص في كتاب ليستعينوا بخبرة أصحابها في مواجهة اختبارات الحياة المتجددة فاستجبت لمطلبهم.

وأرجو أن أكون قد وفقت في الاختيار.

عبد الوهاب مطاوع

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشقيقـان

أنا شاب لم أكمل بعد الثامنة عشرة من عمري، نشأت في بيت سعيد وأذكر من نشأتي أنني كنت طفلًا محبوبًا من أبي وأمي ولي شقيق صغير يصغرني بعامين، كان رفيقي في وحدتي بالشقة. فأمي موظفة بشركة قطاع عام وأبي موظف بإحدى الهيئات، وقد فرضت عليهما ظروف الحياة وطلب الرزق أن تعود أمي للعمل بعد انتهاء أجازة العام لرعاية المولود.. وأن يغلقا علينا باب الشقة بالمفتاح ويبعدا عن أيدينا كل ما يمكن أن نؤذي به أنفسنا، ثم تعود أمي ملهوفة عند الظهر فتجدني ألعب في أمان مع أخي.. أما أبي فلقد كان الحنان كله لي ولشقيقي ولأمي، فهو يعود بعد الظهر فيسألني عما فعلنا خلال غيابه.. ويأكل معنا ويستريح قليلًا ثم يصطحبني أنا وشقيقي إلى قطعة أرض خلاء قريبة من بيتنا ليلعب معنا الكرة.. أو يراقبنا ونحن نلعب مع الأطفال ساعتين أو ثلاثا بلا ملل منه أو استعجال، ويقول إنه يفعل ذلك لكي يعوضنا عن حبسنا في الشقة طوال النهار.. أما في المناسبات فلقد كان أبي يصطحبنا جميعا إلى السينما أو الأهرامات أو الحدائق، ونركب معه سيارته القديمة جدًا، التي عرفت من أمي أنه باع نصف الفدان الوحيد الذي يملكه ليشتريها وليستكمل أثاث بيتنا.

ولم يضربنا أبي مرة واحدة في حياته.. فقد كان يكفيه أن ينظر إلينا غاضبًا أو في عتاب حتى نعترف بخطئنا ونطلب صفحه.. أما أمي فلقد كانت تضربنا برفق أحيانا إذا أخطأنا.. فإذا بكينا أسرعت بالبكاء أكثر منا وصالحتنا بعد قليل.

وفى جو هذه الأسرة الصغيرة نشأت وأدركت رغم صغر سني كم تحب أمي أبي وتعتز به.. وكم يحبها أبي ويقدرها، لكني أدركت أيضًا من ناحية أخرى أننا على عكس أصدقاء المدرسة ليس لنا أولاد أعمام أو خالات نزورهم ويزورونا.. وسألت أمي عن سبب ذلك فعرفت أن أهل أبي أو من تبقى منهم يعيشون في أقصى الجنوب على بعد مئات الكيلومترات ولم يبق منهم سوى أبيه العجوز وشقيقته المتزوجة هناك، والتي يعيش الأب في رعايتها من تجارة بسيطة.. أما أمي فإن أسرتها تعيش في مدينة ساحلية هي دمياط وبقي لها منها شقيقة متزوجة هناك..

ومضت الحياة وادعة جميلة والتحق شقيقي بنفس المدرسة التي دخلتها وتلازمنا ليلا ونهارًا.. لكني لاحظت بعد فترة أن أمي مرهقة دائما وتعجز أحيانا عن تنظيف البيت وإعداد الطعام، وفسر لي أبي ذلك بأنه قريبًا سوف يكون لنا شقيق ثالث أو شقيقة تشاركنا اللعب معنا.. وبدأت أساعد أمي في أعمال البيت، لكن إرهاقها تزايد وأصبحت تقضي اليوم كله في الفراش. وجاءت خالتي من بلدها لتزورها وكذلك عمتي وبدأت أرى أبي وهو يغسل لنا الملابس ويطهو الطعام ويخرج إلى الطبيب ويعود محملا بالأدوية. ثم اقترب موعد الولادة ودخلت أمي المستشفى.. ولازمها أبي فيه، ووجدت نفسي أنا وشقيقي وقد بلغت العاشرة وحيدين كما كنا قبل ذلك في الشقة الخالية وطال غياب أمي في المستشفى وتوقفنا عن الذهاب إلى المدرسة يومين لم نغادر الشقة خلالهما..

وقد وعيت نصائح أمي بألا نقترب من البوتاجاز وأكباس الكهرباء وألا نفتح الباب لأحد مهما كان.. لكن طرق الباب اشتد حتى تملكنا الهلع وبكي شقيقي الصغير من الخوف.. وسمعت صوت جارتنا التي تقيم أمامنا تناشدنا أن نفتح لها الباب فتجرأت وفتحته ودخلت منزعجة، ثم دعتنا للذهاب معها إلى شقتها وجمعت ملابسنا وكتبنا المدرسية واصطحبتنا معها.. وأدخلتنا الحمام وخرجنا لنجد طعاما ساخنا فأكلنا بشهية بعد يومين لم نأكل خلالهما سوى الخبز والجبن. وفي الصباح اصطحبتنا مع طفلتها إلى المدرسة وعادت في الظهر فتسلمتنا، ثم فوجئت بأبي ومعه زوج جارتنا يدخلان علينا واجمين وكأنهما عائدان من سفر، وعدنا إلى شقتنا مع أبي.. فسأله شقيقي عن ماما فأجابه أبي بأنها مازالت في المستشفى.. وأحسست رغم صغر سني إحساسًا غامضًا بأن هناك شيئًا ما يخفيه عنا أبي.. ولم تعد أمي الجميلة الطيبة من «المستشفى» بعد ذلك أبدًا.

وخلت شقتنا الصغيرة منها ومن حنانها وصوتها الجميل، وحين أدركنا الحقيقة القاسية بعد أسابيع.. لم أبك طويلًا رغم افتقادي لها لأني لست كثير البكاء وأكتم مشاعري. أما شقيقي فلقد سالت دموعه كالنهر الجارف، وهو سريع البكاء دائمًا.. ولأي سبب.. ومضت بنا الحياة. وتعلمت في سن الثانية عشرة تنظيف البيت ومساعدة أبي في غسل الملابس وطهو الطعام. وأصبح أبي يعود إلى البيت من عمله فلا يفارقه حتى اليوم التالي.. وإذا خرج إلى مشوار ضروري اصطحبنا معه، وطالبنا دائما بأن ننجح في دراستنا لكي نسعد أمنا في العالم الآخر، ولم نخيب ظنه.. فتقدمنا في الدراسة عامًا بعد عام بغير دروس خصوصية إلا مساعدة أبي لنا. وفي الصيف كان يصطحبنا لزيارة خالتنا وأولادها في المدينة الساحلية ولزيارة عمتنا وجدنا في أقصى الجنوب، وفي إحدى هذه الزيارات سمعت -عرضا - حوارًا بين أبي وجدي يسأله فيه جدي لماذا لا يتزوج مرة أخرى ليجيء لنا بمن ترعانا. وسمعت أبي يقول له بأنه قد رضي عن نصيبه من الحياة بعد أن سعد سنوات من عمره بصحبة أمنا، ولن يدخل على أولاده من لا يضمن حنوها عليهم، وقد يفكر إذا طال به العمر في الزواج بعد أن يشتد عود أولاده ويلتحق أصغرهم بالجامعة!

ورغم ذلك فلقد لاحظت عليه أنه قليل الضحك كثير الصمت، ورأيته أكثر من مرة يبكي وهو يصلي، فرجوته أن يروح عن نفسه ويخرج في المساء ليلتقي بأصدقائه ويتسلى معهم.. فنظر إليّ طويلا ثم قال لي:

أنه ليس متضايقًا من بقائه في البيت معنا، وأنه يريد أن يتفرغ لنا هذه السنوات القليلة القادمة حتى أحصل على الثانوية العامة والتحق بالجامعة.. ثم يدعني لنفسي مطمئنا إلى قدرتي على مواصلة الطريق ويركز بعد ذلك على شقيقي إلى أن يحصل على الثانوية العامة أيضًا.. وحينذاك سيحس بأننا قد وضعنا أقدامنا على أول طريق وسوف يلتفت بعض الشيء إلى حياته بغير خوف علينا من الانحراف، لأننا والحمد لله متدينان ونؤدي الفرائض في وقتها.

وقد حافظنا على عهدنا لأبينا فواصلنا التقدم في الدراسة واتسم سلوكنا دائمًا بالأدب والاحترام. وعلمنا أبي حب الناس واحترام مشاعرهم ومجاملتهم في

مناسباتهم المختلفة، وكثيرًا ما اصطحبنا لأداء واجب العزاء معه لزملائه وأصدقائه وجيرانه. وكان يأمرنا إذا حدثت حالة وفاة في العمارة التي نقيم فيها أو في العمارات المجاورة أن نقف طوال النهار في خدمة أهل المصاب ونحمل الكراسي ونلبي أي طلب يطلب منا حتى ينتهي العزاء ويعود آخر الليل معنا راضيا عنا. وأقسم على أحد جيراننا توفيت زوجته -رحمها الله -أن يستضيف ابنه عدة أيام بعد الوفاة وأمرنا ألا نفارقه ونخفف عنه، واحتضنه مودعا إياه حين جاء أبوه ليستعيده والدموع في عينيه.

وفي كل عام حين تأتي ذكرى رحيل أمنا كنا نقف جميعًا في المطبخ لنطهو اللحم والأرز ونحشو بها الأرغفة ونوزعها على الفقراء في حينا ونقرأ الفاتحة على روحها الطاهرة. أما في المناسبات السعيدة للجيران فلقد كنا نحمل إليهم زجاجات الشربات وصناديق المياه الغازية ونوزعها على المدعوين ونرحب بأداء أي خدمة ونكنس الشقة بعد انتهاء المناسبة مع أصحابها وهم يشكروننا ويثنون على شهامتنا وأبي فخور بنا ويحثنا على بذل المزيد من الجهد لأن الناس لبعضها، ولابد أن يكون المرء في عون أخيه. ووصلت إلى الثانوية العامة وضاعفت من ساعات مذاكرتي وأحاطني أبي بحبه واهتمامه وأعفاني من أعمال البيت وكلف بها شقيقي الذي سأرد له الجميل في ثانويته العامة بإذن الله.

ومضى شهران من بداية العام الدراسي ثم صحوت يوم جمعة متأخرًا فلم أجد أبي في الصالة كعادته ودخلت عليه غرفة النوم، فإذا بي أجده جالسًا على مقعده المفضل بجوار السرير يمسك بالصحيفة في يده وقد مال رأسه إلى الوراء.. وفارقت روحه هذه الدنيا الفانية. ولا تسألن يا سيدي عن حالي وحال شقيقي الأصغر حين عرفنا فجأة أن أبانا وسندنا الوحيد في الحياة قد رحل هو الآخر عنا. فلقد جرى ما جرى بعد ذلك وكأنه يحدث لشخص آخر غيري أتفرج عليه وأكاد لا أشارك فيه بالبكاء المكتوم.. ولا يزعجني فيه إلا عويل شقيقي الصغير الذي انهار وولول كثيرًا وله عذره لأنه رأى آخر حصن لنا ينهار أمام أعيننا بهذه البساطة.

وأمضينا اليوم محاطين بالجيران والأصدقاء.. حتى أكاد لا أذكر في بيت من منهم تناولنا الغداء.. وفى بيت من منهم أمضينا ليلتنا، فلقد أقسم الجميع على دعوتنا لبيوتهم وجاءت عمتي وجدي وخالتي وبعد فترة عادت خالتي وعمتي إلى بلديهما وبقي معنا جدي لبعض الوقت وجلس يبحث معنا مستقبلنا فطمأنته إلى أننا نستطيع الاعتماد على أنفسنا وأن جيراننا يقومون بإجراءات المعاش وأننا سنتكيف مع حياتنا فجلس مهمومًا وهو يرى نفسه عاجزًا عن الحياة معنا لأن تجارته الصغيرة في أقصى الجنوب، وعاجزًا عن ضمنا إليه لأن مدارسنا هنا. لكني هونت عليه الأمر وطمأنته، فأصر على أن يترك لنا بعض النقود، وجاء موعد سفره وخرجت معه لأوصله إلى محطة السكة الحديد ففوجئت به يتوقف أمام باب شقة جيراننا المقابلين الذين لم يتركونا لحظة منذ الوفاة وطرق بابهم فخرج إليه جارنا وجارتنا الفاضلة ودعياه للدخول فاعتذر وقال أنه فقط يريد أن يشكرهما على «حنان» قلبيها على هذين «الولدين اليتيمين» ويدعو لهما بالصحة وحسن الجزاء ثم يطالبها بأن يكملا جميلها بالسؤال عنا كل فترة .

وبكي وهو يقول ذلك فسالت دموع جارتنا وتوارت خلف الباب، وأكد له جارنا أننا أمانة في عنقه أمام الله وطمأنه كثيرًا، فانصرف داعيًا له ومضى يصافح كل من يلتقي به على السلم ويوصيه بنا خيرًا ثم سافر مصحوبًا بالسلامة إلى بلده.

وامتثلنا لما جرت به إرادة الله وواجهنا حياتنا الجديدة.. وأصبحت أعيش مع شقيقي وحدنا في الشقة، نذهب إلى المدرسة معًا ونعود معًا ولا نغادر البيت بعد ذلك إلا نادرًا، ولم يتركنا الله وحدنا ففي كل حين يدق علينا الباب جار من جيراننا أو صديق يسأل عنا، وجارتنا الفاضلة تصر على أن تغسل ملابسنا مع ملابس أبنائها رغم أننا كنا نغسلها بأنفسنا طوال عمرنا، وفي كل يوم جمعة لابد أن يدعونا والد أحد أصدقائنا بالمدرسة أو الجيران للغداء عنده وقضاء بعض الوقت. ونحن نعيش على معاش كما كنا نعيش في حياة أبي، وقد بيعت السيارة القديمة ووضع ثمنها في شهادات باسمنا، وجارنا المقابل صديق أبي يقوم عنا بكل الإجراءات، ويراقب تصرفنا في النقود ويثق في ويعتبرني مسؤولًا عن أخي، ولا أحد يتأخر عن مساعدتنا في أي خدمة نحتاج إليها. وقد فوضت أمري إلى الله وبدأت أحاول التعود على الحياة بلا أب ولا أم.. وأهز رأسي بشدة حين تطوف بي ذكرى أبي الطيب وأنا أذاكر كأني أطرد الذكريات الجميلة حتى لا تشوش على تركيزي في المذاكرة.

لكن شقيقي لا يساعدني على ذلك يا سيدي لأنه كثير البكاء كل يوم ودائم المخاوف والهواجس. وقد انصرف عن المذاكرة عدة أسابيع بعد الوفاة فساءت نتيجة امتحانه الشهري وتوسلت إليه ألا يخيب رجاء أبيه فيه فعاد للمذاكرة من جديد ـ وكلما طمأنته وشجعته.. لا يستجيب لي ويحدثني عن خوفه من المستقبل ويقول لي كل يوم أن الحياة قاسية وسوف نضيع فيها وحدنا وسوف نواجه أياما صعبة في المستقبل، ثم يسألني أسئلة لا أستطيع أن أجيبه عنها.. فيقول لى فجأة وهو يبكي: ماذا نفعل حين يموت جدنا.. أو ماذا فعلنا من ذنب حتى (نتلطم) في الحياة وحدنا بلا أب ولا أم ولا خال قريب منا ولا عم.. ولا أمل ولا مستقبل، حتى بدأ هو يخيفني بدلًا من أن أطمئنه أنا.

لقد كان أبي يقرأ لك دائمًا وكثيرًا ما أشركنا معه في قراءة ما تنشره من هموم الناس ويقارنها بحالنا ويقول لنا أن حالنا أفضل من غيرنا، وقد طلب مني ذات يوم أن أقرأ قصة الشاب الذي فقد أباه المحامي وأمه وأخته الصغيرة ـ وكانوا كل أسرته ـ في حادث سيارة وهم في طريقهم لزيارته يوم عيد ميلاده في الإسكندرية حيث يدرس بالجامعة، وقال لي بعد أن قرأتها أن هذا الشاب سوف يواجه الحياة وحيدا وسوف ينجح ويحقق أمل أسرته فيه. ولهذا أريدك أن تكتب لأخي وتصبره وتشجعه وتطمئنه إلى أن الحياة ليست قاسية كما يعتقد وأننا يمكن بوجودنا معا أن يحمي كل منا الآخر ونشق طريقنا بنجاح في الحياة.. إن شقيقي طيب وحنون ويشفق على الناس والحيوانات ويطعم القطط الشاردة ويضع لها الماء.. وأقول له إن هذا من الإيمان وسوف يجزيك الله عنه خيرًا.. لكنه بدلًا من أن يتجاوب معي.. في ذلك يصدمني ويقول لي نحن كهذه القطط لا أهل لها وسوف نتشرد في الحياة مثلها!

إنني أرجوك أن تكتب له وتقوي إيمانه وعزمه لكي أستطيع أن أتفرغ للمذاكرة بتركيز خلال الفترة القصيرة الباقية على امتحان الثانوية العامة وأن تؤكد له أننا لن نضيع في الدنيا لأننا لم نفعل شيئًا سيئًا في حياتنا.. وإنما نصلي ونصوم ولا نؤذي أحدًا وقد جاءت ذكرى رحيل أمنا منذ أسابيع فطهونا معا اللحم والأرز ووزعنا الطعام كما نفعل كل سنة رغم تغير الظروف وسوف نفعل ذلك أيضًا في ذكرى أبي حتى ولو حرمنا أنفسنا من الطعام عدة أيام.. فلماذا سنضيع في الحياة كما يعتقد وهل الحياة قاسية إلى هذا الحد فعلا يا سيدي كما يقول شقيقي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **الحياة قاسية فعلًا ولكن على من نكب بسوء الخلق الذي ينفر منه الآخرون ويسد دونه أبواب قلوبهم.. ويشل أيديهم عن إنهاضه إذا تعثر.**

كما أنها قاسية أيضًا على من يعجز عن التواصل معها ومع الآخرين ومن يستسلم إلى فشل الروح والتشاؤم والوساوس.. والهواجس ويفتقر إلى الإرادة والحماس والقدرة على الكفاح وتحقيق الأهداف. وأنتما والحمد الله قد ورثتما عن أبيكما الراحل -رحمه الله -خير ما يرثه ابن عن أبيه وهو حسن الخلق فكأنكما بذلك قد ورثتها عنه الدين كله لأن «الدين حسن الخلق»، كما جاء في الحديث الشريف، كما ورثتها عنه أيضًا حب الناس واحترام مشاعرهم وخدمتهم والقدرة على التواصل معهم، فتفتحت لكما قلوبهم، فإذا أضيف إلى كل ذلك استقامتكما وجديتكما في الحياة وحرصكما على أداء الواجب بروح المسؤولية والنضج المبكر.. فكيف يفشل مثلكما إذن في الحياة؟ أو كيف ينهزمان أمام أية صعوبات جديدة.. بل أي صعوبات يمكن أن تواجهاها في المستقبل أقسى من اختبارات الحياة المؤلمة التي صمدتما لها بشجاعة وإيمان خليق بالكبار حتى الآن. لا يا صديقي العزيز، لن يكون الغد أسوأ من اليوم أو الأمس بالنسبة لكما بأي حال من الأحوال بإذن الله، فلقد أديتما ضريبة الألم مضاعفة خلال عمركما الصغير.. ولابد أن يأتي دوركما ذات يوم قريب لكي تفتح أمامكما أبواب السعادة والأمان والنجاح في الحياة. إذ لمن يكون النجاح والسعادة إذن إن لم يكونا لأمثالكما من الأبناء الطيبين المكافحين الصابرين الملتزمين في حياتهم بالنهج القويم وتفيض نفوسهم فوق كل ذلك بكل هذه القيم الخيرة؟

لقد أكسبت الظروف الأليمة التي واجهتماها، شقيقك الصغير نظرة تشاؤمية تجاه المستقبل، وإني لألتمس له بعض العذر فيها بالنظر إلى ظروفه وتكوينه النفسي في ظروف الحرمان المبكر من الأم الذي يسلب الصغير قدرًا كبيرًا من إحساسه بالأمان، لكني فقط أدعوه لأن يثق في أن الله لن يضيعكما أبدا بإذن الله ويثق في نفسه وقدراته ويعرف أن الإنسان لا يمكن تحطيمه أبدًا إذا امتلك شعلة الإرادة والقدرة على الكفاح لتحقيق الأهداف الشريفة والتزام الطريق القويم في حياته.

إذ ليس عدلا مع النفس لمن عانى مثلما عانى شقيقك أن يفسد يومه لحساب غد بظهر الغيب، ولا يستطيع أن يجزم بما إذا كان يحمل له خيرا أو شرا. فإذا كان الأمر كذلك «فليتمسك بيومه» كما يقول المثل الروماني ويعرف أن خير وسيلة للاستعداد للمستقبل هي أن نركز أنظارنا وجهدنا على عمل اليوم لأنه مفتاح الغد. وعمل اليوم بالنسبة إليه هو أن يكون جديرًا باسم أبيه ويحقق النجاح والتفوق في دراسته فيحقق خطوة لها اعتبارها على طريق المستقبل، وليسترجع كلما راودته المخاوف قصة ذلك اليتيم العظيم الذي غير مجرى التاريخ ووجده ربه يتيما فآوى ووجده عائلا فأغنى ووجده ضالًا فهدى، وهدى به الأمم، وليراجع كتب التاريخ بعد نجاحه في امتحان هذا العام بإذن الله ليعرف كم من العظماء وصناع التاريخ والأدباء والفنانين الخالدين ورجال المال والصناعة والاقتصاد الكبار قد بدأوا حياتهم كما بدأها هو وربما في ظروف أشد قسوة وصلت ببعضهم إلى ملاجئ الأيتام في بعض مراحل عمرهم ومع ذلك فلقد صمدوا لأعاصير الحياة.. وحققوا نجاحهم وغردت طيور السعادة في أعشاشهم أو قصورهم.

إن شقيقك يا صديقي رقيق العاطفة سريع التأثر وسوف يحتاج دائمًا إلى دعمك النفسي له فلا تمل من طمأنته دائمًا وتشجيعه واحتمال هواجسه وميله الغريزي لتوقع المخاطر - فهو فتى طيب القلب حملته الحياة وهو في هذه السن الصغيرة ما قد ينوء بحمله بعض الكبار فاصبر عليه ولا تمل من تشجيعه وتذكيره دائمًا بأن في السماء ربا لا يغفل عن عباده وأن أمر المؤمن كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له كما جاء في مضمون الحديث الشريف، ولا تكف عن تذكيره أيضًا بأن موعدكما السعادة في المستقبل القريب بإذن رب العالمين وليس الشقاء أبدأ لأنكما قد استوفيتما كل نصيبكما منه وإذا احتجت إلى مساعدة نفسية متخصصة لبث الطمأنينة في نفس شقيقك الصغير فإنه يسعدني أن أرتب ذلك لك بلا أية أعباء مادية بعد انتهائه من امتحانه، كما يسعدني أن ألتقي بكما وأسعد بالتعرف عليكما في أي وقت تراه مناسبًا لذلك إن شاء الله. وأرجو أن أكون أول المهنئين لشقيقك بالنجاح في عامه الدراسي الحالي ولك بالنجاح والتفوق في الثانوية العامة بإذن الله.. ولا تتردد في الاتصال بي إذا رغبت في أي من أي نوع لك ولشقيقك.. وشكرًا لك مقدمًا إذا فعلت والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أوراق الشجـرة

أنا شاب في التاسعة والعشرين من عمري، شاء قدري أن أكون آخر أبناء أبي بعد ابنين وابنة كما شاء قدري أيضًا أن تمرض أمي بعد ولادتي بفترة قصيرة فتتولى أختي الكبرى معظم شئوني حتى أصبحت لي أما ثانية وهي فتاة في سن المراهقة وعندما تماثلت أمي للشفاء نسبيا بعد مرض طويل، كان هاجسها الدائم أنها تحس بأن العمر لن يطول بها لرعايتي كما رعت إخوتي وأني سوف أعاني مرارة اليتم صغيرًا فأغدقت عليّ من عطفها وحنانها ما حاولت به تعويضي عما ينتظرني من شقاء ولم يكن أبي مقتنعًا بمبررات أمي في ذلك، لكنه آثر عدم معارضتها وجرح مشاعرها وحاول تعويض ذلك من ناحيته بأن يبالغ في تشدده معي حتى لا يفسدني التدليل كما عرفت فيما بعد. وكان أبي ومازال شخصية ناجحة في مجال عمله المهني الذي لا أريد الإشارة إليه حتى لا يعرفه أحد وكنا نعيش في شقة أنيقة في حي راق ولأبي سيارته التي يصطحبنا فيها إلى النادي يوم الجمعة وإلى المصايف الجميلة، ورغم تحفظه معي فلقد كنت أرى فيه دائمًا مثلي الأعلى وأحلم بأن أصبح ذات يوم ناجحا مثله. وكان هو يشجع في أبنائه هذا الاتجاه ويريد منهم جميعا أن يدرسوا نفس دراسته ليستعين بهم في عمله بعد تخرجهم.. ويفتح أمامهم أبواب النجاح لكن أختي الكبرى خيبت بعض أمله وعجزت عن الالتحاق بنفس الكلية التي تخرج فيها، والتحقت بكلية علمية أخرى وتزوجت في سن الثالثة والعشرين من مدرس مساعد بنفس الكلية وسافرت معه لأوروبا لترافقه في بعثته للحصول على الدكتوراه. وحقق شقيقي الذي يليها رغبة أبيه وسلك نفس طريقه في الحياة في حين اختار شقيقي الذي يليه مباشرة طريقًا آخر، وفي الثانية عشرة من عمري توفيت أمي إلى رحمة ربها وتركتني وحيدًا بعد سفر أختي الكبرى للخارج.. فعرفت مرارة اليتم الحقيقية. ومرضت مرضا طويلًا، وبدأت خطواتي في الدراسة تتعثر وخشي أبي أن أفشل في الدراسة فمارس عليّ ضغوطًا شديدة لكي أتفوق في دراستي كباقي إخوتي.. وبذلت كل جهدي لكي أرضيه وأتجنب غضبه.. لكن جهودي كلها لم تكن تسفر إلا عن نجاحي بصعوبة في نهاية السنة بالرغم من الدروس الخصوصية وساعات المذاكرة الطويلة.

وبدأ أبي يضربني وأنا في سن الرابعة عشرة بقسوة شديدة مع أنه لم يمد يده على أحد من إخوتي طوال عمرهم وراح يراقبني ويتهم شقيقيّ بأنهما يتستران على عدم مذاكرتي مع أنهما كانا يقسمان له بأني لا أخرج من البيت وأنني أمضي الساعات الطويلة في المذاكرة، وتطور الأمر إلى خصام شبه مستمر من جانبه لى إلى جانب تهكمه اللاذع على وتنديده بأني - فيما يبدو - سأكون فاسوخة الأسرة، أي «خائب» العائلة الذي لا يشرفه أن يعرف الناس أنه ابنه، فكنت أتألم كثيرًا لذلك وأضاعف من ساعات مذاكرتي فلا تجيء النتيجة في النهاية إلا بنجاح بالعافية أو على حافة السقوط وبدلًا من أن يقدر لي جهدي ويعرف أنني لست في ذكاء إخوتي وأن هذه هي إرادة الله ولا دخل لي فيها كان ينهال عليّ ضربا ولوما وسخرية، وعندما بلغت السنة الثانية في المرحلة الثانوية تزوج أبي من أرملة

من أقاربنا لها أبناء وأقام معها في شقة فاخرة قريبة من شقتنا فكانت هذه السيدة الطيبة أكثر رفقا بي منه، وتنصحه بأن يخفف من ضغطه على حتى لا أفشل نهائيًا، وكنت أزوره في مسكنه الجديد فتستقبلني بابتسامة وتتمسك بأن أجلس وأشرب معها الشاي ويستقبلني هو بوجه عابس ويسألني عما جاء بي - فأقول له: أردت فقط أن أراك فيأمرني بالعودة إلى البيت والمذاكرة فأخرج وأنا أقرر أني لن أعود لزيارة أبي مرة أخرى.. فلا يمضي أسبوع أو أسبوعان حتى أكرر الزيارة ويتكرر نفس الاستقبال، أما شقيقاي فلقد كانا دائما موضع ترحيب أبي وفخره في أي مكان، ثم جاءت سنة الثانوية العامة فعانيت فيها الأمرين وجاءت النتيجة برسوبي فيها فكاد أبي يقتلني وكانت مناحة انفطرت فيها من البكاء وأنا أقسم لأبي أني فعلت كل ما أستطيع وواصلت الليل بالنهار وشقيقاي يشهدان لي بذلك ويدافعان عني وهو لا يقتنع ويتهمهما بمحاباتي وإفسادي كما أفسدتني أمي من قبل وكانت أيامًا سوداء وازدادت سوادا بعد أن فشلت في الحصول على الثانوية العامة ثلاث مرات متتالية وفقدت آخر فرصة لي في الحصول عليها فقاطعني أبي نهائيًا وحرمني من المصروف ومن الملابس ومن كل شيء وعشت على مساعدة شقيقي اللذين كانا يعطياني بعض النقود سرًا، وعلمت أختي بحالي وهي في غربتها فكانت ترسل لي بعض الملابس وتوصيني بكتمان السر حتى لا تفقد رضا أبي.

ولا أريد أن أطيل عليك فلقد وجدت نفسي وأنا في سن الحادية والعشرين طالبًا فاشلًا محرومًا من عطف أبيه.. واقتنعت بأنه لا أمل لي في تعليم أو وظيفة كإخوتي فقررت مواجهة الواقع مهما كانت مرارته وأديت الخدمة العسكرية لمدة ثلاث سنوات، ورفض أبي أن يتوسط لي لدى معارفه الكثيرين لنقلي إلى موقع مريح أو قريب من القاهرة بحجة أنه لا يشرفه أن يعرف أحد أن له ابنا يؤدي الخدمة بدون مؤهلات.

وأمضيت سنوات الخدمة في أكثر المواقع مشقة، وعدت منها فوجدت شقيقي الذي اختار طريق أبي يستعد للسفر لأمريكا للحصول على الدكتوراه.. وحزنت لفراقه بعد فراق شقيقتي وسافر بعد قليل فلم يعد لي في الحياة سوى شقيقي الذي يكبرني مباشرة وهو إنسان طيب لكن علاقتي به كانت أقل حرارة من علاقتي بأختي وأخي اللذين سافرا للخارج، ولم يكن ذلك من جانبي بالطبع، فأنا دائما متلهف لإخوتي، ولأبي ولكل الناس ولكن كان ذلك من جانبه لأنه كان عمليًا في حياته وأقل عاطفية من أخي وأختي.. وبدأت أفكر فيما أفعل خاصة بعد أن قطع أبي عني أي مصروف وأمرني بعدم زيارته في بيته أو عمله كما حرمني من عضوية النادي الذي ينتمي إليه، ورفض استخراج بطاقة الابن لي حتى لا أذهب إليه لأني أصبحت «عار الأسرة» المرموقة التي ينبغي أن تخفيه عن مجتمعها ولم يكن لي أصدقاء من الأصل في النادي لأني كنت دائمًا شاعرًا بنقص بالنسبة للآخرين.. فلم أشأ إحراج أحد، وقررت الخروج للعمل لكن ماذا يعمل شاب بلا شهادة مثلي، لقد عرضت نفسي على صاحب محل لبيع الأحذية الرجالي وقبلني بعد أن توسم في أني كما قال «ابن ناس»، وجربني لعدة أيام فرآني أعامل الزبائن

باحترام وبصبر وأتحمل كل شيء فثبتني في العمل وأعطاني أجرًا طيبًا وذهل حين علم بأني ابن فلان المعروف، ويبدو أنه أراد أن يتأكد ذلك فسأل، وكانت هذه غلطة عمري لأني فوجئت بأبي يدخل البيت بعد عودتي من المحل مجهدًا ثم ينهال عليّ سبابًا ولعنًا، ويأمرني بترك هذا العمل فطلب منه شقيقي مادام لا يوافق على عملي به.. أن يعينني هو بعمل مشروع تجارى صغير لى فرفض، لأني خائب ولن أفلح في شيء، وطلب بدلًا من ذلك أن أذهب للعمل في مكتبه في وظيفة «كاتب أو سكرتير أو ساع » بمعنى أصح بمرتب مائة جنيه في الشهر، ورغم أني لم أحلم لنفسي بأفضل من ذلك إلا أني خشيت أن يؤدي اتصالي المستمر بأبي إلى زيادة معاناتي معه.. فاعتذرت فهاج وصفعني بقسوة وبكيت صامتًا في حين احتج عليه شقيقي الذي كنت أظنه ليس عاطفيًا، وذكره بأني لم أعد صغيرًا كما أني إنسان مؤدب ومسالم وأؤدي من فرائض دينى وليست لي أي انحرافات سوى أن حظي في الحياة والتعليم قليل ولم يقتنع أبي وخيرني بين قبول ما عرضه على وبين مغادرة البيت نهائيا، ولأول مرة في حياتي يا سيدي أرفع عيني في عيني أبي وأقول له أني أسلم أمري إلى الله الذي لا يتخلى عن عباده وسوف أترك البيت وأشق طريقي في الحياة بدون مساعدة من أحد، وخرج أبي وهو يهدد أخي بالويل والثبور إذا سمح لى بالعودة للبيت بدون إذنه.

وعدت للعمل في نفس المحل التجاري.. وحملت ملابسي إلى فندق شعبي رخيص رغم احتجاج شقيقي الذي حاول بكل قوته أن يمنعني من مغادرة البيت وجذب مني حقيبة ملابسي بعنف أكثر من مرة ولم يتوقف إلا حين انحنيت على قدمه محاولًا تقبيلها ليتركني لحالي فإذا به ينهار باكيا لأول مرة في حياته ويرفعني من الأرض.. ويخرج معي إلى الفندق ويدفع لى حساب أسبوع مقدما، رغما عني وهو يؤكد على أنه سيتركني هذا الأسبوع فقط لكي أهدأ ثم أعود للبيت.. وعدت للعمل في المحل وبعد أيام قليلة فوجئت بصاحبه يعتذر بلطف عن اضطراره للاستغناء عني ويطلب مني البحث عن عمل آخر.. وسألته عن السبب وهل بدر مني شيء.. أو لاحظ على خيانة للأمانة فأقسم لي أنه لا يعيب عليّ شيئًا.. لكنه مضطر لما فعل استجابة لضغط واقع عليه من شخص له نفوذه ثم أعطاني مكافأة طيبة وشهادة حسن سير وسلوك وصفني فيها مشكورًا بأني أمين ومهذب ويفخر بي أي محل أعمل فيه.

وفهمت أن أبي وراء هذا الضغط ورحت أطوف على المحلات باحثًا عن عمل، وبفضل هذه الشهادة حصلت على عمل آخر بعد أيام واستقررت فيه بضعة شهور ثم فوجئت بصاحبه يستغني عني أيضًا بنفس الطريقة ويعطيني شهادة حسن سير وسلوك، وخلال ذلك لم ينقطع عني شقيقي وكان يأتي لي في الفندق ويسأل صاحبه عن حسابي فإذا وجدني متخلفًا عن السداد بضعة أيام دفعها لي ويعزمني على الغداء يوم اجازتي الأسبوعية وقد اقترب كل منا من الآخر كثيرًا وتضاعف حبه في قلبي بعد أن فهمته حق فهمه، وقال لي هو أنه «يكتشفني» لأول مرة خلال هذه المحنة ويكتشف فيّ أشياء جميلة لم يكن يعرفها عني من قبل، منها أنني لا أكره أحدًا حتى ولو أذاني.. وأن قلبي أبيض كالبفتة البيضاء وأحب أبي

رغم كل شيء ولا أحمل له أي ضغينة كما أحب إخوتي حبًا لا مثيل له وأحب الناس ويحبني كل من يتعامل معي ويشهد لي بحسن الطباع والأخلاق.. ثم يدعوني للعودة للبيت فأعتذر حتى لا أحرجه، ولم تنقطع عني أخبار شقيقتي التي رقصت فرحًا وسعادة حين علمت أنها حصلت على الماجستير والدكتوراه في الدولة الأوروبية التي تقيم فيها مع زوجها كما سعدت بحصوله قبل ذلك على الدكتوراه وعمله أستاذًا بنفس الجامعة الأوروبية.

ورقصت فرحًا حين علمت بحصول أخي الآخر على الدكتوراه في أمريكا وعمله أيضًا كأستاذ بالجامعة الأمريكية التي درس بها وسقطت دموعي كالمطر حين نجح شقيقي الحبيب بامتياز في كليته وتم تعيينه في وظيفة مرموقة لها احترامها وهيبتها، كان يحلم بها منذ صغره وبعد عامين من العمل في المحل التجاري الأخير الذي استقررت فيه نبض قلبي بحب فتاة طيبة تعمل معي بنفس المحل ووجدت فيها حنان أختي البعيدة وقلبها الكبير، وأشفقت فتاتي عليّ من الإقامة في الفنادق فتوسطت لي لدى صاحبة البيت الذي تقيم فيه في حي شعبي للحصول على شقة كانت مغلقة في نفس البيت مقابل خلو رجل معقول، وكان معي نصف المبلغ المطلوب تقريبًا ففكرت لأول مرة في أن ألجأ إلى أبي ليقرضني باقي المبلغ وتشاورت مع أخي فتوجه هو إليه طالبًا المبلغ منه.. ورفض أبي في البداية فثار عليه أخي مؤكدًا له أن هذا هو أبسط حقوقي خاصة أنه سيتزوج قريبا ويقيم في شقة الأسرة مؤقتًا، وعاد إليّ بالمبلغ وتوجه معي لصاحبة البيت وكتب لي العقد.. وفاجأني بأنه استطاع أن يحصل لي من أبي أيضًا على مبلغ إضافي صغير لأشتري به الأثاث ورافقني في عملية الشراء.. ولم يتركني إلا بعد أن تم فرش الشقة بمفروشات بسيطة وجميلة، وشكرته ودعوت له الله كثيرًا بأن يسعده في حياته ويؤجره عني خيرًا في الدنيا والآخرة، وبعد استقراري في هذه الشقة بدأت أفكر في الارتباط بفتاتي واستشرت أخي فقال لي أنها فتاة طيبة لكنه كان يتمنى لي أسرة كبيرة كأسرتي، فقلت له وأين هي الأسرة الكبيرة التي تقبل بشاب مطرود من رحمة أبيه وبلا مؤهل مثلي؟ وحتى لو وجدتها فإن فتاتي أفضل عندي من كل فتيات الدنيا فحبها صادق وعطفها عليّ هو ما أحتاجه في حياتي كما أن أسرتها طيبة متدينة وإخوتها كلهم متعلمون وهي أرقى مني تعليميًا لأنها حاصلة على دبلوم تجاري ولم يعترض شقيقي وإنما اعترض أبي كالعادة وتسبب مرة ثالثة في قطع رزقي من المحل الذي أعمل به لكي يمنعني من الزواج بهذه الفتاة مع أنه لم يقدم لي بديلًا ولم يفكر لحظة فيما يمكن أن أصنع بحياتي إذا تركتها، ومضيت في إجراءات الزواج، ورغم التهديد والوعيد لم يتخل عني شقيقي أكرمه الله.. وحضر معي كل الإجراءات وتلقيت خطابات التهاني من أخي وأختي الغائبين ومع كل خطاب هدية مالية بمناسبة الزواج وتزوجت على بركة الله وأنا في السادسة والعشرين من عمري، ووجدت في زوجتي وأسرتها كل ما أردته وحلمت به والحمد الله رب العالمين. ووفقني الله في شراء محل صغير جدًا لبيع الحلوى يقع في نفس البيت كان صاحبه الموظف بالمعاش يغلقه معظم أيام الشهر. وساعدتني أسرة فتاتي بإقراضي المبلغ المطلوب، وباعت زوجتي شبكتها وأعطتها لي لأشتري البضاعة التي سأبيعها وعلم شقيقي في أمريكا وأختي في أوروبا بما

فعلت، فأرسلا لي يهنئاني ويشجعاني، ومع كل رسالة هدية مالية صغيرة لكنها كبيرة جدًا في نظري وفي معناها.. وجددت محلي الصغير، وعملت فيه بإخلاص وجد من السابعة صباحًا حتى منتصف الليل، وزوجتي معي وإخوتها وأبوها يشجعونني ويشترون لي الطلبات.. وتجلس زوجتي مكاني إذا احتجت لاستراحة قصيرة، خاصة بعد أن تركت العمل لتتفرغ لي ولحملها الذي أثمر طفلا جميلا هو نعمة كبيرة من الله سبحانه وتعالى.

وخلال عامين من بدء مشروعي كنت قد استطعت سداد دين أسرة زوجتي.. وشراء شبكة جديدة لها.. واستقرت أحوالي نسبيًا والحمد الله، ثم فوجئت ذات يوم بسيارة أجرة تقف أمام محلي وينزل منها شقيقي الأكبر العائد من أمريكا ومعه زوجته الأجنبية التي صعقت من حرارة استقبالي لزوجها بالصراخ والضحك والدموع والأحضان والتصفيق العصبي الشديد كأنني في مسرح أشاهد مسرحية، وقالت حين هدأت أنها لم تر من قبل مشهدًا جمع كل هذه الأشياء في لحظة واحدة. أما ابنه الذي كنت أراه لأول مرة فلقد حملته فوق رأسي ورقصت به من السعادة وهو يضحك بلا خوف كأنه يعرف أنني عمه مع أن عمره بضعة شهور،. وحين صعدنا إلى شقتي استقبلتنا زوجتي التي رأت المشهد من النافذة بالزغاريد فازدادت بهجة اللقاء واندهاش زوجة شقيقي وسعادتها، وأمضى شقيقي في مصر شهرًا كان من أسعد أيام حياتي وبعد أن سافر كتب لي رسالة يقول لي فيها أنه دخل بيوت كل أفراد العائلة الكبيرة والأصدقاء خلال وجوده في مصر وتناول الغداء أو العشاء فيها.. فلم يشعر بكل هذه الراحة التي شعر بها وهو في بيتي البسيط الصغير.. ولا بلذة طعام كطعام زوجتي وقهوتها وشايها فحتى الماء كان له في بيتك طعم خاص أجمل من أي مكان آخر وهذا أيضًا هو إحساس زوجتي الأمريكية التي أحبتك وأحبت زوجتك وابنك وقالت أنك إنسان ممتاز في أخلاقك وعملك!

أما شقيقتي الحنون فقد أسعدتني هي الأخرى بالزيارة حين جاءت لمصر منذ فترة مع زوجها وطفلتها الصغيرة ولم تسعني الفرحة حين رأيتها واندفعت إليها أقبل يديها في الشارع لأن فضلها عليّ كبير ولأنها أمي الثانية بعد أمي التي حرمت منها صغيرًا، ولم تنقطع عني لحظة خلال وجودها في مصر، وفاض حنانها كالنهر عليّ وعلى زوجتي وطفلي وبكيت وبكت كثيرًا وهي تودعني عند سفرها وأكدت لي أن قلبها لم يسترح طوال السنوات الماضية إلا حين رأتني ولمست توفيقي في العمل وسعادتي في حياتي وستسعد في حياتها بعد أن اطمأن قلبها من ناحيتي.

أما شقيقي الثالث المحترم صاحب الوظيفة الهامة فهو لا ينقطع عني أبداً حماه الله وأسعده في حياته وهو دائم السؤال عني وإذا تأخرت عن زيارته أسبوعًا اتصل بي معاتبًا ويدعوني مع زوجتي وطفلي من حين لآخر في بيته أو في نادي الهيئة المحترمة التي ينتمي إليها على شاطئ النيل للغداء معه ومع زوجته الفاضلة التي تشع طيبة ونورا على من معها، ويشرفونني بقبول دعوتي للغداء في بيتي يوم الجمعة وقضاء وقت سعيد وجميل معنا من حين لآخر. أما الشخص الوحيد الذي

لم يزرني ولم ير زوجتي أو ابني ولم يدخل بيتي حتى الآن فهو أبي.. المشهور ومازلت رغم مرور 3 سنوات على زواجي مطرودًا من جنته ومن رحمته.. وكل جريمتي عنده هي أنني فاشل دراسيا ولم أحصل على شهادة دراسية ولا أشغل وظيفة مرموقة يتشرف بها في مجتمعه كوظائف إخوتي، ورغم ذلك فإنني لم أنقطع عنه وأصل رحمه التي قطعها هو وأزوره مرة كل شهر أو كل شهرين على الأكثر في بيته فتستقبلني زوجته وأبناؤها بترحيب ويستقبلني هو بوجوم وتجهم ولا يبتسم أبدًا في وجهي مع أني أحن إلى أن يصافحني مرة بود وأن يسألني عن أحوالي وأكاد في كل مرة أن أقبل يده وأتوسل إليه أن يعفو في عدم حصولي على شهادة دراسية.. فالدنيا حظوظ.. وكم من أسر فيها الناجح وفيها الفاشل وهذا هو نصيبي من الحياة، وفشلي في وجهي أنا وليس في وجهه هو، وأنا راض به وسعيد.. ويكفيه فخرا أشقائي الممتازون المتفوقون الذين أفخر بهم.. فهؤلاء هم الذين يليقون لحقا باسمه ومركزه.. أما أنا فإني لا استخدم اسمه في شيء وأتكتم أنني ابنه الفاشل ولا أتردد على مجتمعاته فلا أذهب إلى النادي ولا إلى بيوت الأقارب ولا أحضر أفراحهم.. ولا أظهر أمام أحد من زملائه أو أصدقائه.. والناس ينسون كل شيء بعد حين وقد نسي أقاربنا ومعارف والدي أن له ابنا فاشلًا في دراسته.. فلماذا لا ينسى هو ذلك؟ صحيح أنني تاجر صغير وأن محلي كشق الثعبان لكني أكسب رزقي بالحلال وبعملي وكفاحي، وأقوم بمسؤوليتي عن أسرتي الصغيرة.. وأشرف اسم أبي وأسرته بأخلاقي وتديني واستقامتي وحسن معاملتي للناس وبأمانتي معهم، كما أني أحاول تعويض نقص تعليمي بقراءة الصحف وبعض المجلات والكتب باهتمام، وفي بيتي مكتبة صغيرة، وكم من أبناء عائلات وأصحاب ألقاب مرموقة لا يشرفون أسرهم بأخلاقهم.. ويسيئون إليهم بانحرافهم، وإدمانهم وأنا والحمد لله رب العالمين لم أنحرف يومًا عن الطريق المستقيم، ولم أسرق.. ولم أمد يدي أو عيني إلى حرام وأرعى الله في حياتي وأسرتي وعملي وعلاقاتي مع الجميع، وزبائني يشهدون لي بالأمانة والصدق، أفلا يكفي ذلك لكي ينسى لي أبي فشلي في الحصول على الثانوية العامة وزواجي من أسرة بسيطة كحالي البسيط، إنني أرجوك أن تكتب له أن يعفو عني ويستقبلني مرة واحدة عند زيارتي له بابتسامة الأب الطيب خاصة وأنا لا أريد منه شيئًا.. ولا أنتظر شيئًا - وعلى أتم استعداد لأن أوقع له على أية أوراق - وعلى يد محام أو في الشهر العقاري - إذا أراد - لكي يحرمني بها من الميراث بعد عمر طويل مديد.. وقد سبق أن عرضت عليه ذلك فسلخني بسخريته وتهكمه اللاذعين.. وعجزت تمامًا عن إقناعه بأن كل ما أريده هو أن أشعر أنني ابنه رغم فشلي الدراسي.. وأنني «بني آدم» له إحساس وشعور وكرامة. وليس «عارًا»، وإذا كنت كذلك فعلى نفسي وليس على أبي.. فهل هذا كثير على يا سيدي.. وهل تناشده في ذلك حتى تصفو لي الحياة بعد أن استقرت أحوالي وبدأت أجني ثمرة كفاحي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: بل تستحق ما هو أكثر منه وأنبل يا صديقي فالناس يختلفون في حظوظهم من التعليم والتوفيق وإقبال الحياة عليهم كما تختلف أوراق الشجرة الواحدة فيندر أن تجد بينها ورقتين متماثلتين تمامًا، لكن الإنسان في كل الأحوال ومهما كان شرف مكانه أو بساطة شأنه إنما يستحق الاحترام بشرفه الشخصي وبمدى التزامه الخلقي وأمانته مع الآخرين ومع الحياة والإنسان الشريف لا يمكن أن يكون تافها أبداً مهما كان حظه من التوفيق في الحياة. فتعلم أنت أولا أن تحمل لنفسك ما هو جدير بإنسان مكافح وشريف ومستقيم مثلك من الاحترام فالحق أني إذا كنت ضد التكبر وأعتبره اجتراء على مقام الله جل شأنه الذي لا يحق لغيره مهما بلغ من شأن أن يتكبر أو يغتر بشيء فإني أيضًا وبنفس الدرجة ضد الإحساس بالدونية بلا أي مبرر والشعور بالنقص تجاه الآخرين وأولهم الأهل الأقربون لمجرد أن الحظوظ تتفاوت بين الناس وبين أبناء الأب الواحد الذين نهلوا معًا من نبع واحد.

ذلك أن الإحساس بالدونية يورث الإنسان حساسية خاصة تفسد عليه بعض أوقاته وتدفعه لإساءة تفسير بعض تصرفات الآخرين معه وأنت والحمد الله مبرأ من كل حقد أو كراهية لأي انسان وتحمل نفسًا نقية وسيرة صافية، تتطلع للآخرين برغبة صادقة في نيل قبولهم ومحبتهم لكنك في حاجة رغم ذلك إلى شيء من الثقة بالنفس.. وإلى الاقتناع بجدارتك بحب الآخرين واحترامهم فلا تخلط إذن بين التواضع الكريم المحبوب في كل إنسان شريف، وبين الإحساس بتفاهة الشأن وبعد ذلك نتناقش معا في كل ما يعنيك ويشغلك. أما عن أبيك، فإني لم أفهم أبداً سر هذا الموقف المتحجر الذي يتخذه منك ومازال ثابتًا عليه طوال هذه السنوات مع أن كل شيء في الحياة يتغير من يوم إلى يوم.

صحيح أننا نريد لأبنائنا أن يكونوا دائما الأفضل والأرقى.. لكن ماذا نفعل إذا لم يحالفهم التوفيق فيما نريده لهم أو إذا حالت قدراتهم الطبيعية دون تحقيقه، هل ننبذهم وتنكرهم ونبعدهم عن حياتنا ومجتمعنا وأصدقائنا كأنهم «عار» نتبرأ منه؟

وبأي منطق يحق لنا أن نفعل ذلك وتوفيق الأبناء أو فشلهم في الحياة لا يغير من بنوتهم لنا ولا من حقوقهم علينا أو واجباتنا تجاههم.. بل لعل الضعيف منهم أحق بعطفنا ورعايتنا له إلى أن نقيله من عثرته وبعدها يتساوى الجميع أمامنا في حبنا لهم واعتزازنا بهم، وأبناؤنا في النهاية ليسوا مشروعات استثمارية نديرها بحسابات دقيقة لابد أن تحقق نتائجها الأكثر دقة.. إذ أين تفاوت القدرات بينهم.. وأين تفاوت الحظوظ.. وأين اختلاف الشخصيات ثم أين التسليم بإرادة الله قبل كل ذلك وبعده وهو القائل جل شأنه «إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ». إن ما نملكه لأبنائنا هو أن نعينهم على اكتشاف المجالات التي تتلاءم مع قدراتهم ويستطيعون فيها تحقيق نجاحهم والنجاح في الحياة يمكن أن يتحقق في مجالات عديدة ليست كلها مقصورة على أصحاب الشهادات والألقاب وحدهم، ولقد أخطأ أبوك في حقك خطأ جسيما حين لم يكتشف في الوقت الملائم أن قدراتك على التحصيل الدراسي لا تتناسب مع نوع الدراسة التي اختارها لك في الثانوي العام ولو تنبه لذلك في حمأة حرصه على أن يكرر كل أبنائه رحلته في الحياة لعرف أنك تذاكر كثيرًا

وتستوعب قليلا وتنجح بصعوبة مما يقطع بعدم ملاءمة الثانوي العام لك. ولحولك إلى التعليم التجاري الفني مثلا فحققت فيه نجاحك. لكنه بدلًا من أن يفعل ذلك قسا عليك ليصبك في القالب الذي يريده لك ثم حاسبك أنت على سوء تقديره وفساد طريقته في العلاج بحرمانك، من جنته ومن اعتزازه بك كابن بار وشريف يعتز به كل أب، أنت تعمل بجد وإخلاص من السابعة صباحًا حتى منتصف الليل وتتحمل مسؤوليتك عن نفسك وأسرتك بأمانة وتتعامل مع الحياة بشرف، وتحمل في قلبك من الحب لإخوتك ولأبيك وللآخرين ما يرقى بك إلى مرتبة سامية بين البشر الحقيقيين الذين لا مكان للحقد أو الكراهية في قلوبهم فامض في سبيلك كما أنت يا صديقي فلسوف تحقق نجاحك الباهر ذات يوم قريب، ولسوف تصبح إنسانًا له شأنه في وقت غير بعيد وكل ما أتمناه لك هو أن يطول العمر بأبيك ليشهد نجاحك وانتصارك على كل العقبات.. وليأسف لأنه قد حرم نفسه من قربك منه كل هذه السنين وإلى أن يتحقق ذلك بإذن الله احرص على أن تصل أباك كما تفعل الآن سواء لان قلبه لك أو ظل كالحجر أو أشد قسوة، فلنفسك ولربك ما تفعل معه قبل أن يكون له، وعلى أبيك وفي حسابه يوم الحساب ما يفعل معك الآن هذا إن لم يصلك كما تصله ويفتح لك أبواب رحمته ويعطيك من قلبه ومشاعره بعض ما تعطيه له، وبعض ما هو جدير بابن طيب مثلك .

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثمرة العمـر!

أكتب لك هذه الرسالة لأعبر لك عن حيرتي وحاجتي لمن يشير عليّ بمخرج من مشكلتي، أنا رجل في الرابعة والخمسين من العمر أعمل بوظيفة حكومية كبيرة. عقب تخرجي في الجامعة بثلاث سنوات توجت قصة حبي لابنة عمي بالزواج ونهلنا معا من رحيق الحب والسعادة ولم يعكر صفونا حتى وفاة وليدنا الأول أثناء الولادة، وإنما تجاوزنا معا المحنة سريعًا. وبعد الولادة عقدت العزم على عدم تكرار التجربة خوفًا على صحة زوجتي بناء على تحذيرات أحد الأطباء، لكن زوجتي كانت تتطلع بحنين إلى الإنجاب.. واستشرنا أطباء آخرين فأكدوا إمكانية الحمل إذا اتبعنا الاحتياطات اللازمة، ومع ذلك لم يزايلني الخوف عليها. وراوغتها طويلًا لتأجيل الحمل وظلت هي تحاول إقناعي بهدوء وصبر ثلاث سنوات كاملة حتى سلمت برغبتها ومرت شهور الحمل الأولى بسلام وسعدت زوجتي بحملها سعادة طاغية حتى لمت نفسي على حرماني لها من السعادة في السنوات الماضية، ثم بدأت المتاعب في الشهور الأخيرة من الحمل حتى أمضت الشهرين الأخيرين راقدة بلا حراك في الفراش ثم جاءت الولادة قبل موعدها المتوقع بأسبوعين وتدهورت صحتها بسرعة رهيبة.. وفوجئت بها تذبل وتنسحب دماء الحياة من وجهها ثم اختارها ربها إلى جواره بعد الولادة بساعات.. وتركت لي هدية غالية لتذكرني بها إلى يوم الدين، هي طفلة صغيرة جميلة مثل أمها الراحلة. وأتجاوز هذه الفترة العصيبة من حياتي سريعًا لأقول لك أني وجدت نفسي أبا في التاسعة والعشرين من عمري لطفلة لم تر أمها ولم ترضع من حنانها، وتتبادلها أسرة عمي وأسرتي وأنا أتردد عليها في البيت الذي تقيم فيه وأمضى معها الساعات ألاعبها وأتأملها وأحاول اكتشاف ملامح الشبه بينها وبين أمها الجميلة الراحلة، إلى أن درجت على الأرض وتحددت ملامحها فإذا بها سبحان الله العظيم نسخة أخرى من الفتاة الرقيقة التي أحببتها وهي في السابعة عشرة من عمرها!

وفي هذه الفترة من العمر تزايد إلحاح أبي وأمي على لأتزوج مرة أخرى، وكان الحل المثالي الذي توصلا إليه هو أن أتزوج شقيقة زوجتي الصغرى التي تخرجت لتوها في الجامعة. لكن الشقيقة كان لها رأي آخر فقد اعتذرت عن عدم الحلول محل شقيقتها وقالتها صراحة أنها تحبني كأخ لكن قلبها مشغول بإنسان آخر.. ولم أغضب منها وانما تمنيت لها السعادة مع من تريده ويريدها، لكن أمي غضبت منها غضبًا شديدًا وقاطعتها حتى رحلت عن الحياة يرحمها الله بعد ذلك بعامين. وبعد وفاة أمي استقرت ابنتي في بيت عمي ولم أجد حافزًا قويًا للزواج فانصرفت عنه إلى عملي، وسافرت للعمل في الخارج لمدة ثلاثة أعوام عدت خلالها مرتين لأرى ابنتي ثم لم أحتمل البعد عنها أكثر من ذلك فرجعت نهائيًا وضممت ابنتي إلى في بيتي رغم معارضة جدتها، وتفرغت لرعايتها وقاسيت الأمرين مع المربيات اللاتي يرفضن خدمة طفلة رجل أرمل مثلي.. أو يراوغنني لاستغلالي بأبشع صورة وخلال ذلك كنت أذهب بابنتي إلى المدرسة وأرجع بها إلى البيت وإذا

خرجت لزيارة في المساء أو لعمل أو لمشوار اصطحبها معي حتى أصبحت لا أذهب إلى مكان إلا وهي معي.

وبسبب معاناتي الشديدة مع المربيات فكرت في الزواج مرة أخرى لأوفر لها الاستقرار النفسي وعرضت نفسي على أكثر من زميلة لي في العمل فرفضتني من رفضتني منهن لأنها تريد لنفسها شابًا لم يتزوج وليس له أبناء، واشترطت أخريات ألا تعيش معنا ابنتي فرفضتهن على الفور.

ولفترة ما خيل إلي يا سيدي أنني مدان بجريمة كبرى في نظر هؤلاء الزميلات لمجرد أن لدي طفلة يتيمة عمرها 6 سنوات، مع أنها هادئة وجميلة وتحب كل من يتعامل معها، ثم رشح لي زميل في العمل قريبة له أرملة في مثل عمري ولديها ولد وبنت في سن الثامنة والعاشرة، ورحبت بها وأجبته حين سألني عن شروطي بأني لا أريد شيئًا سوى أن ترعى الله في ابنتي وأن تحب لها ما تحبه لولديها.. وقدمني لها وكررت عليها مطلبي الوحيد فأكدت لي أنها أم ولا يرضى ضميرها أن تظلم طفلة محرومة، ولا تطلب مني إلا أن أعامل أطفالها بنفس المبدأ.. وارتحت لمن وفقت إليه وتعاهدنا على أن يكون كل منا أبا وأما لأطفالنا. وتزوجت خلال 3 شهور وانتقلت إلى بيتي. وبدأت حياتنا الزوجية مبشرة بالخير واسترحت كثيرًا حين ألفت ابنتي «شقيقيها» الجديدين وأحبتهما. ولتجاربي السابقة مع المربيات كنت لا أدع طفلتي تغيب عن عيني كثيرًا وأسألها بيني وبينها عما فعلت معها زوجتي وأولادها في غيابي، وكانت الإجابات دائمًا مطمئنة فحمدت ربي على ذلك وبدأت أستريح من هواجسي. ثم رغبت زوجتي في الإنجاب لكي تعمق روابطنا كما قالت لي فرفضت ذلك بشدة لأن لدينا من الأبناء ما يكفينا، فصدمت قليلًا ثم عادت تلح عليّ في ذلك فأصررت على الرفض، فإذا بها تنقلب شخصية أخرى غير من عرفتها وتزوجتها وبدأت تسيء معاملتي وفقدت حرصها على حياتنا الزوجية ثم بدأت تنهر ابنتي بعصبية أمامي، فانزعجت جدًا وذكرتها بما اتفقنا عليه فلم ترتدع وبدأت تتهم ابنتي بالدلع وبأنها سخيفة وكثيرة الالتصاق بي ولابد من تأديبها، مع أنها لم تكن تفعل أكثر مما كان طفلاها يفعلانه وهما أيضًا مدللان وملتصقان بها.

وحزنت لما وصل إليه الحال، ومع ذلك لم أسلم باليأس. وصبرت وضاعفت من رعايتي لزوجتي وطفليها وكلما اقتربنا من نقطة الوفاق طالبتني بالإنجاب فنعود مرة أخرى من حيث بدأنا، واستعنت عليها بأهلها فأيدوني.. لكن تزايدت عصبيتها فإذا بي أعود ذات يوم فأجد الرعب متجمدًا في وجه ابنتي وأثر دموع جافة في عينيها.. فسألتها عما بها فلم تجبني بشيء وأحسست بأنها خائفة.. ولاحظت أن زوجتي ترقبنا بتحفز فشككت في الأمر.. وظللت قلقًا إلى أن استطعت الانفراد بابنتي ورحت أطمئنها حتى اعترفت لي بأن «ماما فلانة» قد لسعتها في ذراعها بشوكة سخنتها على النار عقابًا لها على أنها فتحت الثلاجة بغير استئذانها! وهددتها بأن تكرر ذلك مرة أخرى إذا تحدثت لي عنه! ولم أشعر بنفسي حين سمعت ذلك.. وبحثت عن أثر اللسع في ذراعها تحت كمها وسحبتها من يدها وتوجهت بها إلى حيث تنام زوجتي بعد الغداء.. وأيقظتها وكشفت ذراع ابنتي

وقلت لها وأنا أرتجف من الانفعال: أهذا عهد الله الذي تعاهدنا عليه؟.. أهذا عهد الله؟.. وقبل أن ترد أو تدافع عن نفسها ألقيت عليها يمين الطلاق وطالبتها بجمع أشيائها ومغادرة بيتي على الفور!.. ولم يأت الليل حتى كانت قد غادرت البيت بعد فشل وساطة أهلها الذين استنجدت بهم. ونمت هذه الليلة وابنتي في حضني .. وطيف أمها الوديعة لا يفارقني ودمعي ينساب من تحت جفوني وتدخل الوسطاء بيننا في الأيام التالية، فلم أستطع أبدا أن أغفر لها ما فعلته وأعطيتها حقوقها كاملة وصمدت لمحاولاتها إقناعي بأنها كانت تربيها.. وأنها تفعل نفس الشيء مع طفليها مع أن هذا غير صحيح. ونفضت يدي من الزواج بعد ذلك، وعشت راهبًا في الواحدة والأربعين من عمري مع ابنتي وتفرغت لرعايتها وخدمتها، فلم يمض عامان حتى أصبحت هي التي تخدمني وترعى شئوني كأنما أضافت الآلام والأحزان إلى عمرها أضعافه، فإذا اضطررت للسفر بضعة أيام استضافتها خالتها أو أبي أو شقيقي المتزوج.. وكل منهم يدعوها بإلحاح ويحبها لشخصها ولشيء أودعه الله فيها هو أنها تحب الناس جميعًا وتطلب لهم الخير، وقد كانت المرة الوحيدة التي عنفتها فيها حين حاولت وهي في سن الرابعة عشرة الإصلاح بيني وبين مطلقتي، وعرفت فيما بعد أنها تتصل بابنتي تليفونيًا وتطالبها بالإصلاح بيننا! وأن ابنتي تتصل بابنتها والصداقة مستمرة بينهما !

ومضت الأيام بنا ونحن صديقان حميمان نتصارح بكل شيء وتروي لي ابنتي عن كل ما يصادفها في حياتها، حتى محاولات البعض لنيل إعجابها والتحقت بالجامعة وأصبحت شابة جميلة وبدأت أستقبل خطابها وأعرضهم عليها ونتفق دائمًا في الرأي فيهم ثم اعترفت لي ذات يوم بأن هناك «إنسانا» على وشك أن يتقدم لها وتريدني أن أقبله وتريدني أهم من ذلك أن أتزوج لكي تستطيع هي أن تتزوج لأنها لن تسعد بحياتها إذا تركتني وحيدًا. وسرحت حين سمعت ذلك وعرفت أن أوان الفراق بيننا قد حان وأكدت لها أني سأسعد بسعادتها سواء تزوجت أم عشت وحيدًا.

وتقدم لى الشاب الذي تنتظره وشرح لي ظروفه فرحبت به دون النظر لأية ظروف مادية.. وعرضت عليه أن يقيم معي في شقتي إلى أن يحصل على شقته المنتظرة، بل وعرضت عليه أن أترك لها الشقة وأعيش مع أبي في شقته القديمة إلى أن ينتقلا لمسكنهما، لكن ابنتي رفضت بإصرار، وتزوجت ابنتي في مسكني.. وبكيت يوم زفافها من الفرحة وتذكرت أمها رحمها الله.

وجعلت هدف حياتي بعد زواجها راحتها وراحة زوجها، وتفرغت لإعداد الشقة التي تسلمها على المحارة لكي يتفرغ هو لعمله ولعروسه المشتاقة إلى السعادة والحنان وانتهيت من إعداد الشقة خلال شهور واشتريت ما اتفقنا على أن أشتريه من أثاث وجاءت اللحظة التي تمنيتها وخشيتها في الوقت نفسه وهي لحظة انتقال ابنتي إلى عشها الجديد.. وذهبت معها إلى الشقة واطمأننت على كل شيء.. وهممت، بالانصراف فبكت ابنتي.. وتضاحكت أنا ساخرًا من دموعها، وعدت إلى بيتي مثقل القلب لا أتصور حياتي بعيدًا عنها. وما كاد النهار يطلع حتى ذهبت إليها حاملا الجرائد والخبز الساخن وبعض الجاتوه.. وصرخت ابنتي من الفرح

حين فتحت لي الباب وقدمت لها ما أحمله على الباب وجريت إلى عملي رافضا الاستجابة لإلحاحها بالدخول وأصبحت أكرر ذلك من حين إلى آخر وأحيانًا كل يوم وأزورها في المساء كثيرًا... ويمضيان معي يوم الجمعة.. وأشتري لها كل ما تحتاج إليه من اللحم والدجاج والخضار، وأصلح لها الأجهزة إذا تعطلت وحملت فطفت بها على الأطباء، وأصررت على أن أتحمل نفقات العلاج والولادة لأن زوجها شاب في مقتبل حياته. وعادت إلى بيتها حاملة طفلًا جميلًا، فانفجر في قلبي ينبوع جديد من الحب لهذا الوليد الجديد وأضفت إلى مشاغلي شئونا جديدة لذيذة تخص الطفل وملابسه وأمراضه ومواعيد تطعيمه الخ

وسعدت بذلك وشكرت ربى عليه كثيرا.. فإذا بزوج ابنتي الحبيبة يصدمني بما لم أكن أتوقعه ولم يخطر لي ببال ذات يوم وهو الشكوى إلى أهله.. وإلى شقيقي من أنني أزور بيت ابنتي كثيرًا.. وأتجاوز حدودي معه.. ولا أشعره بأنه رب البيت المسؤول عنه ومن أن زوجته لا تعمل إلا بمشورتي في كل شيء في حياتها.. ولا تتصرف في شيء إلا بعد أن تسألني عنه، ومن أنه لا يحس برجولته في بيته بسببي | وخفق قلبي بشدة وأحسست بحجر ثقيل يهبط على صدري.. وتساءلت: وما هو المطلوب مني؟.. فعرفت أن المطلوب هو أن أقلل من زياراتي لابنتي إلى أقل حد ممكن وأن أدعها لحالها فلا أدعوهما للغداء عندي كل أسبوع وأن أعود ابنتي على ألا تستشيرني في شيء!

وقال لي شقيقي كل ذلك وهو محرج مني ومشفق عليّ.. فلم أتمالك نفسي من البكاء كالطفل، وبعد أن جففت دمعي قلت له أنه يبدو أنني نسيت أني رجل عجوز غير مرغوب فيه في حياة شابين صغيرين. وسأفعل ما يريد وأرجو أن يعينني الله عليه.

وبدأت أقلل زياراتي لابنتي ثم امتنعت عن زيارتها لمدة أسبوعين يعلم الله كيف مرا علي.. وأحست هي بأن هناك شيئًا غير طبيعي وألحت عليّ في السؤال فلم أفدها بشيء، فتحدثت مع زوجها وضيقت عليه الخناق، فصارحها بما فعل وتطاول عليها وخيرها بين أن تبقى علاقتها بي في الحدود التي رسمها هو وبين الطلاق! فلم تتردد وحملت طفلها وحقيبتها وجاءت إلى البيت وفزعت حين عرفت منها ما حدث وألحت عليها في العودة فرفضت وذهبت لإحضاره لكي يستعيد زوجته وتوجهت إلى بيت أسرته فوجدته هناك وقبل أن أنطق بشيء فوجئت به ينهال عليّ بالهجوم الظالم أمام والده ووالدته ويعاملني بفظاظة ويتهمني بأني سأخرب بيت ابنتي وبأني - سامحه الله - مريض نفسيًا وفي حاجة إلى العلاج لكي أتقبل الحقيقة وهي أن ابنتي قد تزوجته وفي حياتها رجل آخر غيره! ومن حقه أن يكون له وحده السيادة عليها! وانعقد لساني من الذهول واحمر وجهي وتصبب العرق مني فصرخ فيه أبوه وأقسم أن يصفعه إن عاد إلى جرحي مرة أخرى وأحضرت لي أمه كوبًا من الماء وهي تتأسف لما حدث.. وتطالبني بألا أحزن لكلام ابنها الطائش. وبعد أن تمالكت نفسي قلت لهم أني قد جئت لاصطحابه لكي يعود بزوجته إلى بيته وأني أسامحه فيما فعل وفيما قال بشرط ألا يسيء معاملة ابنتي لأنها ثمرة عمري كله وأني على استعداد لأن ألتزم بكل شروطه ولو كان

فيها حرمان من ابنتي الوحيدة حرصًا على سعادتها وسعادته. فتخاذل واعتذر لي بكلمات قصيرة.. ثم طلب مني أن أعيد أنا ابنتي إلى بيته فنهض أبوه معي وأصطحبني إلى البيت وأقسمت على ابنتي أن ترجع إلى بيتها فرجعت حزينة ومن ذلك اليوم قاطعني زوج ابنتي نهائيًا حتى لا أزور بيته وعاملني بجفاء في أول زيارة فامتنعت عن الذهاب إلى ابنتي وأصبحت الأيام الطويلة تمضي وأنا وحيد في شقتي لا يربطني بابنتي سوى التليفون وفي غير وجود زوجها بالبيت كأنها تختلس المكالمات معي وتزورني من حين لآخر مع طفلها وحدهما وحين ترجع لابد أن يتذرع زوجها بأي شيء ويفتعل معها مشاجرة وينكد عليها حتى طلبت منها ألا تزورني تجنبا للمتاعب، لكنها ترفض بل وتبدى لي استعدادها للطلاق من زوجها إذا كان هذا هو الحل الوحيد لاستمرار المودة بيننا.. مع أنها تحب زوجها وهو يحبها، لكنها متألمة منه لأنه يحرمها مني ويحرمني منها وأنا أبوها وأمها وكل من لها في الحياة.. إنني أرفض بإصرار فكرة الطلاق حرصًا على سعادتها وعلى طفلها.. لكنى أتساءل حائرًا لماذا يضيق بي زوج ابنتي إلى هذا الحد وأنا لم أقدم له منذ عرفته إلا كل الخير ولم تبدر مني إساءة واحدة إليه. وهل حبي لابنتي وحرصي على راحتها وراحته هو جريمة أعاقب عليها بحرماني منها بل ومنه هو أيضًا وهو من اعتبرته ابنا لي منذ عرفته؟

لقد تحملت أقداري صابرًا وراضيًا منذ وفاة زوجتي الأولى لكن حرماني وأنا رجل وحيد في الرابعة والخمسين من ابنتي الوحيدة وبلا سبب شيء يشق عليّ احتماله.. وقد توصلت ابنتي أخيرًا إلى قرار أو اختيار تضعني أمامه بإصرار وهو إما أن أتزوج لكي تطمئن عليّ.. وترشح لي مطلقتي التي تزوج ابناها وتعيش وحيدة ومازالت ابنتي على صلة طيبة بها حتى الآن.. وإما أن تطلب هي الطلاق وتصر عليه وتعود للحياة معي حتى يستريح ضميرها من ناحيتي.

وأنا لا أريد هذا ولا ذاك يا سيدي وإنما أريد فقط أن تستمر علاقتي بابنتي طبيعية وأن أقدم لها حبي وحناني وخدماتي وتقدم لي هي حبها وحنانها بلا مشاكل فما هو الصعب في ذلك؟ وكيف أستطيع أن أجعل إنسانًا يكرهني بلا سبب يحبني أو -على الأقل - يعاملني بإحساس عادي بلا حب ولا كراهية. وأخيرًا هل أرجوك أن تكتب له كلمة تنبهه فيها إلى خطأ ما يفعل وإلى أن الله - سبحانه وتعالى- لا يغفر مثل هذا العمل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: يا إلهي كأنما استنفد الإنسان كل آلام الحياة المعروفة فاستحدث بضيق أفقه آلاما جديدة يضيفها إلى معاناته ومعاناة الآخرين وعذاباتهم؟ إننا قد نفهم أن يشكو زوج من تقصير صهره في حق ابنته أو من أنانيته وانشغاله بنفسه وأهوائه عنها لكن كيف نفهم أن يشكو زوج شاب من تفاني صهره في حب ابنته وخدمتها وخدمته هو أيضًا، ومن رغبته في أن يكرس كل حياته لإسعادهما والتخفيف من عناء الحياة عليها؟ كيف تنقلب المفاهيم عند البعض إلى هذا الحد؟.. وأين الوفاء وأين العرفان لرجل مثلك استضاف زوج ابنته

في بيته شهورًا.. وعمل مقاولٍ بلا أجر ليعد له مسكن الزوجية نيابة عنه ليهنأ بعروسه فيه.. ويكلف نفسه رهقًا فيحمل لابنته وزوجها الصحف والخبز الساخن والجاتوه في الصباح الباكر، ويشتري لهما احتياجاتهما ويحمل عنهما طفلهما إلى الأطباء، ويتحمل تكاليف ولادة ابنته، ويفعل كل ذلك حبا وكرامة عن طيب خاطر وعلى طريقة «لك ولمن تحبين» لشخصية سيدني كارتن المضحية لمن أحب في رواية قصة مدينتين لشارلز ديكنز فيكون «عقابه» على كل ذلك هو الضيق به والنفور منه والتطاول عليه وإيلامه وجرح مشاعره واتهامه بالمرض النفسي ثم السعي للتفريق بينه وبين ابنته التي تمثل بالنسبة له ثمرة عمره؟

حقًا.. ما أقسى بعض الشباب أحيانًا على مشاعر الكهول وأحاسيسهم وما أجهل البعض الآخر بما تفعله بعض كلماتهم الجارحة بالقلوب المثقلة بالأحزان !

قد تكون يا سيدي قد بالغت بعض الشيء في اهتمامك بابنتك وفي زيارتك لها وفي ارتباطها بك بعد الزواج لكن لك من ظروفك المؤلمة السابقة ومن «ترهبك»، في رعاية ابنتك طوال السنوات الماضية بعض العذر في هذه المبالغة، «والفهم»، كفيل بتوضيح أسبابها والتجاوز عنها والاعتدال مطلوب دائمًا حتى في المشاعر الإنسانية لكن زوج ابنتك لم يفهم، للأسف.. ولم يعذر.. ولم يكن بعيد النظر فيعرف أن هذه المغالاة في الاهتمام بزوجته سوف تتجه مع الأيام ومع حركة الحياة الهادرة ومتغيراتها الجيدة ومع الاعتياد على الواقع الجديد والتكيف معه إلى اتجاهها الضروري إلى الاعتدال والطبيعية مع افتراض أن المبالغة في حب أب لابنته والاهتمام بها وزوجها وطفلها من «المكروهات» في عرفه!

كذلك لم يسمح له ضيق أفقه بأن يفرق بين حب الابنة لأبيها وهو حب غريزي مفهوم وبين حب الابنة لزوجها وهو حب من نوع آخر ولا تعارض بينها ولا يغني أحدهما عن الآخر، لأن كلا منها احتياج عاطفي وإنساني مختلف وقد بلغ «القمة» في ضيق الأفق حين وضع زوجته أمام هذا الاختيار الأحمق بين أبيها وبينه، وسمح لرغبته في الاستحواذ على زوجته بأن تتجاوز الحدود إلى الغيرة عليها من أبيها ومن ارتباطها الطبيعي به في مثل ظروفه ووحدته. إنه يحب زوجته كما فهمت من رسالتك، فكيف غاب عنه إذن أن الحب الصادق يمتد من المحبوب ليشمل كل من يحبه وأولهم أنت يا سيدي؟ لقد اتهمك ظلما وعدوانا بالحب المرضي لابنتك وبحاجتك إلى الشفاء منه.. والحق أن حبك لابنتك حب سوي لا غبار عليه حتى ولو كان زائدًا على الحد بعض الشيء. أما الحب المرضي الذي أشار إليه فتحكم صاحبه رغبة خفية في الاستحواذ على من يحب والانفراد به دون الآخرين ولو أدى ذلك إلى تحطيم علاقاته الضرورية بهم وإلى حرمانه منهم على غير رغبته الشخصية كما قد تفعل أحيانًا بعض الأمهات غير السويات اللاتي يتملكهن الحب الأناني للابنة أو الابن فيحكن المؤامرات لتنفير كل منهما من شريك حياته. لينفردن به ولو كان في ذلك تعاسته الشخصية. أما أنت فكل تصرفاتك تقطع بأن حبك لابنتك حب رشيد يفرق بين حقك عليها وحق زوجها عليها.. ويحرص على استمرار زواجها ونجاحه وعلى سعادتها مع زوجها وعلى صالح طفلها، ولو كان في كل ذلك وحدته هو ومعاناته. وهذا هو الحب الأبوي

الصادق بدليل انسحابك من حياتها بلا مقاومة حرصا على إرضاء زوجها ولو كان غير ذلك لشجعت ابنتك على الانفصال عن زوجها ولما أعدتها إليه وسعيت إليه للإصلاح بينهما.

فأيكما إذن يحتاج حقًا إلى العلاج النفسي؟ إنه هو من يحتاج إليه وإن كان العلاج النفسي في حد ذاته ليس عيبًا يعير به أحد. لكن مادام الأمر سجالًا فسأقول له أنه يحتاج فعلًا إلى العلاج النفسي لكي يعدل استجاباته للأشياء والمشاعر فتصبح استجابات طبيعية وليست شاذة فتكون استجابته السوية للحب الأبوي الذي تقدمه أنت له هي الحب وليست الكراهية، وتكون استجابته للعطاء من جانبك هي الشكر والعرفان وليس الجحود والنكران، وتكون استجاباته للضعف الإنساني الذي تبديه تجاه ابنتك وتجاهه هي الفهم والتلبية وليس الاستنكار والاستهجان.

لقد تحدثت عن الناحية النفسية وعن ظروفك كأب ولم أتحدث بعد عن الناحية الدينية في الموضوع ولا ينبغي أن أتحدث عنها لأنها بديهية لكن ما دمت تطالبني بذلك فسوف أقول لزوج ابنتك أنه يرتكب إثما بشعا بالحيلولة بينك وبين ابنتك فلقد قال رسول الله حقا وصدقا: (من فرق بين والدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة)، وما ينطبق على الأم ينطبق على الأب أيضًا في هذا الشأن.

أما آخر آية نزلت من القرآن الكريم. فقد كانت الآية التي تقول: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»

«وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» أيها الشاب المغتر بشبابه والمستأسد على أب مستضعف بحبه لابنته وحرصه على سعادتها وعلى صالح طفلها، ويتحمل إذاك مرغمًا وصابرًا من أجل ذلك وحده، ولولا هذه الاعتبارات لما كنت تساوي عنده قلامة ظفر حتى يسعى وراءك أو يسترضيك. فلا تغتر باسترضائه لك وتتصور في نفسك ما ليس فيها، فما أنت سوى شاب عادي لو نفرت من أحقر إنسان في الشارع لما كان لك عنده إلا التجاهل والازدراء لكنه ضعف القلوب تجاه ثمرات القلوب وثمار العمر وسوف تعرف كل ذلك وتشرب من نفس الكأس حتى الثمالة في قادم الأيام إن لم ترجع الآن عن غيك. أما أنت يا سيدي فإني أرجوك أن تستمع لنصيحة ابنتك المخلصة وتتزوج، ليس فقط لكي يطمئن خاطرها عليك ويستريح ضميرها تجاهك وإنما أيضًا لكي تستعين على وحدتك وآلامك برفيقة عمر تخفف عنك معاناتك، ولا بأس أن تكون مطلقتك السابقة بعد أن تغيرت الظروف وأصبح كل منكما وحيدًا يحتاج إلى الآخر فافعل ذلك يا سيدي ولا تتردد وسوف تتحسن الأمور كثيرًا بزواجك. إنك لا تتردد في الإقدام على أي شيء يسعد قلب ابنتك الوحيدة.. فلماذا لا تسعدها وتسعد نفسك بزواجك الآن وقبل أن يتقدم بك العمر أكثر من ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

القمر الساطع

أنا شاب في الخامسة والثلاثين من عمري، أمثل الابن الأوسط بين ثلاثة ذكور لأبوين كريمين وأسرة طيبة ترعى حدود الله في حياتها ومعاملاتها فنشأنا والحمد الله على استقامة الطبع لا نعرف الخداع وعلى المثل العليا والصراحة. وقد تخرجنا جميعًا متفوقين وشغلنا بفضل الله مراكز جيدة تهيئ لنا حياة فاضلة كريمة. والتحقت أنا بالعمل بشركة كبرى بمرتب كبير وتزوج شقيقاي الأكبر والأصغر في حياة أبي، بينما ترددت أنا طويلًا في الزواج حتى مات - رحمه الله -بغير أن أحقق له أمنيته في أن يشهد زواجي ويرى أبنائي كأخوي. ومضت الأيام وأمي و «شقيقتاى». أي زوجتي أخوي اللتين وجدت فيهما الشقيقتين، يلححن علىيّ في الزواج دون جدوى، ومنذ عام تقريبًا التقيت أثناء تأديتي لمهمة خاصة بالعمل في إحدى الجهات بفتاة لفتت نظري من أول وهلة بجمالها الباهر وقوامها الممشوق وشعرها الذهبي واهتمامها الزائد بمظهرها، وأيضًا بنشاطها وخفتها ومرحها ولاحظت هي اهتمامي بها ونظراتي إليها فعدت إلى بيتي وصورتها ورنين صوتها في أذني لا يفارقني، ووجدت نفسى مدفوعًا بقوة غامضة أختلق الأسباب للعودة إلى جهة العمل التي تعمل بها والتحدث إليها، وبعد عدة لقاءات قليلة معها فاتحتها في الزواج. ففوجئت بها تقول لي ضاحكة بثبات وفي ثقة أنها كانت تنتظر مني هذه الخطوة منذ أول مرة رأتني فيها!

وسعدت بترحيبها وعرفتني بأسرتها أي بأبيها الموظف المحال إلى المعاش وأمها، وعرفت منهما أن لها أخا متزوجًا يعمل في الخارج، ولاحظت أن شخصية والدتها تختلف عن شخصية أمي من حيث أنها متفتحة وتتزين وتهتم بمظهرها اهتمامًا كبيرًا على غير المألوف في أسرتي، كما لاحظت أيضًا أن مستوى الأسرة الاجتماعي ومستوى البيت أقل بكثير من المظهر الذي تحرص عليه، ولم يغير ذلك شيئًا من حماسي الشديد للفوز بمن استحوذت على قلبي ومشاعري من الوهلة الأولى. وفاتحت أمي وأخرى فسعدوا بأني قد وجدت أخيرًا بنت الحلال التي سأبني معها عشي السعيد وأجمعوا حين رأوها على أنها جميلة كالقمر الساطع وأني قد صبرت ونلت فوق ما أردت. وبدأنا نتفاهم في أمور الزواج، وكنت قد استعددت له منذ فترة بشراء شقة تمليك لكن والدة فتاتي اقترحت على أن أبيع هذه الشقة وأقيم معهم في مسكنهم لأن الشقة واسعة، وابنها المتزوج الغائب في الخارج قد اشترى شقة سيعود إليها بأسرته حين ينتهى عمله هناك، والعروس كما قالت لي أمها موظفة وسوف يسعدها بلا شك أن ترجع من عملها فتجد والدتها قد أعدت لها كل شيء كما أن الشقة ستكون لنا كلها ما عدا غرفة واحدة للأبوين بصفتهما «ضيفين» علينا على حد تعبير أم فتاتي. وشاركت فتاتي أمها هذا الرأي بحماس ولم أستطع الرفض أمام أسلوبها الساحر في الحديث والإقناع فقبلت اقتراحهما رغم اعتراض أمي وأخوى على ذلك.

وبعت الشقة فعلًا، وكان من الضروري إجراء بعض التجديدات في الشقة التي ستصبح عش الزوجية لي فقمت بتغيير الحمام القديم وتركيب حمام ملون وتغيير

المطبخ القديم بمطبخ آرو زان فاخر وقمت بإعادة طلاء الشقة كلها وتغيير معظم أثاثها بأثاث جديد لائق، وقدمت لفتاتي شبكة فاخرة وهدايا كثيرة، وأنفقت في سبيل ذلك راضيًا وسعيدًا كل ثمن الشقة التمليك التي بعتها خلال أسابيع معدودة، وبدأنا الاستعداد للزفاف ففوجئت بحماتي قبله بأيام تطلب مني التوقيع على قائمة لزوجتي بالأثاث الجديد الذي اشتريته كله بحجة ضمان مستقبل ابنتها، ولم أستطع الرفض أيضًا أمام نفس الأسلوب الساحر.. وأمام تشوقي إلى السعادة ورغبتي في ألا يعرقل طريقنا إليها شيء. وتم الزفاف ونحن في قمة الابتهاج وسافرنا لقضاء أجازة شهر العسل في أحد فنادق مدينة ساحلية ونحن نطير على أجنحة الحب والبهجة.

وهناك لم تسمح لى زوجتي بإقامة علاقة زوجية كاملة معها بحجة الخوف وتفضيلها تأجيل ذلك إلى حين عودتنا إلى بيتنا واستجبت لرغبتها محاذرًا أن يعكر صفونا شيء وعدنا بعد انتهاء الأجازة فلاحظت استمرار تهربها مني بأسباب مختلفة، ولم أشأ أيضًا الضغط عليها أو إكراهها على شيء، على أمل أن يذوب الخوف مع الأيام لكن معاملتها لي بدأت تتغير بعد أيام قليلة من عودتنا من أجازة العسل وبدأت ألاحظ كثرة اختلائها بأمها، ثم جاءت أمي وشقيقاي للتهنئة فقابلتهم زوجتي بجفاء بحجة أننا «ضيوف» على بيت أسرتها ولا يحق لنا أن نستقبل ضيوفًا لنا فيه! وبعد انصرافهم نشب أول خلاف بيني وبينها حول هذا الأمر، ففوجئت بها تستخدم معي ألفاظًا وقحة ونابية لم أعهدها من قبل ولم أتخيل أن تستطيع النطق بها، وأمها تؤيدها في كل كبيرة وصغيرة وتكررت الخلافات الصغيرة بيننا بعد ذلك فتطاولت عليّ في أحدها واتهمتني بأنني غير مكتمل الرجولة وبأنها مستعدة للفحص الطبي لإثبات ذلك رغم أني كامل الرجولة وقادر على الإنجاب والحمد الله وهي التي تهربت مني. وفوجئت بها تطلب مني الطلاق وتتمسك به، وتوجهت أمها على الفور إلى بيت والدتي وقالت لها ما يسيء لي بصوت عال وألفاظ بذيئة لم تتردد من قبل تحت سقف بيتنا. ووجدت نفسي بعد ما حدث أمام موقف لا مفر فيه من الطلاق، فطلقتها بعد شهر واحد من الزواج وعدت إلى بيت والدتي وقد خسرت الزوجة التي أحببتها وتمنيتها منذ رأيتها والشقة التي بعتها وأنفقت ثمنها في تجديد شقة العروس الغادرة وفي الأثاث الذي اشتريته لها.. وخسرت قبل كل ذلك ما هو أكثر منه وأفدح وهو الاعتبار بعد أن طعنتني زوجتي الجميلة في رجولتي بطريقة جارحة وظالمة.

وانطويت على أحزاني أسترجع هذه التجربة الغريبة وأفكر فيها جرى لي فيها فلم تمض أيام حتى سمعت أنها قد خطبت لابن خالتها الذي يحبها وتحبه منذ سنوات لكنه لم يكن قادرًا من الناحية المادية على الوفاء بمتطلبات الزواج! ولم تكد شهور العدة تنتهي حتى تم الزفاف الميمون ليستمتع الحبيب الغالي بالأثاث الذي اشتريته وغرفة النوم التي دفعت ثمنها والحمام الملون الذي اخترته والهدايا التي أهديتها لها والشقة التي جددتها وأعدت طلاءها من مالي ليسعد بها صاحب النصيب!

هل تتصور هذا يا سيدي.. لماذا فعلت بي ذلك.. وما قيمة الأثاث وتجديد الشقة مهما تكلف من مال حتى تخوض فتاة تجربة زواج بإنسان جاء إليها راغبًا في الارتباط بها بإخلاص.. وهي عاقدة العزم على التخلص منه بعد قليل؟

لقد فقدت ثقتي في الناس والقيم والأصول والواجب وطويت صدري على أحزاني ولم أستطع إخبار أصدقائي وزملائي بما جرى لي وإن كان الجميع قد لاحظوا عليّ حزني ووجومي.

ثم مضت شهور على هذه التجربة فلم يتخفف إحساسي بالضيق وفقدان الثقة في الآخرين، وبدأت والدتي وشقيقتاي «أي زوجتي أخوي»، في الحديث معي عن ضرورة الزواج مرة أخرى وبدأن في عرض فتيات من الجيران والأقارب عليّ وشرح مزاياهن دون أي تجاوب من ناحيتي. وأرادت أمي - جزاها الله عنا جميعًا كل خير -أن تعوضني عن خسارتي المادية فباعت نصيبا لها في بيت قديم موروث وقدمته لي في حضور أخوى وبرضاهما عسى أن يشجعني ذلك على الإقدام على الزواج لكني رفضت قبوله تحرجًا من أن يكون ذلك غير جائز شرعًا ولأخوي مثل ما لي من حق في هذا المال ولأنني أيضًا أحب أن أعوض خسارتي من كدي وعرقي وليس بالاستيلاء على نصيب أخرى.

وفى أحد أيام الإجازات جاء شقيقي الأصغر وزوجته لزيارتي ففاتحتنى أختي الصغرى في ضرورة نسيان تجربتي الأليمة ونسيان ما خسرته فيها من مال لأن «الأفعى»، بطلتها لا تستحق مني الاستمرار في المعاناة من أجلها على هذا النحو.

ورغم تقديري لإخلاصها وحسن نيتها فإن خسارة المال لم تكن أهم ما أصابني بل لا تقاس إلى جانب خيبة أملي في أعز الناس لدي وما أصابني من مهانة وإهدار لكرامتي في هذه التجربة الخاسرة فضلًا عن إحساسي بأني «مغفل» عجزت عن اكتشاف خدعة مرتبة بإحكام لاستغلالي في تحقيق مأرب مادي حقير.

وخلال مناقشتي مع زوجة شقيقي قالت لي أنني المخطئ من البداية لأنني قد اخترت الجمال والشعر الأصفر والقوام الممشوق فقط دون النظر إلى الجوهر والأخلاق والأهل والأصل والتكافؤ والالتزام الديني. كما أنه لم يكن يليق بشاب متدين يصلي ويصوم ويقرأ كتاب الله مثلي أن يتزوج ممن لا تعرف فروض دينها ولا ترعى الله في ملبسها وزينتها واشتدت المناقشة بيننا، لكنها لم تستسلم ولم تسكت وقالت لي إنه يجب أن يختار الإنسان العاقل شريكة حياته بعقله بحيث تكون قريبة منه في المستوى الاجتماعي والعلمي والعقلي ثم بالعشرة الطيبة بين الطرفين والأخلاق الحميدة يتولد الحب بينهما بعد الزواج، وتركتني وهي تبكي وترجوني بإلحاح ألا أضيع فرص الزواج المعروضة على لأن السنين تمر والعمر يجرى ولن يكون ذلك في صالحي.

وانصرف شقيقي وزوجته ووجدتني حائرًا أفكر فيما قالته لي ولا أستطيع اتخاذ قرار صائب في مستقبلي. لقد تزوجت وخسرت كل شيء وفقدت قدرتي على الاختيار والحكم على الأمور ففقدت ثقتي في أشياء كثيرة وفى كثيرين حتى في

أقرب أصدقائي ولم أعد قادرًا على اتخاذ قرار بشأن مستقبلي. إنني أحس بأنك أخ لي وصديق رغم أني لا أعرفك إلا مما أقرأه لك.. ولهذا فإني أضع مشكلتي بين يديك وأسألك هل الصواب هو ما قالته شقيقتي الصغرى من أن العاقل حقًا هو من يختار بعقله وليس بقلبه وهل أنا مسؤول حقًا عما حدث لي لأني انقدت بلا تفكير وراء قلبي وحده في زواجي السابق.

وهل الزواج مرة أخرى هو الحل الوحيد الذي سينسيني هذه التجربة المريرة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **أنا مع «شقيقتك الصغرى»، في رأيها حول مسؤوليتك الشخصية عما تعرضت له من تجربة مؤلمة باستسلامك لنداء القلب وحده بغير استشارة العقل في اختيارك، أو التمهل على الأقل لفترة مناسبة لدراسة شخصية من وقعت في حبها من الوهلة الأولى واندفعت للزواج منها والاستجابة لكل رغباتها كأنك منوم بتأثير حبها الجارف عليك بلا مقاومة ولا مراجعة للنفس أو الاستماع لنصيحة الأهل. فحب النظرة الأولى هو «قرين الجنون» على حد تعبير أحد المفكرين ذلك أن الحب ليس وليد نظرة واحدة وإنما هو وليد تفاعل تدريجي بطيء للمشاعر والأحاسيس الطيبة تجاه الطرف الآخر وهذا التفاعل لا يتم في لحظة واحدة وإنما يحتاج إلى وقت لكي ينضج على نار هادئة أما حب النظرة الأولى فليس سوى إعجاب أو انبهار قد يفتح الباب فيما بعد لهذا التفاعل البطيء.. وقد لا يوصل إليه وما جرى لك هو خروج على هذه القاعدة.. واستثناء وارد قد يبتلى به أى شخص كما قد يبتلى الإنسان بالمرض دون سابق إنذار، فيندفع وراء مشاعره ويسبح ضد تيار العقل وعشرات الاعتبارات الأخرى ويصيبه ما يصيب من يسبح ضد التيار من جهد وبلاء..**

ويزيد من كارثته أنه يصادف غالبًا «عقلا»، متنبها لدى الطرف الآخر.. فيتحكم فيه ويوجهه لما يريد بلا مقاومة.

غير أنك يا صديقي من جهة أخرى سعيد الحظ لأنك قد فقدت بطلة هذه القصة العجيبة قبل أن يتمكن منك حبها إلى الأبد. وتصبح داءك المزمن الذي لا شفاء منه ولا راحة معه حتى نهاية العمر، فالواضح أنها لم تحمل لك ذرة واحدة من هذا الحب الجارف الذي استولى عليك منذ رأيتها لأول مرة ولو حملت لك شيئًا منه لما ضحت بك وهدمت تجربة زواجها منك بعد ثلاثين يومًا فقط حتى ولو كان ما تدعيه عليك صحيحًا أو به بعض الصحة، ذلك أن المرأة المحبة لا تضحي بمن أحبت بعد أيام من الزواج لمثل هذا السبب وإنما تسانده وتحاول مساعدته على تخطي متاعبه وتحيطه بحبها وحنانها إلى أن ينجح في اجتياز أزمته فإذا فشلت كل الجهود واضطرت للاختيار بين نداء القلب ونداء الطبيعة كان الاختيار قاسيًا ومريرًا عليها وربما استجابت له بعد طول عناء.

وفى إطار احترام المشاعر وحفظ الاعتبار وليس بالتشهير الرخيص ولا بالألفاظ النابية الجارحة. وسواء كانت فكرة «المؤامرة» المسبقة لاستدراجك للزواج

وتجديد الشقة وشراء الأثاث لكي يستمتع به «الشخص الآخر» بعد حين صائبة تمامًا، أو أن فتاتك قد تزوجتك بعقلها وحده راغبة في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب المادية من ورائك ثم واجه الزواج بعض الظروف غير المواتية.. فتحولت إلى نمرة شرسة وأسرعت بهدم المعبد بأعصاب قاتل محترف لا يهتز له رمش وهو يقتل ضحيته، راضية بالفوز بما أتيح لها من غنائم خلال هذا الوقت القصير.. فإن النتيجة واحدة وهي أنك قد صادفت للأسف من لم تحبك ومن لم تكافئ حبك لها بما يستحقه من وفاء.. وبما تستحقه أنت من تقدير واعتبار أنها محنة ليست وقفا عليك ولا تنقص من جدارتك واعتبارك، فالمشكلة في النهاية هي مشكلة سوء الاختيار والاندفاع وراء المشاعر وحدها إلى طريق لم نعرف دروبه ولم نتلمس مواطئ خطانا فيه. فإن كنت قد خسرت في هذه التجربة الكثير نفسيًا وإنسانيًا وماديًا فإن العناية الإلهية لم تتخل عنك رغم كل ذلك وكان من ألطافها الخفية بك أن كشفت لك حقيقة فتاتك قبل أن تنجب منها وتتضاعف الخسائر وتتعقد الأمور، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحس بالمهانة وفقد الاعتبار والثقة في النفس وفي الناس والقيم والمثل العليا والأصدقاء لمجرد أنك قد صادفت من لم يكن يستحق ما حملته له من طوفان المشاعر الطيبة. ومن لم يلتزم معك بما تقتضيه آداب الخلاف عند الفضلاء أن الطرف الآخر هو الأحق بأن يشعر بالدونية وفقد الاعتبار لأنه اقترف معك كل ما يتعارض مع أخلاقيات أهل الشرف والوفاء، إذ ليس عارًا لأحد أن يخدعه الآخرون أو يستغلوه استغلالًا دنيئًا لكنه عارهم ووصمة في جبينهم هم دون غيرهم.

فاستعد ثقتك بنفسك وبالحياة وبالناس يا صديقي وادرس أسباب فشل تجربة زواجك الأول، وواجهها بغير خداع للنفس ثم تخلص من آثار تجربتك عليك وعلى أفكارك وشخصيتك.. وبعد ذلك تزوج مرة أخرى لا لكي تنسى هذه التجربة الأليمة وإنما لكي تعيش حياة طبيعية كزوج وأب وشريك في الحياة لإنسانة أخرى تستحقك وتحرمها الآن من حقها العادل فيك، فالزواج إنما يطلب لذاته ولأسبابه الطبيعية وليس لنسيان تجربة أو للتخلص من مشكلة.. فإذا سألتني بعد ذلك عن أسلوب الاختيار الأمثل لشريك الحياة أجبتك بأن أفضل الاختيارات هو ما صادف هوى القلب ولم يتعارض مع أحكام العقل. وأن ما يليه في الأفضلية هو اختيار العقل الذي لا يرفضه القلب أو يحتج عليه فيكون تربة صالحة لبذر بذور الحب ورعايتها حتى تتفتح أزهارها، أما أسوأ الاختيارات فهو اختيار العقل الذي يرفضه القلب وينفر منه نفورًا راسخًا لا أمل في تغييره ثم اختيار القلب الذي يرفضه العقل فيجعل من صاحبه ساحة للصراع بين نداءين متعارضين ويحسمه العقل لصالحه في كثير من الأحيان بعد بعض السعادة وكثير من المعاناة.

فتقبل تجربتك يا صديقي وارض بأداء ثمنها لأن لكل تجربةٍ خاطئة في حياتنا ثمنًا لابد من أن نتحمل ضريبته ونقبل به، وإن كان ثمنًا باهظًا وظالمًا لشاب طيبٍ القلب مستقيم الطبع مثلك يرفض بإباء قبول هبة أمه له تحرجًا من أن يغتصب حقًا لأخويه حتى ولو رضيا بذلك إيثارًا له وأملًا في مساعدته على الخروج من محنته، ولشاب متدين يرعى حدود ربه ويستحق بكل تأكيد أن تهبه الحياة شريكة أفضل

كثيرًا من اختارها في لحظة من لحظات ذهول القلب والعقل التي قد تصادف أي إنسان لجمالها الباهر وحده دون النظر للاعتبارات الأخرى الأكثر أهمية فانطبق عليه قول القائل: إن من أكبر أخطاء الرجل أن يعجبه وجه امرأة أو قوامها فيتزوجها «كلها»!

أي فيتزوجها لجمالها دون أن ينتبه إلى أنه إنما يتزوج أيضًا شخصيتها وأخلاقها ومبادئها وأسرتها والقيم السائدة في وسطها العائلي مهما تنافرت مع قيمه وأخلاقه.

إنه خطأ مشترك تقع فيه المرأة أيضًا، كما يقع فيه الرجل، لكني أرجو ألا تفهم من ذلك أني أنكر عليك أو على أحد حبًا شريفًا لمن يرغب في أن تشاركه الحياة وإنما الإنكار فقط لاختيار شريكة العمر على أساس الشكل وحده دون النظر للاعتبارات الأخرى وأيضًا للاندفاع وراء العاطفة وحدها بغير استشارة العقل.

أما الحب الإنساني النبيل فمن ذا الذي ينكره على بشر يحس ويتألم؟ في قصة «في ضوء القمر» للأديب الفرنسي جى دى موباسان راقب رجل الدين الأب مارينيان ابنة أخته وخطيبها وهما يتمشيان صامتين في ضوء القمر الساحر.. وكلاهما ينظر للآخر في عطف وحب واهتمام فمسته شاعرية الموقف وقال:

لو لم يكن الله يرضى عن الحب الشريف.. لما أحاطه بمثل هذا الإطار من الجلال!

مع تمنياتي لك بحياة جديدة سعيدة تمسح عنك كل أحزانك إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عـودة الغائـب!

دفعني إلى الكتابة إليك ما قرأته في بريد الجمعة من رسالة لأم تعجلت هدم حياتها الزوجية. ولم تصبر صبرًا كافيًا على متاعب حياتها مع زوجها، فأصبحت ابنتها بعد أن كبرت تحاسبها حسابا عسيرًا على أنها لم تحتمل من أجلها لتوفر لها حياة الأسرة الطبيعية وتحفظ كرامتها أمام صديقتها والمجتمع وقرأت ردك المؤثر على هذه الأم وكلماتك الناقدة لأي أم تتعجل الانفصال عند أول محنة بعد أن أنجبت من زوجها.. وعن محكمة الأبناء القاسية وحيثياتها التي تختلف كثيرًا عن منطقنا نحن وحيثياتنا، فأردت أن أروي لك قصتي لتشير عليّ بالرأي الصائب فيها.

أنا سيدة في السادسة والعشرين من عمري، تزوجت منذ خمس سنوات وخطبت لزوجي قبل الزواج بأربع سنوات. وكنت في السابعة عشرة من عمري وكان هو في الثلاثين من عمره، وقد توحي لك فترة الخطبة الطويلة أنني كنت على تفاهم معه، لكن هذا لم يتحقق للأسف لأني لم أكن أراه طوالها إلا لفترات قصيرة جدًا، هي فترات عودته في الإجازة من عمله بالخارج، وحتى خلال هذه الفترات لم تكن خلافاتنا معا تتوقف في الغالب، كما كنت أحس دائمًا بأن هناك شيئًا ما يقيم حاجزًا بيننا ويكمن وراء هذه الخلافات لكني لا أعرف كنهه. وقد تسألني ولماذا إذن واصلت الطريق معه رغم بوادر عدم الاتفاق الواضحة بينكما فلا أجد تفسيرًا لذلك الآن سوى فيما أتصوره من صغر سني وقتها، وفارق العمر بيني وبينه الذي كان يتيح له إقناعي بسهولة بمبررات أي تصرف.. فأتقبل الأمر وأنسى ما غضبت له.

ثم تزوجنا وأنا في السنة النهائية من دراستي الجامعية، وبعد زواجي بثلاثة عشر يومًا فقط عرفت حقيقة هذا الشيء الغامض الذي يقف بيننا. فلقد صحوت قبل الفجر ذات ليلة فلم أجد زوجي إلى جواري، وغادرت غرفة النوم لأذهب إلى الحمام فإذا بي أراه جالسًا في ركن من الشقة يتحدث في التليفون بصوت هامس ويبث إنسانة مجهولة بكلمات الحب والهيام التي يبخل بها عليّ وأحسست بجرح غائر في قلبي، لكني تحاملت على نفسي وتظاهرت بأني لم أسمع شيئًا وعدت إلى فراشي وتظاهرت بالنوم حتى الصباح وتكرر همس زوجي في الفجر في التليفون خلال أيام شهر العسل، وأنا أحاول تجاهل الأمر حفاظًا على كرامتي.. أو ضنا عليه بأن أشعره أنني أعاني من جحيم الغيرة عليه.. وخدعت نفسي بمحاولة تكذيب ظنوني إلى أن عجزت ذات يوم عن كبح جماح غيرتي.. فرحت أبحث بين أوراقه وأشيائه الخاصة عن شيء يقودني إلى معرفة هذه الغريمة المجهولة التي لم تشأ أن تعفيني من عذاب الشك حتى في شهر العسل، فعثرت على رسالة منها مليئة بعبارات، الحب وذكريات الأيام الجميلة، وأحسست بحنق شديد عليها وعليه وصممت على أن أسحقها وأهزمها.. وبدأت أتقصى شخصيتها ولم يطل بحثي طويلًا فقد لاحظت منذ الوهلة الأولى أن خط الرسالة ليس غريبًا عني.. وتوصلت إلى معرفتها بقليل من الاسترجاع ومحاولة الربط بين الأحداث.. وعرفت أنها إحدى قريباتي التي نبهتني أم زوجي نفسها منذ فترة إلى ملاحظتها لاهتمام ابنها بها خلال فترات إجازاته في مصر بأكثر من اهتمامه بي، وتذكرت تحذير والدته

لي منها ومطالبتها لي بأن أدافع عن زوجي وأحميه من نفسه ومن نزوات الآخرين، وقررت الدفاع عن حياتي واختياري الذي استهلك 4 سنوات من صباي وشبابي قبل الزواج، وحاولت جاهدة أن أستعيده بحبي وارتباطي به.. لكنه كان مصممًا على الشرود، وتأكدت من ذلك حين طلب مني عدم الإنجاب في بداية حياتنا الزوجية، ورغم شكوكي في أسبابه فلقد وافقته على ذلك.. ووافقته على كل ما كان يطلبه مني.. ولم أدعه يسمع مني في بداية حياتنا سوى كلمة حاضر وتعجبت من أن هذه الكلمة التي تريح الجميع.. كانت تستثيره في بعض الأحيان فيثور عليّ ثورة هائلة ويتهمني بالسلبية. ومع ذلك فلقد احتملت وأصبحت أيام الإجازة التي يقضيها معي عذابًا من عذاب الجحيم، وكنت أصبر عليها إلى أن تنتهي ويرجع عائدًا إلى مقر عمله.. وأغادر بيت الزوجية لأعيش مع أسرتي وأبي الذي يخفف عني الكثير.

ومضت حياتي معه على هذا النحو.. فترات انتظار طويلة.. ثم إجازة قصيرة يعود فيها وأرجع إلى بيت الزوجية فلا تمضي أيام منها حتى تبدأ المعاناة وسوء المعاملة.. إلى أن ضقت بصبري بعد فترة.. فقررت أن أتخلص من سلبيتي وأصبح إيجابية معه.. ففكرت طويلا ثم طلبت منه الطلاق خلال وجوده في إحدى إجازاته.. وفوجئت به يهتز أمام طلبي الذي لم يتوقعه ثم يصفعني بعصبية كأنني شيء من وممتلكاته الخاصة لا يحق له أن يعترض على تصرفاته.

وصممت على طلبي.. خاصة بعد أن تأكدت أن علاقته بالأخرى مازالت قائمة رغم محاولاتي العديدة، ولم أطق كتمان معاناتي أكثر من ذلك فرويت كل شيء لأبي و وافقني على الطلاق، وانتهت إجازة زوجي وسافر إلى عمله واعدًا بأن يتم الانفصال بمجرد عودته من الإجازة التالية، وبعد شهور رجع مبديا الندم على ما جرى بيننا وراغبًا في استئناف حياتنا معا على أساس جديد من الحب والتفاهم. وكان برهانه على صدقه وعلى أنه أنهى علاقته بالأخرى، هو إعلانه لي عن رغبته في الإنجاب مني في أسرع وقت. ووافقت على العودة إليه، بل وأقنعت أبي بجهد كبير حتى قبل عودتي إليه رغم معارضته.

ورجعت إلى حياتي معه.. لكني وأعترف لك بذلك عدت إليه وأنا خائفة منه، مم كنت أخاف.. وماذا كان يتملكني من وساوس؟ لا أعرف لكني رغم ذلك كنت أنام إلى جواره في الفراش وأنا أحس بأنه من المحتمل جدًا أن يقتلني ليتخلص مني!

وبسبب مخاوفي هذه.. ولرغبة مكتومة في أعماقي في الانتقام منه أردت أن ألقنه درسا لأوهمه بأن الله سبحانه وتعالى يعاقبه على ما فعل بي بحرمانه من الإنجاب، فرحت أتناول أقراص منع الحمل دون علمه.. ومضت الشهور بغير أن أحمل بالطبع.. فبدأ القلق يساوره وأنا أراقب قلقه بسرور خفي.. ثم بدأ يشك في قدرتي على الإنجاب ويطالبني بعرض نفسي على الطبيب.. فاستجبت لطلبه بترحيب، وجاءت النتائج مؤكدة قدرتي الكاملة على الإنجاب، وازداد قلقه وحزنه!

وسعدت أيضًا بذلك سعادة خفية، ومضت شهور أحسست خلالها أن زوجي قد تغيرت معاملته لي إلى حد كبير فأصبح أكثر رقة وحبا وحنانًا بي. وبعد أن كان

يعارض في عملي وجدته يسمح لي به، فراجعت نفسي ووجدت من الحكمة أن تستمر الحياة معه.. فقررت الإنجاب منه وتوقفت عن تناول أقراص منع الحمل وأقبلت على حياتي معه بحب وحنان. لكن الشهور مضت ولم يتحقق الحمل أيضًا.. وانتقل القلق الذي أردت أن أصدره له في السابق إلي أنا هذه المرة.. وذات يوم كنت أرتب له بعض أوراقه فوجدت بينها تحاليل طبية خاصة به لا أعرف لماذا شعرت بأن بها شيئًا يجب أن أعرفه.. فأخذت هذه التحاليل وأرسلتها إلى الطبيب ليراجعها، فأكد لي أن زوجي ضعيف الإنجاب.. وأنه قد يستطيع أن ينجب ولكن بعد فترة علاج ضرورية. واهتز كياني حين عرفت ذلك. وندمت على الشهور التي تناولت فيها أقراص منع الحمل دون ضرورة.. وتذكرت قوله سبحانه وتعالى: «وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» ، وأحسست أن الله قد رد مكري إلى صدري وانتظرت بقلق بشائر الحمل شهرًا بعد شهر.. فلم تظهر، واستبد بي القلق عامًا أو أكثر إلى أن أحسست ذات يوم بتعب مفاجئ وبشرني الطبيب بأنها بوادر الحمل، وسعدت به وانتظرت عودة زوجي في الإجازة بلهفة لأزف إليه الخبر، وعاد وخيل إليّ أنه قد سعد به كثيرًا، لكنه لم تمض أيام من الإجازة حتى عاد لسابق عهده معي في سوء المعاملة، وتطورت الأمور بيننا ذات مرة فضربني وأنا حامل، وطالبني بالتوقف عن العمل والقبوع في البيت لانتظار القادم الجديد، ثم رجع لمقر عمله. وجاءت لحظة الولادة وهو غائب عني.. ولم يحضر ولادتي معي سوى شخص آخر هو أبي وليس زوجي.

وجاء ابني ففرحت وشغلت به.. وأصبح رفيقي في وحدتي الطويلة في انتظار زوجي، وبلغ ابني من العمر الآن عامين مضيا بكثير من العناء وقليل من السعادة ثم صدمت بوفاة أبي منذ شهور فحزنت عليه حزنًا عميقًا، وتوقفت لأراجع حياتي مع زوجي فاكتشفت أنني أعيش وحيدة وليس إلى جواري زوج يشاركني شؤون الحياة حلوها ومرها.. فزوجي لا يشاركني في أي أمر هام من أمور الحياة.. فلقد أنجبت ابني وهو غائب.. ومات أعز الناس لدى «أبى» وهو غائب، ولم يكن بجواري ليخفف عني افتقاد الرجل الوحيد الذي كنت أعتمد عليه في حياتي، والذي كان يفهمني جيدًا ويقوم بكل شئوني ولا ينسى أبدًا عيد ميلادي ويتحفني بنوع الطعام الذي أحبه من حين لآخر، ويقدم لي حلوى المولد النبوي الشريف.. وكعك العيد.. وتورتة عيد الميلاد، قد تكون أشياء صغيرة يتهمني البعض من أجلها بالتفاهة، ولكن وما الحياة في مجموعها إلا هذه الاهتمامات الصغيرة والمجاملات الرقيقة التي تعكس اهتمام الإنسان بمن يحبه.. وزوجي في كل ذلك كان غائبًا دائمًا ولا يهتم إلا بعمله في الخارج.

إنني وحدي دائمًا يا سيدي في كل المناسبات السعيدة.. والحزينة على السواء.. وأحضر وحدي المناسبات الاجتماعية، وفي إحداها تعرضت لموقف أثار شجوني وجدد تأملاتي.. فلقد كنت أحضر فرحًا عائليًا فرآني أحد المدعوين وأبدى رغبته في أن يتقدم لخطبتي، وهو لا يتصور أنني متزوجة! ولا ذنب له في ذلك لأن زوجي كالشبح الذي لا يراه أو يتذكر أحد أنه رآه في مجتمعنا العائلي.

لقد جددت وفاة أبي مخاوفي وهواجسي.. وافتقدت برحيله السند الوحيد لي في الحياة وتفككت أسرتي بعد رحيله وظهر منها أسوأ ما كان فيها وما كان وجود أبي

يحجبه ويمنعه من الظهور ولولا وجود أبي إلى جواري طوال السنوات الماضية لما واصلت الحياة مع زوجي، ثم رحل عن الحياة، فظهرت الحقيقة صريحة أمام عيني وهى أنني لم أعد أحتمل الحياة مع زوج غائب على الدوام ولا أحتمل سوء طباعه معي.. ولا أحتمل رفضه السماح لي بالعودة للعمل مع أني أقيم مع أسرتي في بيت واحد وسأترك طفلي معها خلال عملي، وأنا الآن في حيرة من أمري هل أواصل الاحتمال.. أو أتوقف وأطلب الانفصال وأصر عليه.. وهل إذا فعلت ذلك سوف يتفهم ابني الوحيد حين يكبر دوافعي للانفصال عن أبيه ويلتمس لي العذر أم أنه كما قلت في ردك للأم كاتبة الرسالة السابقة، سوف يحاكمني على أني قد حرمته من الحياة الطبيعية بين أبوين لأسباب تخصني وحدى، وسيكون منطقه في لومه لى وحيثيات حكمه على مختلفين تمامًا عن منطقي وأسبابي.. ولا أمل في أن يفهم الأبناء الأسباب المتعلقة بالمشاعر والعواطف.

إن زوجي يحب ابنه حبًا شديدًا.. ومن حقه عليّ أن أعترف له بذلك، لكنه لا يهتم بي.. ولا يشاركني في شيء ولا يعنيه من الحياة أكثر من عمله في الخارج وجمع النقود، فهل توافقني في رغبتي في الانفصال عنه؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **أنت يا سيدتي في حالة ضعف نفسي شديد الآن بسبب حزنك على أبيك وافتقادك لكل ما كان يمثله في حياتك من أمن وأمان وعطاء مخلص لك بلا حدود.**

والإنسان في حالة الحزن الشديد أو الأزمات النفسية الطارئة لا يكون قادرًا على التفكير العقلاني الهادىء الذي يتيح له اتخاذ القرارات الصائبة بشأن الأمور المصيرية في حياته، لهذا قيل بحق أن الحزن والغضب من أعداء التفكير السليم، الأول لأنه يهون على الإنسان بعض ما يتهيبه أو يخشى تأثيره على حياته بدعوى أن أي شيء آخر في الحياة مهما كان مرًا لن يضارع في قسوته ما فقده الإنسان وحزن عليه وهي حالة وجدانية مؤقتة لا تدوم وحين تنتهي كما ينتهي كل شيء في الحياة في وقته المعلوم يكتشف الإنسان أنه قد فرط متأثرًا بحزنه فيما قد لا يفرط فيه بسهولة بعد هدوء الأحزان. والغضب أيضًا من أكبر أعداء التفكير السليم لأنه يشل العقل ويرخي قبضته على الانفعالات العنيفة ويعمي البصيرة فيدفع الإنسان لاتخاذ ما يندم عليه من قرارات انفعالية حين يسترد صفاء تفكيره وهدوء نفسه فيما بعد لأن الغضب كما قال الأديب الايرلندي العظيم برنارد شو «ريحٌ هوجاء تطفئ شمعة العقل». والحزن الشديد كذلك في تقديري. وفي الريح الهوجاء لا يجوز لعاقل أن يفكر في أمور حياته المصيرية ويتخذ بشأنها قرارات حاسمة متعجلة وإنما تطالبه الحكمة بأن يحتمي من الريح الهوجاء بأي ملجأ.. ثم ينتظر هدوء العاصفة.. ليفكر في شأنه باتزان.. وهذا ما أنصحك به في البداية.. وهو أن تؤجلي اتخاذ أي قرار يمس حياتك ومستقبل طفلك الوحيد إلى أن تتخلصي من آثار محنتك النفسية الحالية وتستردي سلامك واطمئنانك بعد حين..

وحين تفعلين ذلك فقد يكون من المفيد أن أضع أمامك بعض النقاط التي تساعدك على التوصل إلى قرار صائب بشأن حياتك القادمة بإذن الله. فأما عن الزوج الغائب عن زوجته باستمرار في كل شئون الحياة فهذا الوضع وإن كان خاطئًا إلا أنه لن يستمر إلى مالا نهاية لأن العمل في الخارج رحلة قصيرة مهما طالت. ولابد أن يعود إليك زوجك ذات يوم قريب ويجتمع شملكما معا وتفرض عليه الحياة وخبرة السنين مشاركتك في كل أمور الحياة أو معظمها. وإذا كنت أفضل دائمًا أن يجتمع شمل الأسرة في الحل والترحال مالم تقف دون ذلك موانع أقوى من إرادة رب الأسرة فإن غياب زوجك عنك هو في النهاية وضع مؤقت، ولا يجوز اتخاذ قرار مصيري يمس حياة طفلك استنادًا إلى وضع لن يدوم ومن الميسور تغييره إما باللحاق به في مقر عمله أو بالصبر عليه إلى أن تنتهي رحلة الغربة في يوم ليس ببعيد.

وأما عن ابنك الذي تتخوفين من «محاكمته»، لك في المستقبل عن مسؤوليتك عن حرمانه من الحياة المستقرة بين أبويه بسبب اعتبارات خاصة بك فإن هذا التخوف نفسه أكبر دليل على أنك من أصحاب الضمائر الحية الذين لا يبيحون لأنفسهم أن يطلبوا سعادتهم الشخصية على حساب تعاسة أعزاءهم. والضمير هو حارس الفضيلة دائمًا وكابح الرغبات والنزعات الفردية التي تتجاهل اعتبارات الآخرين ومصلحتهم ومادام صوته حيا داخلك فلا خوف على ابنك من التضحية بسعادته واستقراره لحساب اعتباراتك الخاصة ولا خوف عليك من محاكمته لك في المستقبل بإذن الله خاصة أنك تعرفين جيدًا أنك قد تحملت في بداية حياتك الزوجية وقبل أن تنجبي طفلك ما كان يعطيك الحق في طلب الانفصال عن زوجك بغير أن يلومك أحد وبغير أن يكون لانفصالك عنه ضحية صغيرة، لكنك لم تفعلي وتجاوزت ما واجهك من مشاكل وأنجبت طفلًا بريئًا ليس من العدل أن يتحمل تبعات عودتك لزوجك حتى على غير إرادة أبيك وتبعات التوقف لمراجعة النفس وإعلان العجز عن مواصلة الاستمرار بعد المجيء به إلى الحياة.

وإذا صح تقديري فإنك لن تقدري على التمسك بالانفصال عن زوجك إلى النهاية لكنك فيما أتصور بالإضافة إلى ظروفك النفسية بعد رحيل أبيك، راغبة في العودة للعمل وغاضبة لرفض زوجك السماح لك به. مع أن هذا الرفض نفسه قد يكشف عن جانب طيب في شخصيته على عكس ما تتصورين ورغم إدانتي واعتراضي الشديد على كثير من تصرفاته معك خاصة في بداية الزواج، ذلك أنه لا يطلب منك الامتناع عن العمل مؤقتًا لتتفرغي لرعايته هو. لأنه غير مقيم معك، وإنما لكي تتفرغي لرعاية طفلك الذي يحتاج إليك بكل تأكيد في بواكير عمره، ومن السهل أن تصبري عن رغبتك في العمل إلى أن يشتد ساعده ثم تخرجين للعمل إذا رغبت بغير اعتراض من زوجك.

أما ما رويته لي عن خلافاتك مع خطيبك طوال سنوات الخطبة الأربع.. واستكمالك لمشروع الزواج معه رغم ذلك وعن ارتباط زوجك بك وهو مشغول القلب بأخرى، وخيانته لك بعد أيام قليلة من شهر العسل، فليس لي من تعليق عليه سوى أني أكاد أشك أحيانًا أنه ليس بين الكائنات الحية جميعها من يصنع بحياته في بعض

الأحيان ما يفعله الإنسان بها من دمار وخراب.. ومعاناة ما كان أسهل عليه أن يتجنبها ويجنب الآخرين مقاساتها معه فهو في حدود علمي الكائن الوحيد الذي يمضي أحيانًا في طريق ليس راغبًا في أعماقه في المضي فيه للنهاية ومع ذلك فهو يسير فيه بإرادته وليس مدفوعًا بقوة لا حيلة له فيها، كما أنه بالتأكيد الكائن الوحيد بين كل الكائنات الذي قد يهب قلبه لأنثى ثم يختار في نفس الوقت أنثى أخرى ليسكن إليها ويقيم معها عشه وهو مالا تفعله للعجب الطيور بأنواعها ولا الحيوانات الكاسرة أو الأليفة ولا حتى الأسماك مع أن الله قد ميزه عن كل هذه الكائنات بالعقل.. والقدرة على استرجاع دروس التاريخ.. وبالإرادة الحرة التي غرسها في روحه وأمره بأن يختار بها لنفسه ما فيه خيره وخير الآخرين أما ما حدثتني عنه من انتقامك الخفي من زوجك بالامتناع عن الحمل منه، رغم تلهفك في البداية عليه، ثم قلقك وخوفك من تأخره بعد أن رغبت فيه فلقد ذكرني بعبارة موحية جاءت في رواية «سيلاس مارنر» للروائية الانجليزية جورج إليوت على لسان أب أنكر طفلته الصغيرة في البداية وتجاهلها وتركها تنشأ في رعاية رجل غريب حتى لا يؤثر ذلك على وضعه الاجتماعي ثم تزوج من زوجة لائقة به اجتماعيا فحرمه ربه من الإنجاب منها وضاق بعد أن تقدم به العمر قليلًا بوحدته فأراد أن يسترد ابنته بعد أن أصبحت غادة يافعة فإذا بها هي من تنكره هذه المرة وترفض العودة إليه فقال متعجبًا ومتأسيًا:

أردت أن أتظاهر بأني لم أنجب أطفالًا قبل زواجي حرصا على وضعي العائلي فعاقبني ربي بالحرمان من الإنجاب حين تزوجت من الزوجة الراقية.. وبالحرمان حتى من ابنتي حين أردت استردادها!

فاشكري ربك يا سيدتي إن كانت تذكرته لك بأنه جل شأنه «خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» هينة وبسيطة ولم تتجاوز شوكة صغيرة وخزتك بالقلق والخوف عاما وبعض عام فقط.. ثم منَّ عليك بطفلك الجميل وهدايا السماء غالية ثمينة دائمًا يا سيدتي وهي تستحق منا ألا نفكر في حياتنا بمعزل عن التفكير الصائب والعادل في حياتهم ومستقبلهم ومن يعرف ذلك ويقدره حق قدره يرشده ربه دائمًا إلى ما فيه خيره وصلاح أمره وخير أعزائه ـ هدية السماء له ـ وصلاح أمرهم في الحاضر والمستقبل بإذن الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العـود الأخضـر!

أريد أن أروي لك قصة أسرتي الصغيرة وأستشيرك في أمر هام.. لقد مات أبي - رحمه الله - وكان تاجرًا وترك وراءه زوجة في الخامسة والأربعين من عمرها وابنا أكبر في الحادية والعشرين من عمره وثلاث بنات كبراهن في التاسعة عشرة وصغراهن في العاشرة من عمرها. وأنا يا سيدي إحدى هؤلاء البنات الثلاث، لكني لن أقول لك من أنا قبل أن أكمل لك القصة. وكانت أمي ربة بيت طيبة عاشرت أبى بالمعروف وأحبته واحترمته دائمًا، وحزنت عليه حين مات، حتى هدها الحزن ثم تماسكت لكي تحمينا وتستكمل معنا رسالتها..

أما شقيقنا فقد كان قد تخرج قبل شهور ويحلم بالسفر إلى أوروبا ليعمل هناك ويبني مستقبله، ووعده أبي بالموافقة على شرط أن يرجع فورًا ويتحمل مسؤوليته عن أمه وأخواته البنات إذا جاء الأجل لأبي وهو في الخارج.. وكان أبي في الخامسة والخمسين من عمره ممتلئًا صحة وشبابًا، فوافق أخي على رغبته هذه مطمئنًا إلى رجولته وإحساسه بالمسؤولية، وآملا أن يزهد في التجربة بعد شهور ويعود ليعمل معه وبدأ أخي إجراءات السفر وحصل على التأشيرة وجواز السفر وأحضر له أبي الدولارات..

لكنه ظل لسبب أو لآخر يعطل سفر شقيقنا.. ويؤجله من شهر إلى آخر إلى أن فوجئنا بوفاته، فكأنما كان يحس بدنو الأجل.

وتنازل أخي عن أحلامه على الفور، وواجه مسؤوليته الثقيلة عن أم و 3 شقيقات، وأدار عمل أبي ففوجئ بتركة مثقلة بالديون والضرائب، واكتشفنا جميعًا أننا لسنا أثرياء كما كنا نتوهم ونحن في حماية أبي.. وإنما نحن من هؤلاء الناس الذين تحسبهم أغنياء من التعفف، وهؤلاء حالهم أصعب كثيرًا من حال بسطاء الناس من الفقراء، فلا هم أغنياء فيقوون على مواجهة متطلبات مظهرهم وحياتهم ولا هم بسطاء فيتقبلون مساعدة الناس لهم بلا حرج، أو أزمات نفسية.

وكان هذا هو حالنا بعد وفاة أبي بعام واحد، فقد جفت مواردنا التي استنزفتها الديون.. وقل دخلنا كثيرًا بسبب انكماش التجارة بعد الديون والضرائب.. وأصبح ما يأتي منها لا يسد رمقنا إلا بصعوبة شديدة وأخي يصارع الحياة وحيدًا بلا سند ولا معين. وأمي ونحن نبكي له وعليه.. وهو يواجه الدنيا القاسية وهو كما قالت أمي «عود أخضر» لم يكتمل نموه بعد، وقد اشتدت عليه الضغوط حتى كان يبيت الليل مؤرقا تسح دموعه لأن عليه في الصباح شيكا لابد من دفع قيمته وإلا قدم للنيابة. وقد عرف طريق النيابة والمحكمة للأسف وعشنا أيامًا سوداء كئيبة بعد أن كان بيتنا لا يعرف إلا البهجة والسرور.

وقد جرى كل ذلك ونحن نتكتم ظروفنا عن الأهل.. والأقارب والجيران.. وإن كانت «رائحة الضيق» لا يحبسها شيء وزاد من معاناة شقيقي أن كبرى الشقيقات الثلاث كانت مخطوبة قبل وفاة أبينا بشهور، وخطبها خاطبها وهي ابنة تاجر مستور الحال، ويجب أن تزف إليه بما لا يجرح كرامتها أو يرخصها في عين

زوجها، وأن الأخت الوسطى كانت في إحدى الكليات العملية.. وتحتاج إلى مصاريف كبيرة للكتب والدروس الخصوصية وخلافه. أما الأخت الصغرى فقد كانت دلوعة أبيها التي لا يرد لها طلبًا، ومات أبوها وهي طفلة فحرص أخي على استثنائها بقدر الإمكان من التقشف الذي فرضته الأسرة على نفسها فنشأت جريئة تطلب ما تريد بغير حرج أو تقدير لأي ظروف.. وتغضب إذا لم يستجب لها أحد.. وفي هذا العناء عاش شقيقي سبع سنوات طويلة قاسية غيرت كل شيء في شخصيته وحياته، فبعد أن كان شابًا مرحًا أنيقًا يتفجر صحة وحيوية قبل وفاة أبيه، استقرت الكآبة والهموم في وجهه.. وسقط شعره وتحول العود الأخضر إلى عود جاف متجعد.. واكتسب عادة سرعة التأثر بأي شيء فكان لا يكاد يمضي يوم لا تراه فيه أمي أو إحدى البنات خلسة ودموعه على خديه وهو مختل بنفسه في غرفته.. كما بدأ يعاني من آلام شديدة في معدته ويحس دائمًا بالغثيان والرغبة في التقيؤ، وكثيرًا ما صحونا في الليل على صوته وهو يفرغ ما في معدته في الحمام.

وبعد إلحاح شديد من أمي عرض نفسه على الطبيب وعرف أنه قد أصيب بقرحة في المعدة.. وكان هذا هو الثمن الذي دفعه من صحته لإنجاحه في تحمل المسؤولية وتسديد الديون.. وتزويج الأخت الكبرى بأقصى ما يستطيع من إمكانيات مشرفة إلى جانب أدائه لكل تكاليف دراسة الأخت الوسطى.. وتعليم الأخت الصغرى التي رفضت دائمًا التنازل عن أي مطلب من مطالبها، وأصبحت تمثل له أصعب مشاكله بعد أن بدأ يلتقط أنفاسه ويجني ثمار تعبه.. ففي سن السابعة عشرة سمع أنها تلتقي بطالب جامعي مستهتر ومتعثر في دراسته وسمعته سيئة.. وواجهها.. وصرخ في وجهها وضربها لأول مرة في حياته.. وبدأ يضيق عليها في الخروج والدخول ويترك تجارته ليراقبها.. ويبكي من القهر حين يعرف أنها لم تلتزم بما وعدته.. وأصبح الاشتباك بينها شبه يومي، وهي لا ترتدع ولا تخاف.. ورسبت في الثانوية العامة بعد أن كلفته في الدروس الخصوصية الكثير، وأحكم رقابته عليها في العام التالي وجاءها بالمدرسين في البيت حتى لا تخرج، فنجحت بصعوبة والتحقت بمعهد عال.

وبدأ يستريح قليلًا ففوجئ بها تجيء إليه بهذا الطالب ليخطبها بدون أهله. ورفضه شقيقي وقال له بصراحة إنني لا أوافق عليك لسوء سمعتك ولأنك متعثر في دراستك، وأنا لا أرتاح إليك لكني مستعد لأن أغير رأيي فيك إذا أصبحت إنسانًا جادًا وأكملت دراستك.. وجئت مع أهلك لخطبة أختي. وهاجت الشقيقة الصغرى على شقيقها.. وأعلنت بكل وقاحة أنها سوف تتزوجه سواء أكمل دراسته أو لم يكملها.. وخيم النكد والشقاق على بيتنا، وازدادت نوبات القيء والغثيان عند شقيقنا وأمي ترجوه أن يرحم نفسه وصحته ويدعها للأيام «تربيها».. وهو يقول أنها أمانة في رقبته لابد أن يحافظ عليها.

واستمر الصراع وطال حتى أننا لم نشعر بأي فرح حين خطبت الشقيقة الوسطى وأصبح كل همنا هو أن نكتم عن خطيبها فضائحنا واقترب شقيقي من الثلاثين ولم يخطب ولم يتزوج، ويقول إنه لن يستريح إلا إذا زوج الأخت الصغرى - قبل الوسطى - لأنها مشكلة حياته. وبعد ذلك سوف يبحث عن نفسه، وخلال ذلك

فوجىء بالأخت الصغرى تعلن أنها ستقطع دراستها بالمعهد وتتزوج من فتاها الذي قطع دراسته بعد ثماني سنوات وعمل في إحدى دول الخليج بوظيفة صغيرة بواسطة خاله المقيم هناك.. وانفجرت المشاكل من جديد وبعد أن أعيت الأخ الأكبر الحيل معها أعلنها أنه موافق على زواجها منه ولا يطلب منها سوى إكمال دراستها التي لم يبق على انتهائها سوى عامين فقط ثم اللحاق بزوجها.. فأصرت على أن تؤجل الامتحان عامًا وتقطع الدراسة وتتزوج.. وبدلا من أن تتبين وجه الحكمة في نصيحة شقيقها لها اتهمته أمام أمه وشقيقته بأنه يعرقل زواجها حتى لا تطالبه بجهاز وفساتين العروس.. الخ بل واتهمته - قطع الله لسانها- بأنه اغتال حقها في ميراث أبيها وطالبته به لكي تتزوج وتسافر!

فما أن سمعت الأم والشقيقتان ذلك حتى صرخن فيها وبكين ونهضن إليها ليكتمن صوتها، فوقفت كالنمرة الهائجة وهددت بأنها ستلقي بنفسها من النافذة إذا اقترب منها أحد. وانعقد لسان شقيقنا من التأثر ثم قال لها ذاهلا بعد حين: افعلى بنفسك ما تريدين فإني برئ منك إلى يوم الدين.... أما الميراث فقدري نصيبك منه وسأعطيه لك.. وليفعل الله ما يريد.

وطلبت الشقيقة المتمردة مبلغًا محددًا لشراء ما تحتاج إليه من فساتين وملابس فأعطاها شقيقها أكثر مما طلبت لكنه لأول مرة في حياتنا طلب من أمي أن تستكتبها ورقة بتسلمها له وبأنها قد حصلت على نصيبها من الميراث ولم يعد لها في ذمته شيء. وكتبت الورقة وشهدت عليها الأم والشقيقتان وتزوجت الشقيقة الدلوعة فتاها المحبوب بالتوكيل، وسافرت إليه بفستان الزفاف الأبيض ومعها حقائبها محملة بالملابس الفاخرة وتم كل ذلك في جو كئيب.. وشقيقنا صامت لا يتكلم.. وقد تحمل مسؤوليته في عقد زواجها وهو حزين.. وكلما اقترب موعد سفرها ازداد اكتئابًا وانطواء وزادت نوبات القيء والغثيان والأم والشقيقتان يلححن على الفتاة المدللة أن تعتذر لشقيقها وتسترضيه قبل سفرها، فلم يخرج منها سوى أن صافحته وهي مسافرة في برود ولم تكلف خاطرها أن تسترضيه بكلمتين!

وبعد سفرها بأسبوعين دخل المستشفى لإجراء عملية القرحة وكتبت إليها شقيقتها لكي تكتب إليه خطابًا طويلًا تعتذر له فيه أو تتصل به تليفونيا، فلم يخرج من يدها إلا خطاب قصير من عدة سطور تقول له فيه سلامتك!! فانسد قلبه تجاهها بعد صبر طويل ولم يرد عليها وأصبح يتجنب رفع ساعة التليفون حين تتصل بالأسرة.

وبعد عام من سفرها تزوجت الشقيقة الوسطى في هدوء ولم تحضر الصغرى فرحها لأن ظروف زوجها المادية لم تسمح، وتزوج شقيقنا من إحدى قريباتنا بعد قليل بلا فرح ولا احتفال، كأنما كتب عليه ألا يفرح بشيء منذ وفاة أبيه، وخاصة بعد خروج شقيقته الصغيرة على طاعته وإيلامها له، ولم يمض وقت طويل حتى أصبحت الشقيقة الصغرى مرة أخرى مشكلة الأسرة كما كانت منذ بلغت سن الصبا.. فقد بدأت أفلام المعارك لا تتوقف بينها وبين زوجها المحبوب، بما فيها من ضرب وكسر وجرح وبهدلة في الشرطة هناك ولجوء إلى بيوت الأصدقاء..

ورجوع إلى مصر ببيع ذهبها أو على نفقة خال الزوج حيث ترفض العودة لبيت الأسرة خوفا من مواجهة شقيقها وتنزل ضيفة عند شقيقتها الكبرى بالأسابيع ثم يعود يصالحها زوجها بالتليفون، فترجع إليه كأن شيئًا لم يكن.. ويتكرر الفيلم بنفس تفاصيله بعد عام وكل مرة تعود فيها تخلع حذاءها أمام شقيقتها وتضرب به نفسها فوق رأسها لأنها لم تسمع نصيحة شقيقها وتقول لماذا لم تمنعوني بضرب الحذاء مما فعلت!

وشقيقنا يسمع بذلك فلا يتكلم ولا يعلق ويتألم جدًا كلما جاءت لمصر ورفضت المجيء إلى البيت ويقول في حسرة إن الدم لا يتحول إلى ماء إلا عند أولاد الحرام.. ونحن لسنا كذلك فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد زاد الطين بلة أنها أنجبت من زوجها طفلًا وأنه لم يتخل عن استهتاره في الغربة.. ففصل من عمله أكثر من مرة بسبب إهماله وعدم التزامه بالمواعيد، وفي فترات تعطله تنشب بينهما المعارك على ذهبها ومصوغاتها ويستولي على ما يشاء بالقوة ويتظاهر أمام أهله بأنه ناجح في عمله، فيرسل لأبيه مثلًا هدية وهو متعطل وبنقود من ثمن ذهبها حتى يوهمه أنه يعمل مع أن خاله يقيم في نفس المدينة وقد ساعده على الالتحاق بأكثر من عمل. ويحرص على مظهره أمام من يعرفهم هناك ويشتري لنفسه الملابس وزوجته وطفله لا يجدان ما يسد الرمق وقد بلغ بهما الحال أن عانت الحرمان والجوع هي وطفلها أكثر من مرة لولا مساعدات خاله له، وهو لا يريد أن يستقيم ويحرص على لقمة عيشه وإنما يسهر حتى الصباح في بيوت أصدقائه ويتأخر عن عمله فيفصل إلى جانب أنها تعيش معه في سكن شعبي لا يختلف عن سكنى القرى وقد أنذره خاله في المرة الأخيرة بأنه لن يتدخل لإنقاذه إذا فقد عمله الحالي الذي لا يوفر له إلا الكفاف.. وسوف يفقده عاجلًا أو آجلًا لأنه مستهتر، وقد استولى زوجها أيضًا على معظم مصاغها بالضرب والبهدلة في فترات التعطل ولم يبق منه إلا شيء قليل تخفيه لدى أسرة صديقة لكي تستطيع شراء تذكرة الطائرة إذا ساءت الأحوال أكثر وهي رغم مرور 5 سنوات لاتزال مقيدة بالمعهد بعد أن قدمت اعتذارًا عن عدم دخول الامتحان أكثر من مرة ودخلته خلال وجودها بمصر مرة ونجحت والعام القادم هو فرصتها الأخيرة لدخوله. وقد يئست تمامًا من انصلاح أحوال زوجها لكنها تقاوم - بكل ما تملك من قوة - العودة خائبة بطفلها ومواجهة شقيقها وتريد العودة لدخول الامتحان وللبحث عن حل لمشكلتها وزوجها لا يمانع في ذلك بل إنه يطالبها بالعودة لمصر حتى يتخلص من تكاليفها.. ويسكن في غرفة مشتركة مع صديق له.. ويوفر إيجار السكن العائلي الذي لا يحتمله مرتبه..

وهي تريد ألا تعود إلى بيت الأسرة خوفًا من شقيقها.. وزوجها لا يضمن لها أن تستريح في بيت أبيه بل إنه لا يضمن لها أن يقبل إقامتها عنده وقد تزوجها وقطع دراسته من أجلها على غير رغبة أبويه، وسوف يغلقان غالبًا بابها دونها.. وحتى لو قبلاها فمن أين ستعيش وهي لا تضمن أن يفي زوجها بالتزاماته ويرسل لها المبلغ الشهري الذي وعد به.. وأنت في النهاية يا سيدي تريد أن تعرف من أنا من هؤلاء الشقيقات الثلاث وقد كرهت بالتأكيد خلال قراءتك لرسالتي تلك الأخت

الصغرى الجاحدة التي تنكرت لشقيقها بعد ما عانى من أجل أسرته وتتمنى ألا تكون قارئتك هي هذه الأخت الجاحدة لكنها أنا بعينها للأسف، وقد علمتني الأيام ما لم أكن أعلم.. وعرفتني حكمة شقيقي وبعد نظره وأريد أن يصفو الجو بيني وبينه.. وألا يتخلى عني مهما كنت قد فعلت معه وأريده أن يعود أبا وأخا لي كما كان ولكن بدون شماتة وبدون ذل أو تذلل لأني قد شبعت ذلا وإذلالا ومهانة خلال 5 سنوات من الزواج والغربة رأيت فيها مالم أكن أتخيل وجوده في الدنيا وأريدك أن تنصحني ماذا أفعل في حياتي مع زوجي.. وكيف أعود إلى رعاية أخي لي كما أريدك أن تتوسط بيني وبينه وتقول له أنني قد تعلمت الدرس.. وأريده أن ينسى كل ما كان بيننا وأن أعود أختا صغرى له فهل تفعل ذلك أو بماذا تنصحني أن أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **افعلي يا سيدتي ما ينبغي لك أن تفعليه وهو أن تواجهي نفسك بغير خداع أو مكابرة وتقرري على ضوء الواقع الصريح والتجربة هل هناك أي احتمال لانصلاح أحوال زوجك واستقرار الحياة معه من أجل طفلك ومن أجل حب الصبا الأهوج الذي جر عليك وعلى أسرتك كل هذه الأهوال؟ أم أن الزواج قد فشل وولد ميتا منذ زمن طويل لكنه مستمر بالقصور الذاتي أو العجز عن إيجاد البديل.. والخوف من مواجهة الفشل وشماتة الأهل الذين لم تسمعي لنداء الحكمة في صوتهم؟**

وإذا كان الاحتمال الأول هو الأرجح فواصلي المقاومة حتى آخر نفس لكيلا تصبح تجربتك في النهاية تجربة عبثية بعد كل ما تكبدت من أجلها من عناء وما تحملت من تبعات .

وإذا كان الاحتمال الثاني هو الأرجح فاتخذي قرارك بنفسك وتوصلي إليه باقتناعك الحر الكامل كما توصلت من قبل إلى اقتناعك الأول باختيار الحب ضد نداء العقل والأهل والحكمة، حتى اذا اهتديت إلى القرار رضيت بتبعاته بغير أن تلومي أحدًا كما فعلت حين تساءلت مرة: لماذا لم يمنعك أحد من الزواج وقطع الدراسة من الزواج وقطع الدراسة.. ولو - عفوًا - بضرب الحذاء؟

إنه قرارك وحدك وأنت قادرة والحمد الله على اتخاذ القرارات وتحدي الإرادات المحيطة بك حتى النهاية.. فلماذا تضعفين عن القرار الآن أن كان من أجل طفلك فهذا ضعف حميد يستحق التأييد أما إذا كان لغيره فدعيني أحدثك بصراحة فأقول لك إنك لا ترغبين في الانفصال عن زوجك رغم ما قاسيت منه، لكنك تريدين أن تعودي إلى حماية شقيقك في مواجهته ومواجهة ظروف حياتك القاسية ولا بأس حتى بالدوافع «المصلحية»، أحيانًا مادامت تقودنا إلى تصحيح وضع خاطئ ورفع الإثم والحرج عنا. فلقد كان الإمام أحمد بن حنبل لا يرى بأسًا في إجازة بعض الأحاديث الضعيفة ما دامت تحض على فضائل الأعمال.

والوضع بينك وبين شقيقك الآن وضع آثم لأن فيه قطعًا للرحم بينكما وتنكرًا منك له وجحودًا لفضله وحقه عليك كأخ وأب لك. وهو يضيق بهذا الإثم أكثر مما تضيقين به مع فارق هام هو أن رفع هذا الإثم عنه سوف يضيف إلى كاهله عبئًا جديدًا هو مسؤوليتك ورعايتك وحمايتك، في حين أن رفعه عنك سوف يخفف عنك بعض متاعبك ومعاناتك مع زوجك ومع الحياة.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف تستكثرين أن تعترفي لشقيقك بخطئك في حقه وتعتذري له اعتذارًا صريحًا عنه؟ وكيف تعتبرين ذلك «ذلا» «وإذلالا»، وترغبين في العودة إليه بغير اعتذار ولا لوم من جانبه إن لامك أو عاتبك.

الحق أنني لا أفهم هذا النوع العجيب من الحساسية الذي يسمح للإنسان بأن يخطئ في حق الآخرين ويتمادى في خطئه ثم يرفض الاعتذار عنه ويكره لومه عليه.. لأن اللوم سوف «يجرح» مشاعره وأحاسيسه؟ إن الحساسية الايجابية هي التي تنأى بصاحبها عن الخطأ حتى لا يضع نفسه موضع اللوم من الآخرين أما حساسية ارتكاب الخطأ وعدم احتمال اللوم عنه.. فهذا مالا أفهمه ولا استسيغه فلكل شيء في الحياة ثمن يا سيدتي.. وأهون ثمن للخطأ هو أن نتحمل عتاب من أخطأنا في حقهم أو من جافيناهم وتنكرنا لهم وآذينا مشاعرهم طويلاً بلا ذنب جنوه سوى رغبتهم في حمايتنا. والإنسان الفاضل حقًا هو من إذا أخطأ اعتذر، وإذا عوتب على خطئه تقبل العتاب راضيًا.

لقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي اقترض من أعرابي بعيرا فلما جاء الأعرابي في موعد أداء الدين يطلب دينه أغلظ على الرسول في الطلب فاستاء الصحابة حتى هموا بالرجل لإساءته الأدب مع رسول الله فقال لهم عليه الصلاة والسلام: دعوه.. إن لصاحب الحق مقالًا أي منطقا ومبررا لأن يطلب حقه بما يراه مناسبًا له، ثم أمر برد دينه إليه بأفضل مما أخذ

وواجب المدين دائما هو أن يؤدي دينه للدائن ولو اشتد عليه في الطلب، ومن يرفق بمدينه كان أفضل وأقرب إلى الخلق الكريم.

وأنت قد «اقترضت» يا سيدتي من شقيقك الكثير والكثير من سعادته وصحته وراحته الشخصية وراحة قلبه وأعصابه منذ صباك وواجبك الديني والاخلاقي هو أن تردي عليه دينه حتى لو اشتد عليك في اللوم والعتاب.

أما تحسسك من الاعتذار له ومن عتابه لك فلا ينطبق عليه إلا قول الكاتب الأمريكي «ريتشارد هاردنج» إن سوء فعلك لا يفوقه إلا رفضك الاعتذار عنه. وفي الحديث الشريف أن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»، وشقيقك لا يطلب منك شكرًا ولا عرفانا وإن كانا من حقه وإنما يطلب منك فقط ترضية بسيطة لنفسه وربما اعتذارا عن خطئك في حق نفسك وأسرتك قبل خطئك في حقه، وهو لن يشتد عليك في اللوم والعتاب وهيهات أن يفعل من كان من أهل العطاء وإنكار الذات مثله وقد فات أوان اللوم والعتاب وإنما من حقه عليك وعلى نفسك ألا تطلبي منه دينا جديدًا بغير سداد ديونك القديمة له وما أسهل السداد.. وما أهون الأداء حين يتوقف على كلمات ترضي النفس وتمسح الجراح وتفتح الابواب التي

أغلقها الجحود والنكران في وجوهنا أما الشماتة.. فلا محل لها.. بين الأشقاء.. وهل يشمت المرء في يده إذا اعتلت وهو من يعاني أوجاعها؟

يا سيدتى ارفعي عن نفسك أنت قبل غيرك إثم تنكرك لشقيقك وجحودك له وقطعك لرحمة باعتذار صريح لا لبس فيه منك فالأسوياء فقط لا يكابرون ولا يجادلون فيها لا يحتمل الجدال.. ثم عودي لاستكمال دراستك وأقيمي في بيت أبيك وأخيك واجعلي من شهور الدراسة في مصر فرصة اختبار أخيرة لزوجك فإما استقام واهتدى وتعامل مع الحياة ومعك بجدية أب مسؤول عن زوجته وطفله، وإما أغلقت بمساعدة شقيقك هذه الصفحة من حياتك نهائيًا وبدأت حياة جديدة بعد استكمال دراستك وأول مؤشرات التغير الايجابي في شخصيته هو حرصه على عمله ومورد رزقه، وجديته في الالتزام بمسؤوليته المادية عنك وعن طفله، وتفكيره في بدء مشروع شراء أو استئجار شقة في مصر لتكون بيتا مستقرًا لك، فإذا لمست منه هذه المؤشرات الإيجابية فبها ونعمت، وإن لم يتغير فلا مفر مما لا مفر منه، وفي كل الأحوال فلابد لك من أن تصححي الوضع الخاطئ بينك وبين شقيقك وأن تستكملي دراستك مزودة بسلاح جديد ضد استهتار زوجك المحبوب هو رعاية شقيقك لك وصفحه عنك، وشهادة دراسية تفتح لك أبواب العمل.

فلماذا تحرمين نفسك من مساندة أخيك لك في الحياة لمجرد كراهيتك للاعتذار له وتهيبك لعتابه ولومه أو حتى جفائه لك لفترة قصيرة إلى أن تصفو نفسه تجاهك، وهل اللوم والعتاب والجفاء إذا حدث - ولن يحدث بإذن الله - أشد إيذاء لك من الضرب والكسر والنطح والبهدلة في الغربة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفاء النهر

أنا الطبيب الشاب بمستشفى ايتاي البارود الذي كتب إليك منذ أكثر من عام رسالة نشرتها بعنوان «فاتورة الألم» عن الفتاة «ابتسام» نزيلة مستشفى ايتاى البارود التي فقدت في حادث قطار مؤلم ذراعا وكف الذراع الأخرى وساقا، ولم يتبق لها من أطرافها سوى ساق وحيدة مع عجز تام عن الحركة، وقد كتبت لك وقتها عن قوة إيمان هذه الفتاة ذات السبعة عشر ربيعًا ورضائها بما جرى لها وابتسامتها التي لا تفارق شفتيها رغم هول الإصابة والألم. وبعد النشر في بريد الجمعة حدث ما تعرفه وما ذهلت له أنا وزملائي بالمستشفى حين تعاملنا مع هذا النبع من الخير الكامن في نفوس المصريين ينتظر الإشارة لكي يتدفق كالنهر، إذ مازلت أذكر بعد أكثر من عام أنه في اليوم التالي للنشر مباشرة فوجئنا بزيارة عشرات من القراء والأصدقاء المجهولين من كل مكان جاءوا لزيارة ابتسام والتخفيف عنها ومازلت أذكر أول زائر وصل إلى المستشفى وكان محاسبًا جاء من الإسكندرية قاطعًا هذه المسافة الطويلة في شهر رمضان يزورها ويخفف عنها.

وهزني بشدة ذلك المهندس الكيميائي الذي كان قد أجرى عملية جراحية بالعمود الفقري قبل وقت قصير وغادر مستشفى المواساة بالإسكندرية حيث أجريت له الجراحة.. متوجهًا منه إلى مستشفى ايتاى البارود راقدًا على ظهره في عربة إسعاف طوال هذه المسافة الطويلة في رمضان كما مازلت اذكر عشرات الزوار من أطباء مستشفى رأس التين العام ومن المصلين بمسجد بكري بالإسكندرية وزيارات السيدات الفضليات من القاهرة ومنهن السيدة العظيمة التي تعرفها والتي شملت ابتسام برعايتها طوال العام الماضي خلال فترة إقامتها بالقاهرة للعلاج الطبيعي، وزيارات الشباب والطلبة الجامعيين، والرسائل التي كانت تصل إليها كل يوم على المستشفى من مصر والدول العربية ومن شاب مصري يعمل بهولندا، كما مازلنا نعجب لرسائل ذلك المجهول الذي كان يرسل لابتسام كل يوم بانتظام قصيدة شعر يحدثها فيها عن الأمل والإيمان وجمال الحياة رغم كل شيء وأذكر أن كل من زاروا ابتسام قد تألموا كثيرًا لصعوبة حالتها لكن إعجابهم بقوة ايمانها وابتسامتها الدائمة ورضائها بقضائها وقدرها كان أكبر وأعظم. وقد دفع كل هؤلاء الزوار فاتورة «الأمل» لها بكرم وحب ووفاء.

لقد عشنا أيامًا حافلة في مستشفى ايتاى البارود وكانت تجربة عظيمة لنا عرفنا منها أن نهر الحياة يتدفق دائمًا ويجرف أمامه جميع الآلام فلا يبقى بعد ذلك إلا صفاء النهر..

وها أنذا أكتب لك هذه الرسالة لأبلغك أنه بعد عام طويل من العلاج الطبيعي، استطاعت ابتسام منذ أيام فقط وبمساعدة الأطراف التعويضية التي تكفلت بها وزارة التعليم أن تسير على قدميها وأن تستخدم إحدى يديها لأول مرة منذ وقع لها الحادث ولم يبق والحمد لله إلا البحث عن مركز تأهيلي متقدم يناسب حالتها لاستكمال العلاج فيه.

وأخيرًا فإني بلسان ابتسام أشكركم جميعًا وأشكر بريد الجمعة وقراءه وهذا الشعب العظيم الذي ليس صامتًا ولا سلبيًا كما يقولون عنه لكنه فقط يريد هدفًا يلتف حوله لكي يصنع المعجزات والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **هذا خبر عظيم سيسعد له قراء هذا الباب الذين مازالوا يذكرون قصة هذه الفتاة الشجاعة الصابرة كما سعدت له حين قرأته. إن الإيمان بالله وبالحياة والبشر وبالخير الكامن في النفوس هو خير زاد يعين الإنسان على تحمل المصاعب.**

والتطلع دائما بقلب يخفق بالأمل في رحمة الله إلى غد أفضل تزول فيه الآلام هو الطريق ولا طريق غيره لمواصلة الحياة والتكيف معها. ولقد أوتيت هذه الفتاة الصغيرة قوة روحية كبيرة أعانتها على تحمل أقدارها بنفس راضية وابتسامة دائمة.. فجرفت الحياة آلامها، وصفا - ونرجو أن يصفو لها دائمًا - نهر حياتها من كل الأوشاب بإذن الله.

إنني أعرف الكثير مما رويت لي عما فعل قراء بريد الجمعة الأفاضل مع هذه الفتاة.. وأعرف أيضًا عن قرب ما قدمته تلك السيدة العظيمة بحق من رعاية لها خلال فترة العلاج الطبيعي التي حملت خلالها عن بريد الجمعة مسؤولية متابعة هذا العلاج بمراحله المختلفة، لكني لم أكن أعرف قصة هذا المهندس الكيميائي الذي غادر مستشفاه بالإسكندرية راقدًا على ظهره في عربة اسعاف إلى مستشفاكم ليزور فتاة صابرة لا يعرفها ولعله قرأ قصتها وهو في فراش المرض فوعد نفسه بأن يزورها حين يأذن الله له بمغادرة المستشفى. يا إلهي إنني أومن دائمًا بالبشر وبالخير الكامن في أعماقهم وأردد لنفسي دائما كلمة الكاتب الأمريكي ديفيد لوث وقد تكون معلومات بعض البشر خاطئة وقد يكون تفكير بعضهم سيئًا ـ لكن مشاعر الأغلبية العظمى منهم سليمة وطيبة، وأرى من صور ذلك في تعاملي مع حالات بريد الجمعة الإنسانية الكثير لكني لم أتأثر منذ فترة بمثل ما تأثرت لهذه اللفتة الإنسانية الكريمة من هذا الكيميائي الفاضل.

نعم.. نعم.. يا صديقي إن هذا الشعب عظيم حقًا ونبع الخير في أعماقه لا ينضب وهيهات ان ينضب أو يجف رغم جفاف الحياة حول الكثيرين من أبنائه.. ولعلك تعرف بعض الجوانب الأخرى من مبادرات هذا الشعب العظيم للتخفيف عن أسرة ابتسام المكافحة في محنتها التي تمت عن طريق بريد الأهرام مباشرة..

فهنيئا لابتسام استعادتها لقدرتها على الحركة وسعادة الكثيرين بذلك وهنيئًا لكم ولقراء بريد الجمعة الأفاضل بما فعلوا وبما أعادوا غرسه من بذور الأمل في طريق هذه الفتاة المؤمنة. ويبقى أن يرشدنا أحد من أهل الاختصاص إلى مثل هذا المركز التأهيلي المتقدم لكي نواصل معكم المشوار إلى نهايته بإذن الله.. وشكرًا لك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الحياة أشـواك!

هذه رسالة من الرسائل القليلة التي أحس بضرورة التمهيد لها بكلمة قصيرة توضح قصة الرسالة.. أو قصة القصة كما يقول نقاد الأدب.

وقبل أن أفعل.. أقول في البداية إنني أصدق كل حرف فيها.. ليس فقط لنبرة الصدق الإنساني العالية فيها.. وإنما أيضًا لأني قد اكتشفت حين قرأت توقيع صاحبها وعنوانه في نهاية الرسالة أنه صديق من أصدقاء بريد الأهرام اليومي يكتب لي من مدينته من حين إلى آخر رسالة حول القضايا العامة.. وتتسم رسائله دائمًا بالصدق والموضوعية وبعد ذلك أقول إنني قد نشرت منذ أكثر من عام رسالة بعنوان «فاتورة الألم»، كتبها طبيب شاب وروى لي فيها قصة الفتاة الصابرة المؤمنة ابتسام التي فقدت في حادث قطار بإيتاى البارود ساقا وذراعا كاملة وكف الذراع الأخرى وتواجه أقدارها برضا وابتسامة لا تفارق وجهها، وقد أحاطها قراء بريد الجمعة عقب النشر بمشاركتهم وتوافدوا لزيارتها في مستشفى ايتاي البارود وخففوا بعض آلامها.. وقد روى لي كل ذلك في رسالة ثانية نشرتها بعنوان فاتورة الأمل حكى فيها ما قدمه أصدقاء بريد الجمعة من عطاء إنساني ومادي لابتسام. ومنذ أسابيع كتب لي رسالة جديدة نشرتها بعنوان «صفاء النهر» بعد مضي عام على حادث الفتاة الصابرة ليزف إليّ خبر استعادتها لقدرتها على الحركة بعد تركيب الأجهزة التعويضية لها ويتذكر ما أحاطها به أحباء بريد الجمعة من مشاركة صادقة خففت عنها الكثير من معاناتها وكيف جاء كثيرون لزيارتها من القاهرة والإسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى.. إلخ.. وكيف كتب لها العشرات من الشباب والفتيات خطابات المشاركة والتعاطف الصادق، وكان من بين هؤلاء كيميائي فاضل أصر على أن يزورها قادما إليها من الإسكندرية في عربة إسعاف راقدًا على ظهره طوال الطريق بعد جراحة صعبة أجراها في العمود الفقري فتوقفت في تعليق الرسالة أمام زيارة هذا الكيميائي الفاضل بالذات وقلت إنها قد مست قلبي واعتبرتها نموذجا فريدًا للتعاطف الإنساني النبيل بين البشر في مواجهة آلام الحياة واختباراتها القاسية.

ومنذ أيام تلقيت في بريدي هذه الرسالة:

سأقدم لك نفسي مباشرة فأقول لك إنني ذلك الكيميائي الذي أشار إليه الأخ الكريم الطبيب الشاب في رسالته إليك بعنوان «صفاء النهر»، والذي تناوله قلمك بتعليق كريم وكلمات رقيقة هزت مشاعري بعنف حان وارتفعت بها حالتي النفسية والمعنوية ودعوت الله صادقًا أن يحقق فينا حسن ظن الناس بنا ويوفقنا جميعًا إلى الخير .

ولقد أعادت هذه الكلمات الطيبة إلى ذاكرتي قصة زيارتي لابتسام بمستشفى إيتاى البارود في رمضان قبل الماضي وهي زيارة تجلت فيها رحمة رب العباد بعباده الضعفاء.. وسوف أشرح لك بعد قليل تفاصيل هذه الرحمة الإلهية.

فقد شاءت إرادة الله أن تجرى لي جراحة بالفقرات القطنية من العمود الفقري بمستشفى المواساة بالإسكندرية بعد رحلة معاناة طويلة مع الألم.. ثم جاءت تجربة الجراحة بمشاعرها المختلفة قبل دخول غرفة العمليات وبعدها.. وفي مثل هذه الحالات يكون الإنسان صادقًا مع ربه ومع نفسه ويصبح أكثر إحساسًا بآلام الآخرين ومشاعرهم خاصة وقد تدفق عليّ طوال فترة إقامتي بالمستشفى نهر من الحب والعطاء من أهلي وأصدقائي وزملائي وأحبابي ينبع من المحلة الكبرى حيث مقر إقامتي وعملي.. ويصب في غرفتي بمستشفى المواساة بالإسكندرية.. وفي هذا الجو الإنساني الصادق قرأت رسالة الطبيب الشاب الأولى لك «فاتورة الألم»، وعرفت قصة ابتسام مع محنتها فانفعلت بقصتها وايمانها وابتسامتها الدائمة رغم قسوة الاختبار وقررت في نفسي أنه عند خروجي من المستشفى وعودتي إلى بلدتي المحلة الكبرى سوف أمر على إيتاى البارود لأزورها في المستشفى وأخفف عنها بعض آلامها كما خفف الأحباب والأصدقاء عني في مرضي. وأفضيت برغبتي لزوجتي الوفية التي تلازمني في المستشفى ووافقتني عليها، وجاء يوم خروجي من المستشفى وجاءت عربة الإسعاف لتنقلني واستلقيت على السرير الموجود بها لأن حالتي الصحية بعد الجراحة لم تكن تسمح لي بالحركة كثيرًا، وبدأنا الرحلة ومعي داخل عربة الإسعاف بعض المرافقين واقتربت السيارة من مدينة إيتاى البارود فسمعت همهمة بينهم فهمت منها انهم لا يريدون دخول المدينة خوفًا على ظهري من مطبات الشوارع الداخلية ومشقة مغادرة السيارة وصعود سلم المستشفى، فأكدت لهم تصميمي على القيام بالزيارة.

ووصلت السيارة إلى مدينة إيتاى البارود فكان اليوم هو يوم السوق والطريق شبه مغلق بالزحام والعربات والباعة. فحاولوا مرة أخرى اثنائي عن إتمام المشوار إشفاقا على حالتي الصحية، فصممت من جديد على رغبتي.. حتى ولو أدى الأمر لنزولي من السيارة والذهاب إلى المستشفى سائرًا على قدمي بالرغم من أنني لا أكاد أقوى على المشي واستسلم المرافقون في النهاية لما أردت فأطلق سائق سيارة الإسعاف سرينتها ليفسح له الباعة والمارة ثغرة في الزحام يمر منها ووصلنا إلى المستشفى ونزلت من سريري متكئًا على كتف أحد المرافقين وقابلت الطبيب الشاب ثم قابلت ابتسام الباسمة ورأيت فيها الصبر والأمل وقضيت معها بعض الوقت أشد من أزرها وأخفف عنها بعض ابتلائها ثم ودعتها وعدت إلى سريري بعربة الإسعاف مصحوبا بالدعوات الطيبة وأحس براحة نفسية كبيرة وسعادة غامرة عجيبة.

وواصلت سيارة الإسعاف طريقها إلى المحلة الكبرى حتى بلغت منزلي حيث ينتظرني أبنائي الذين تركتهم عشرين يوما في رعاية خالتهم الكريمة فما أن دخلت إلى البيت حتى عرفت سبب تصميمي الداخلي على زيارة ابتسام في مستشفاها رغم حالتي الصحية وفهمت أيضًا سر رحمة ربي لي ولطفه بي.

فلقد اندفع أبنائي إليّ فإذا بي أجد ابني الأكبر الذي يبلغ من العمر 18 عامًا والطالب بالثانوية العامة والابن الوحيد لي على بنات مبتور الساق اليمنى

فاحتضنته وفقدت الوعي لفترة لا أعرف مداها.

وحين أفقت عرفت ما أخفاه عنى الجميع طوال إقامتي بالمستشفى.. لقد صمم ابني في اليوم التالي لإجراء الجراحة لي على أن يسافر وحده إلى الإسكندرية ليزورني ويطمئن عليّ وعندما هم بركوب القطار انزلقت قدمه فسقط تحت عجلات القطار وشاءت إرادة الله أن يسقط جسمه بعيدًا عن العجلات.. فلم يدهم القطار إلا ساقه اليمنى.. وحمله أهل الخير إلى المستشفى حيث تم بترها فيه وغادره يمشي على عكازين. وتعجبت لمفارقات الحياة التي لا تفسير لها إلا انها من مشيئة الله ففي الوقت الذي كنت أسعى فيه لزيارة ابتسام على غير معرفة بيننا سوى الرابطة الإنسانية بين كل البشر لأشاركها مشاعرها وآلامها ومحنتها دون أن أدري شيئًا عن ابتلائي الخاص الذي ينتظرني في بيتي، كان أهل الخير وما أكثرهم من الجيران والأهل والأصدقاء والأحباب - جزاهم الله عنا كل خير- يحيطون ابني ليل نهار برعايتهم وحبهم وعطفهم ويخففون عنه آلامه ويعوضونه غياب الأب في جراحته ومرضه وغياب الأم المرافقة لزوجها في مستشفاه، وكانوا جميعًا حريصين على ألا أعلم بما جرى به القضاء على ابني الوحيد ونجحوا في ذلك وكانوا رائعين حقا في عطائهم ومواقفهم الخيرة الكثيرة معه .

لقد أفقت من إغمائي فتولاني الجزع والقلق واستسلمت للحزن والهواجس.. ابني الوحيد مبتور الساق.. كيف سيتحمل حياته ماذا سيصنع بمستقبله.. كيف سنتحمل كيف سنتحمل معه هذا الابتلاء وعششت الأفكار السوداء في صدري بعض الوقت فإذا بي أسمع هاتفًا داخليًا يقول لي: لماذا أرسلناك إذن لزيارة ابتسام التي فقدت في حادث قطار مشابه ساقا وذراعا كاملة وكف الذراع الأخرى.. وفيم كان إلهامنا لك أن تصمم على إتمام الزيارة.

رغم كل المعوقات والمحاولات من جانب مرافقيك.. كف يا رجل عن الجزع.. وارض بقضاء ربك.. وقم فصل صلاة شكر له، فلقد كان بابنك لطيفا.. وبك رحيما.. وهداك لأن تزور تلك الفتاة الصابرة وتلمس عن قرب عظم ابتلائها وقوة إيمانها وارتفاع معنوياتها رغم ما أصابها.. أفأنت أقل منها إيمانا واحتسابًا.. فانتفضت واقفًا وصليت لربى وحمدت الله أن كان بنا لطيفًا رحيمًا.. إذ ماذا يكون ابتلائي في ابني إذا قارنته بابتلاء ابتسام الصابرة الباسمة التي رأيتها منذ ساعة. بل ماذا كان سيصبح عليه حالي لو فوجئت بابني الوحيد مبتور الساق قبل أن أرى من بلاؤها أشد من بلائي وبلاء ابني.. وألمس عن قرب صبرها ورضاها بأقدارها لقد استعدت سلام نفسي بعد فترة قصيرة من الهواجس وصبرت واحتسبت وعوضني الله عن بلائي خيرًا كثيرًا، لقد تم تركيب الجهاز التعويضي لابني وتخلص من العكازين وعاد يسير على قدميه كأي شاب آخر.. وكان بلاؤه هذا من بين العوامل التي ساعدته على النجاح في الثانوية العامة في العام الماضي.. فقد أحاطه الجميع بعطفهم ورعايتهم ومساعدتهم له قبل الامتحان وأثناءه بل وكان ابتلاؤه أيضًا سببًا في دخوله جامعة طنطا ضمن نسبة المعوقين وما كان مجموعه ليؤهله لدخول الجامعة وهو يعيش حياته الآن راضيا بقضاء ربه وقدره ويحدوه الأمل في غد سعيد بإذن الله.. فاذا أريد من ربي - جلت قدرته - أكثر من ذلك..

وكيف أشكره على لطفه به وبنا وعلى إرادته الإلهية في التمهيد لي برؤية ابتسام الباسمة الراضية بأقدارها لكي أصبر على ما خفي عني من بلاء وأتماسك أمامه.

إنه ما من شوكة تصيب الإنسان إلا رفع الله بها درجاته أو غفر له بها من ذنوبه كما جاء في مضمون الحديث الشريف.. والحق يا أخي أن الإنسان في هذا الزمان في حاجة لأن تصيبه «الشوكة» من حين لآخر لكي يتوقف بعض الوقت عن لهثه الدائم وراء الدنيا وصراعاتها، ويراجع نفسه ويطهر روحه من صدأ ماديات الحياة التي تلهيه عن أشياء كثيرة تستحق منه الاهتمام. ولقد توقفت وراجعت وخرجت من مراجعتي بشكر الله وحمده على كل شيء والسلام عليكم ورحمة الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: «لله الحكمة.. ولنا الألم» هكذا قال داود النبي متحدثا إلى لقمان الحكيم. وهكذا ينبغي أن نقول كلما واجهنا ما يخفى علينا وجه الحكمة الإلهية فيه من اختبارات الحياة القاسية ومفارقاتها.

ذلك أن كثيرًا من آلام الإنسان إنما يرجع إلى عجزه عن فهم أسرار الحكمة الإلهية وراء بعض تصاريف القدر ولو فهمناها أو تلمسنا السبل إلى فهمها لسلمنا بما حدث دائمًا وتقبلنا كل ما تأتي به الحياة بنفس راضية.. وتواءمنا مع حياتنا وظروفنا الجديدة وتعلقنا دائما بالأمل في رحمة الله أن يخفف عنا ما نعاني منه ولقلنا مع الشاعر الانجليزي «إذا كان الشتاء القاسي قد جاء.. فليس الربيع ببعيد» إذن فلنحتمل صقيع الشتاء واكفهرار الحياة فيه فهو لن يدوم إلى الأبد ولن يطول بل سيأتي بعده ربيع يداوي الجراح ويمسح الأحزان. أو هذا على الأقل ما ينبغي أن نتمسك بالأمل فيه حتى النهاية حتى لا نستسلم لليأس والإحباط والهواجس السوداء بلا طائل.

وأنت يا سيدي قد أتيح لك أن تتفهم بعض أسرار الحكمة الإلهية وراء تصرف صغير هو إصرارك على زيارة تلك الفتاة الصابرة عقب خروجك من المستشفى رغم ظروفك الصحية والاعتراضات، فلقد أراد الله لك أن يخفف عنك وقع بلائك المنتظر.. وأن يقدم لك دليلا بشريا حيا على أن ما جرت به المقادير على ابنك العزيز لن يكون نهاية الحياة بالنسبة له.. ولن يحرمه من مواصلة حياته وتحقيق أهدافه وأحلامه فيها فكأنما قد أراد لك ربك أن تزور هذه الفتاة المؤمنة لكي تخفف هي فيها بعد عنك بأكثر مما خففت أنت عنها. وهذه هي أهمية المشاركة الإنسانية لآلام الآخرين وهمومهم. إننا قد نفيد الآخرين بمشاركتنا لهم آلامهم ومحاولاتنا للتخفيف عنهم لكننا قد نستفيد أيضًا منهم بأعمق مما أفدناهم نحن وأبعد. وأول ما نجنيه من ذلك هو راحة الضمير التي يحسها صاحب الفعل الأخلاقي، وآخره هو بما يعيننا اقترابنا من مآسيهم.. على الصبر على آلامنا وعدم المغالاة في تقديرها. والرسول الكريم يقول لنا: «لا تحقرن من المعروف شيئًا»، لأن كل فعل أخلاقي مهما بدا لنا ضئيلا له قيمته ودوره الإيجابي في تجميل الحياة وإعلاء مثلها العليا وله أيضًا «جوازيه» عند خالق الكون وعند الفضلاء من الناس. ويعجبني في هذا

الصدد تعريف الفيلسوف الألماني كانط للخير حين يقول لنا إن الخير هو مطابقة الإرادة للقانون الأخلاقي وبالتالي فإن الفعل الأخلاقي خبر بالضرورة. وهذا صحيح تمامًا ولو لم تكن تصاريف القدر قد ادخرت لك ما كان ينتظرك من ابتلاء عند عودتك لبيتك من رحلة المرض لكانت جائزتك على الفعل الأخلاقي الذي صنعته بزيارة تلك الفتاة هو فقط ما أحسست به عقب الزيارة من راحة نفسية وسعادة غامرة، لكن إرادة الله شاءت غير ذلك ولا راد لمشيئته، فأصبحت تلك الزيارة دعما قدريًا لإيمانك وصبرك لكي تقوى على مواجهة ما كان ينتظرك من اختبار. إننا يا سيدي مدينون للحياة بقدر ما هي مدينة لنا ومن واجبنا أن نتقبل اختباراتها القاسية صابرين.. كما نرحب بمباهجها وأفراحها مهللين. ولاشك أنك قد تقبلت أقدارك بنفس راضية مؤمنة.. وعرفت أن «شتاء» الابن العزيز لم يطل كثيرًا بل سرعان ما تفتحت زهور الربيع في قلبه وعقله بعد قليل. حفظه الله لك وحفظك له ولأسرتك وكل محبيك وشكرًا لك على رسالتك القيمة هذه التي علمتنا درسًا جديدًا فريدًا من دروس الحياة التي لا حد ولا نهاية لغرائبها.. وعجائبها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التاريخ القديـم

قررت أن أكتب لك قصتي لعل فيها ما يفيد غيري.

فمنذ عشرين سنة كنت طالبة في بداية مرحلة الجامعة على قدر من التفوق وعلى قدر آخر من الجمال، وكانت تربطني بزميلاتي وزملائي علاقة تسودها الثقة والاحترام، وفى أحد الأيام تقدم مني أحد زملائي وقال لي إنه يحمل لي مشاعر خاصة وإني فتاة أحلامه التي يتمنى أن يرتبط بها للأبد، وبالرغم من أني سعدت فعلا بما سمعته منه إذ كانت أول مرة في حياتي يعبر لي فيها شاب عن مثل هذه المشاعر إلا أنني اعتذرت عن عدم الارتباط به لأننا في سن صغيرة لا تسمح لنا بالحكم الصائب على المشاعر التي قد تتغير من مرحلة إلى مرحلة من العمر ولأنني أيضًا كنت شهدت بدايات قصص ارتباط بين زملاء وزميلات فلم تطل ولم تخلف لصاحباتها سوى الألم .. والسمعة! ..

وتوالت الأيام.

ونسيت هذا الزميل تمامًا.. ثم تعرضت لقصة غريبة مع زميل آخر نجح في استثارة تعاطفي معه بقصة مؤلمة عن يتمه وكفاحه لإعالة إخوته خاصة شقيقته التي ناشدتني في رسالة تسلمتها بالبريد في الكلية ألا أتخلى عنه حتى لا يزداد انهيارًا وتضيع أسرة بأكملها يعولها من عمله الليلي وتعاطفت معه فعلا ثم فوجئت بالزميل الأول ينصحني بالابتعاد عنه لأنه شاب عابث يشيع بين أصدقائه أنه مرتبط بي فضلًا عن أنه ليس يتيم الأب فوالده على قيد الحياة وهو الذي يعول الأسرة وليس هذا الزميل الذي لا يعمل عملًا ليليا كما يزعم وإنما يصادق بعض أصحاب السوء وله مغامرات وعلاقات كثيرة، وإلى جانب ذلك فليست له أخت صغيرة أو كبيرة وقد زيف الرسالة التي تلقيتها لاستدراجي للارتباط به. وذهلت مما سمعت وأصابني ما يشبه الانهيار وعدت إلى بيتي فرميت شرائط الأغاني العاطفية وروايات الحب في صندوق القمامة وقطعت صلتي به ولم أعد أطيق مجرد رؤيته عن بعد واقتنعت تمامًا بأن الحب وهم كبير وأن الرومانسية خزعبلات يتحايل بها بعض الشبان على الفتيات لتحقيق ما يهدفون إليه، وقررت ألا أتزوج إلا زواج العقل وحده، ومضت السنوات الدراسية وفي العام الأخير جاءتني زميلة لي وأبلغتني أن الزميل الأول وهو قريبها مازال متمسكًا بي وقد اشترى دبلة ذهبية وحفر داخلها اسمي وتاريخ اليوم ويرتديها في إصبع يده اليمنى.. ويسألني أن أنتظره حتى يتخرج ويعمل ويتقدم لي. فثرت في وجه زميلتي هذه وأكدت لها أني لا أريد الارتباط بأي إنسان، وواجهت هذا الزميل بقسوة وأبلغته أنني لن أرتبط بأحد ونصحته بأن يوجه اهتمامه لدراسته بدلًا من مثل هذه الخزعبلات، ولم أكتف بذلك وإنما سخرت من «دبلته»، التي يرتديها، بطريقة قاسية فلم يزد على أن أحنى رأسه، ثم انصرف صامتا وهو في قمة الخجل.

وتخرجت في كليتي وابتعدت عن مجتمع الكلية اللهم إلا بعض الزميلات اللاتي استمرت صداقتي بهن وفي إحدى الحفلات العائلية رآني شاب من أقارب أمي وأعجب بي ووافق عليه أهلي لأنه ميسور الحال ووافقت عليه بناء على موافقتهم.

وتزوجنا وأنا لا أحس تجاهه سوى بمشاعر القبول العادية آملة أن يحدث التقارب بيننا بعد الزواج، فمضت ثلاث سنوات دون أن أنجب وبدأ القلق يسيطر على أسرته وينعكس على حياتنا وبدأت أمه تحثنا على إجراء الفحوص الطبية وأجريناها فازداد القلق فقد أثبتت قدرته الكاملة على الإنجاب في حين كشفت الفحوص عن ضعف قدرتي عليه، ومضت السنوات ونحن نطوف على الأطباء حتى مللت كل شيء بالرغم من لهفتي على الأمومة وازداد تدخل أسرته في حياتنا بسبب هذا الأمر وبدأ زوجي يطلب مني السماح له بالزواج من أخرى لكي ينجب، وشيئًا فشيئًا تحول إلى شخص آخر يسب ويلعن اليوم المشئوم الذي رآني فيه، وكثرت المشاحنات وفترات الخصام بيننا.. وفى إحدى هذه النوبات طلبت منه الطلاق لكي يتزوج غيري ويستريح، فوافق بشرط التنازل عن مؤخر الصداق، وطلقني فعلًا بعد 10 سنوات كاملة من الزواج ووجدت نفسي في سن الثالثة والثلاثين مطلقة، وعرفت مدى بشاعة كلمة المطلقة في مجتمعنا.. وكنت منذ تخرجي بالكلية لم أعمل فوجدت نفسي غير قادرة على احتمال الحياة بلا زوج.. ولا أطفال ولا عمل.. فبحثت عن عمل مناسب وعملت به وركزت فيه كل همي، وبدأت أتشاغل به عن أحزاني.

وذات يوم زارتني الزميلة قريبة الزميل القديم صاحب الدبلة الذهبية وتطرق الحديث إلى زملاء زمان فألمحت لي أن قريبها قد عاد من الخارج بعد رحلة عمل طويلة حقق خلالها نجاحه، وبدأ مشروعا في مدينتنا، وسعدت بنجاحه واستقرار حياته.

وبعد شهور أجريت لي عملية الزائدة الدودية.. فزارتني صديقتي هذه وزوجها.. وفوجئت بالزميل القديم معها.. وتأثرت بوفائه وحرصه على مجاملتي في مرضي.

ثم خرجت من المستشفى.. وبعدها بأيام أبلغتني صديقتي بأن زميل الجامعة القديم يريد أن يتقدم لي من جديد! واختلطت الدهشة بالفرحة وسألتها متعجبة: بعد كل هذه السنوات.. وأنا مطلقة..؟ وهل يعرف حكاية الإنجاب ودهشت حين قالت لي أنه يعرف عني كل شيء من زوجها طوال السنوات الماضية وأنه لم يرتبط للآن ولم يتزوج.. بل ولم يقرر الاستقرار في مدينتنا وبدء مشروعه فيها إلا بعد أن علم بطلاقي!

ووجدت دموع التأثر تطفر من عيني ولم أعرف ماذا أقول وتعجبت من الدنيا ومما تفعله بنا، وطلبت مهلة قصيرة للتفكير فلم يمض يومان إلا ووجدته في بيتنا على غير موعد، يطلب يدي.. بل ويهددني بأنه لن يغادر بيتنا هذه المرة إلا وأنا في عصمته فإذا بينبوع من المشاعر يتفجر داخلي ويغرقني ويحول مشاعر الزمالة إلى مشاعر من نوع آخر.

وبدأنا نستعد للزواج وأصر الزميل القديم على أن يقيم لي فرحًا كبيرًا في أحد الفنادق كأنني فتاة بكر لم تتزوج من قبل، وتزوجت مرة أخرى وأنا في الخامسة والثلاثين من عمري وقضينا شهر العسل في أحد المصايف وأدركت خلاله كم كنت غبية حين حرمت نفسي من هذا الإنسان الطيب المتدين رقيق المشاعر.. دافئ القلب ولم تمض أسابيع حتى كان قد أقنعني برقة وبلا ضغط بارتداء الحجاب والانتظام في الصلاة وبعد عام من زواجنا اصطحبني إلى الرحلة المباركة لأداء فريضة الحج معا، وبعد عام آخر فاجأني باصطحابي معه في رحلة صيف إلى انجلترا بدعوى السياحة والاستمتاع بنعمة الله علينا وهناك اصطحبني لزيارة طبيب كبير بناء على حجز مسبق لديه منذ شهر، وأخبرنا الطبيب أن الأمل ضعيف لكنه قائم.. فلم أصدم لأني كنت قد سلمت أمري لله في هذا الأمر منذ زمن بعيد.. لكني أشفقت عليه هو من أن يخيب أمله، وواظبت على العلاج والمتابعة في مصر وبعد ستة شهور عدنا إلى نفس الطبيب وأجريت لي جراحة أخرى، ورجعت لمصر وتابعت العلاج تحت إشراف طبيب هنا، فإذا بي أشعر وأنا في التاسعة والثلاثين بشيء غريب ومثير يتحرك في أحشائي، وإذ بمن قال للشيء كن فيكون يأذن لي بأن ألد مولودي الجميل وأنا في الأربعين من عمرى، فسبحانك ربي تعز من تشاء وتذل من تشاء وأنت على كل شيء قدير.

ولقد عاهدت نفسي منذ ولادتي من شهرين أن أكتب لك قصتي لأشكر ربي على عطيته ونعمته ولأؤكد لقرائك ما تقوله أنت لهم كثيرًا من أن الحياة قد تدخر أحيانًا للإنسان ما يحلم به من سعادة ثم تعطيه جوائزها حين يشتد ضيقه وكربه ولا يرى في حياته سوى الحزن والدموع وهذا هو جزاء الصابرين الشاكرين، إنني يا سيدي أسمع الآن كثيرًا آيات الذكر الحكيم فيخفق قلبي حين أسمع قوله تعالى: «وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا» وقوله تعالى: «وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، وقد عرفت من فيض معانيها الآن لماذا لم يرد لي الله سبحانه وتعالى أن أنجب من زوجي الأول خلال عشر سنوات وأدركت أن ما شقيت به حينذاك إنما كان لحكمة خفية هي أن يتحقق أملي في الأمومة وفي الحياة مع الإنسان الذي ملك عليّ حياتي والذي ضللت الطريق إليه في بداية الشباب. أما ما أريد أن أقوله لك في النهاية فهو أني قد عدت منذ 5 سنوات للاستماع أيضًا إلى شرائط الأغاني العاطفية.. وتوقفت تمامًا عن إنكار الحب والرومانسية، إذ كيف يجوز لي ذلك.. ودبلة زوجي القديمة التي اشتراها ونحن طالبان في الجامعة مازالت موجودة للآن محفورًا بداخلها اسمي وتاريخ الشراء القديم منذ 19 عامًا؟ ثم كيف «أكفر» بها وقد حولا حياتي من الشقاء.. إلى السعادة والحمد الله كثيرًا على نعمته وعلى كل شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ»، صدق الله العظيم، هذا هو مغزى قصتك الجميلة هذه وأهم دروسها إلى جانب دلالات الآيتين الكريمتين اللتين تتفكرين في معانيها كثيرًا الآن، إن قصتك يا سيدتي مثال جديد على سعي الحياة الدائم لتصحيح أخطائها، كما كان يقول شاعر الهند العظيم

طاغور، وما أكثر الأخطاء وما أكثر من يتمنون لو اتسعت لهم فسحة العمر ليشهدوا تصحيحها.. أو ينالوا جوائزهم وفي القلب بقية من استعداد للاستمتاع بالحياة.

وبالرغم من كل ذلك فإن الإنسان يستطيع أن يستعين على ما يشقيه بالتعلق دائما بالأمل في رحمة الله وبألا يشتد جزعه حين تحرمه الحياة من بعض ما يصبو إليه، انتظارًا لدوره في تصحيح الأخطاء وجوائز الحياة للصابرين الراضين بأقدارهم.

وهناك حكمة هندية تقول: «كل ما تأتي به الحياة خير، وكل شيء مكروه سيصبح مألوفًا بعد حين»، وبمفهوم هذه الحكمة فإن علينا أن نتقبل أقدارنا بغير سخط.. ثم نسعى بقدر الجهد لتغيير ما نستطيع تغييره من أوضاع تسبب لنا الشقاء.. ونصادق ونألف ما لا نستطيع تغييره منها.

ويبدو أن هذا هو ما فعله زوجك الحكيم يا سيدتي فلقد تقبل أقداره بلا ولولة ولا بكاء على الأطلال، ثم تمسك بحلمه شبه المستحيل إلى أن ساعدته دورة الأيام على تهيئة الظروف الملائمة لتحويله إلى حقيقة، وكل شيء يأتي لمن صبر كما يقولون.

والحق أن كثيرين يسيئون فهم الرومانسية ويتصورون أنها لا تعني سوى الحب الحالم الذي يتناقض مع أحكام العقل أو تعني العاطفة الهوجاء بلا مرشد من عقل أو حكمة، في حين أن المفهوم الصحيح لها يختلف كثيرًا عن ذلك

إن الرومانسية في الأصل تعبير استخدم لوصف نزعة في الأدب والفن تتسم بتغليب الأحاسيس والمشاعر والعاطفة على مقتضيات العقل والمنطق في العمل الفني أو الأدبي، أما في الحياة فهي لا تعني انقياد الإنسان لعاطفته ومشاعره بلا ضوابط ولا روابط وإنما تعني أساسًا عدم إغفال اعتبارات القلب والمشاعر والعاطفة الإنسانية في اختيارات الإنسان وقراراته وتصرفاته وتعني أيضًا تقدير الإنسان للاعتبارات غير الحسية وقدرته على تذوقها والاستمتاع بها كما يتمتع بالمتع الحسية وربما أكثر، ونقيض الرومانسية في الحياة هو المادية والحسية ومعناهما ألا يحرك الإنسان في كل اختياراته وأعماله وتصرفاته شيء إلا الاعتبارات المادية أو الغرائز وحدها!

وبهذا المفهوم الصحيح فإن «الرومانسية»، التي تعني لغويا الخيال أو الخيالية.. إنما تعني عمليا الحب.. والإنسانية.. والمثل العليا واحترام المشاعر الإنسانية والفضيلة.. وحب الخير والرحمة والحلم بحياة أكثر خيرية وأقل شرورًا، والقدرة على تذوق جمال الطبيعة والجمال غير الحسي وتذوق الفن الراقي والأدب الرفيع والاستمتاع بها، والاهتمام بكل ما يرقق المشاعر ويقترب بالحياة من مثلها الأعلى.

وبعبارة الكاتب والشاعر الأمريكي هنري ثورو فإنها تعني ألا يكون الإنسان «ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخور»، ولولاها لازدادت الحياة قسوة.. ولما تزوج شاب ممن يحبها.. مفضلًا إياها على من هي أكثر منها جمالًا وأعز مالًا أو

مكانة اجتماعية ولما فعلت فتاة أيضا نفس الشيء.. ولولاها لما حركت الإنسان إلا مصالحه المادية وغرائزه فقط ولأصبحت الحياة غابة لا يسكنها إلا الوحوش.

وبهذا المفهوم فإنها ليست ضد العقل والمنطق كما يتصور كثيرون ولا تخاصمها.. وإنما تطالب الإنسان فقط بألا يغفل الاعتبارات العاطفية والإنسانية في اختياراته وتصرفاته.. وبألا يتخلى عن الحلم بحياة أفضل له وللآخرين.. حتى ولو بدا له الواقع غير مبشر بتحقيق الأحلام.. وهذه كلها كما ترين من صفات كل «المصلحين»، فالمصلحون على مر التاريخ وفي كل المجالات أشخاص رومانسيون لم تحركهم الاعتبارات المادية ولا غرائزهم.. وإنما حركتهم الدوافع الإنسانية والعاطفية لتحقيق مثلهم العليا ولو على حساب مصالحهم المادية وراحتهم الشخصية وتضحياتهم، فهل يحق لنا بعد ذلك أن نخجل من الرومانسية.. أو ننكرها؟

على أيـة حـال مبروك عليك عودة الرومانسية والسعادة والاستقرار إلى حياتك ودعـاء لك بأن يحفظ الله عليك كل أسباب سعادتك وأن يوسع من ساحة الرومانسية في حياة الجميع.. إذ ما أحوجنا إليها لتواجه طغيان المادية والبهيمية على تفكير وتصرفات أبناء عم أشجار الصنوبر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اللقـاء الصـامت

شجعتني على الكتابة إليك رسالة «التاريخ القديم» للسيدة التي رفضت في بداية حياتها الشاب المبتدئ الذي يحبها بصدق لأنها لم تكن تؤمن بالحب وتسخر من زميلاتها اللاتي يتحدثن عنه ثم تزوجت من العريس الميسور القادر على أن يحقق لها أحلامها في الحياة اللامعة فشقيت معه وطلقت منه بعد مشاكل مريرة وانتهت إلى الإيمان بما لم تكن تؤمن به وتحققت سعادتها الحقيقية مع فتاها القديم الذي رفضته في البداية. فمنذ 18 عامًا كنت طالبة أعيش في بلدة صغيرة يعرف معظم أهلها بعضهم البعض، من أسرة معروفة بها.. وعلى قدر لا بأس به من الجمال أذهب إلى مدرستي كل صباح وقلبي مفعم بالأمل في السعادة والحياة، ويجمع الطريق بيني وبين شاب يكبرني بعام أو عامين وتلتقي نظراتنا الصامتة معبرة عما تحمله القلوب الغضة من مشاعر بريئة واستمر هذا التفاهم الصامت بيننا عدة سنوات، ولم يزد ارتباطنا عن لقاء العيون اليومي، واختلاس الكلمات من حين لآخر وانتظار موعد اللقاء قبل الذهاب للمدرسة أو بعد العودة منها، واستمر الحال هكذا حتى بلغنا مرحلة الدراسة الجامعية، وكالعادة تقدم العريس الميسور الذي لا أعرفه وتحمس أهلي للضغط عليّ وإقناعي بقبوله لأن الرغبة في زواج الابنة الكبرى والفرح بها قوية. والحبيب الذي ارتبطت به نفسيا وعاطفيًا عدة سنوات مازال في منتصف الطريق وليس قادرًا على المنافسة أو إقناع الأهل بجدارته وانتظاره سنوات طويلة، وبعد محاولات يائسة من جانبه سلمنا معا بأننا الجانب الأضعف وأن قضيتنا خاسرة رغم ما يكنه كل منا للآخر من حب بريء وخطبت لمن تقدم لي فبدأت الخلافات بيني وبينه منذ اليوم الأول. ولم تسعفني خبرة سن العشرين في إدراك أن مؤشرات هذه الخلافات ليست مما يعد بحياة هادئة ومستقرة بعد الزواج. ولم تنصفني أيضًا خبرة الأهل فتدرك ما فات إدراكه عليّ وتحميني منه وإنما تجاهلوا هذه الخلافات الصريحة في فترة الخطبة الجميلة وأسموها بفترة الاختبار وبشروني بأنها كلها ستنتهي تمامًا حين يجمعنا بيت واحد. وجهزني أبي للزواج جهازًا مشرفًا يترجم أول فرحة للأسرة بإحدى بناتها ورفض كعادة الأسر الطيبة أن يطلب من زوجي قائمة بجهازي أو بأي شيء يخصني في بيت الزوجية، وقال لمن نبهه إلى ذلك: إنني أعطيه ابنتي وديعة عنده وائتمنه عليها فكيف لا أئتمنه على بعض المتاع والمصاغ؟. وتزوجت فإذا بالخلافات والمشاكل تبدأ أيضًا منذ أول يوم للزواج وبدأ تدخل الأهل والوسطاء بيننا لفض المشاكل وتصفية الخلافات، واستمر ذلك عامين طويلين ثم ظهرت في حياتي مشكلة أكبر هي مشكلة الإنجاب فبدأنا رحلة أخرى من العذاب النفسي والطواف على الأطباء ومعامل التحاليل، وهربت من مشكلتي الأولى في التعاسة الزوجية إلى المشكلة الثانية وهي الإنجاب على أمل أن يكون سببًا في إصلاح ما بيننا أو على الأقل في تكيفنا مع حياتنا ومع الأمر الواقع، وبعد رحلة عذاب طويلة اكتشفنا أو تأكدنا من عدم قدرتنا عليه، وفي هذه الفترة توفي أبي رحمه الله ومضت حياتنا معًا من خلافات إلى خلافات ومن ترك للبيت والعودة لأهلي إلى مفاوضات للصلح والعودة له بلا أي تغيير في حياتنا. وزوجي لا يساعدني على

تجنب الخلافات ولا طموح له في الحياة إلا المال والظهور بمظهر اجتماعي يليق به من زوجة من عائلة طيبة إلى بيت فخم ولا شيء يهم بعد ذلك ومضت سبع سنوات من حياتنا لم يكن الإنجاب خلالها هو مشكلتنا الأساسية وإنما كان الشماعة التي تعلق عليها خلافاتنا ومشاكلنا وضاعت أحلى سنوات عمري في الشقاق واجترار الأحزان.. والمشاكل.

ثم فجأة مللت كل شيء وظهرت عليّ أعراض الإرهاق النفسي والجسدي وكرهت البيت والحياة وكل ما أفعله حتى وظيفتي وأصبحت أكره موعد عودته للبيت، وأكره أيام الإجازات التي تجمعنا معا فيه، وأحس بالملل بمجرد عودتي من عملي أو من زيارة أهلي وفقدت الاهتمام بكل شيء في الحياة مهما كان ثمينا وزاد من مشاكلي أن زوجي ضعيف الشخصية ومنقاد لأهله إلى حد غريب فأصبحت أعيش معه في وضع من التحفز الدائم وعدم الأمان، فاليوم قد يكون زوجي معي.. وغدا سيكون ضدي وفقًا لما يتأثر به من فحيح الأهل. ثم حدثت بيننا مشكلة من مشاكلنا العادية فتركت على أثرها البيت وعدت إلى بيت أهلي ولم يكن ذلك أمرًا غير مألوف في حياتنا كما لم تكن تلك المشكلة أكبر مشاكلنا بل لعلها كانت أقلها حجًا.

لكن غير المألوف هو أنني وجدتني فجأة أرفض العودة إلى زوجي هذه المرة بإصرار غريب وأتمسك بذلك لكي أنقذ البقية الباقية من كرامتي وأعصابي وعمري. وبدأت الوساطات هذه المرة بيننا فتمسكت برفضي للعودة ولمس زوجي إصراري الشديد هذه المرة فراح يقدم الترضيات والتنازلات العديدة التي ربما لا يقدر عليها بشر لكي أعود إليه وأصررت على الرفض، فإذا به يتحول إلى شخص آخر تمامًا غير الشخص الذي كان يرجو ويتنازل ويقدم الترضيات العديدة، وأصر على أن يجردني من كل شيء لي عنده.. ومن كل حقوقي مقابل الطلاق ووافقت صاغرة على كل ما أراد فجردني بالفعل من مالي وأثاثي وذهبي وساومني في كل شيء وماطلني في كل شيء ولم أحصل منه سوى على ما خرجت به. وخرجت من تجربة زواج تعس لمدة 9 سنوات صفر اليدين إلا من وظيفتي ومن لقب المطلقة البغيض فكانت فترة من أقسى فترات حياتي، وبدأت أحاول استعادة نفسي من جديد والتكيف مع حياتي كمطلقة ذات تجربة مريرة.. ففوجئت بالحبيب القديم الذي كان ينتظرني على ناصية شارع المدرسة في أجمل سنوات العمر يظهر فجأة بعد اختفاء طويل وعرفت أنه عائد لمصر في أجازة من بعثة للدكتوراه في إحدى دول اوروبا وأنه قد عرف من الأقارب والجيران بما لقيته من سوء حظ في زواجي فجاء ليلتقي بي، وعرفت منه أنه بعد «هزيمته» في المعركة قرر أن يثبت لنفسه هو قبل كل شيء أنه كان جديرًا بي فقرر استكمال تعليمه بعد تخرجه وحصل على الماجستير من خلال قصة كفاح مجيدة ثم سافر لإعداد الدكتوراه منذ عامين وسوف يحصل عليها خلال عامين آخرين أو ثلاثة، وكان ظهوره مرة أخرى مفاجأة كاملة لي لأني لم أكن أعرف عنه شيء طوال سنوات زواجي، وبلغت المفاجأة قمتها حين طلب مني الزواج. وأجبته بأنه لم يعد لدي ما أستطيع أن أقدمه له لأن الحب قد مات في قلبي بعد عذاب السنين الماضية. لكنه لم يأبه لهذا الجواب وقال لي أنه قد انسحب من «الملعب»، في المرة الأولى لأنه لم يكن

قادرًا على المنافسة مع الغريم المنافس، أما الآن فهو قادر على اللعب ولن يتراجع مهما كانت الأسباب ووقف إلى جانبي إلى أن بدأت أسترد بعض الثقة في نفسي.. وحدثته عن مشواري الطويل مع محاولة الإنجاب فلم يهتم بما أقول وتعجلني لإتمام الزواج قبل موعد انتهاء أجازته لأننا كما قال نريد أن نتزوج لكي يرتبط كل منا بالآخر ثم فليفعل الله بنا ما يشاء بعد ذلك.. وتزوجته على بركة الله وسافرت معه إلى مقر دراسته لأبدأ حياتي معه من الصفر مرة أخرى بعد أن فقدت كل شيء في زواجي الأول، وأحسست معه منذ اللحظة الأولى التي احتوانا فيها بيت واحد بالأمان وبكل معاني الحب والاستقرار والرجولة التي لم أحس بها من قبل ومضى على زواجنا شهر واحد ففوجئت بأعراض الحمل تظهر عليّ وكذبت نفسي في البداية ورفضت أن أصدق أنني حامل حتى أكد الأطباء لي ذلك، وأنجبت طفلتي قبل أن يمر عام على زواجنا.. وأنهى زوجي رسالة الدكتوراه بتوفيق من الله وعمل عملاً مؤقتًا لمدة شهور بأحد مراكز الأبحاث ليستطيع تدبير تكاليف حياتنا وتحسنت أحوالنا المادية بعض الشيء ورزقنا بطفلة أخرى ملأت مع شقيقتها حياتنا صخبًا وضجيجًا، ونحن الآن نستعد للعودة لكي يعمل زوجي بإحدى الجامعات ونبدأ في بناء حياتنا بكفاحنا ومن عائد عملنا نحن الاثنين وأنا أعرف جيدًا أن رحلة الحياة لن تكون سهلة ميسورة لكني أعرف أيضًا أنني قد كسبت بزواجي من فتاي القديم أشياء لا تقدر بمال ولا يقاس بها كل ولا أضعاف ما خسرته من ماديات. ولقد كتبت لك قصتي لأني كنت أقرأ لك ما تكتبه عن «السعادة المؤجلة» التي قد يدخرها الله سبحانه وتعالى لبعض المهمومين والمكروبين في الدنيا بعد سنوات العناء.. وقد يدخرها لهم في الآخرة. وأدعو ربي أن يكون لي نصيب منها في الحياة قبل أن يضيع العمر.. فشملتني رحمة ربي حين بلغت قمة اليأس وفقدت أي أمل في بداية حياة جديدة ولاشك أن الآلاف يمرون بمثل ما مررت به من فترات يختفي فيها بريق الأمل في السعادة وأريد أن أقول لهم بقصتي أن رحمة الله واسعة، وأنه سبحانه لا يختار لنا أحيانًا ما فيه بعض الضرر والعناء لنا إلا وكانت له منفعة قد تخفى علينا أو كان سببًا مؤجلًا لسعادة آتية بإذن الله لمن يصبر كما أريد أن أنبه الأمهات إلى شيء هام للغاية هو عدم الاستهانة بالعريس المبتدئ الذي يتقدم لبناتهن حاملا أمله في إسعادهن وتحقيق آماله في الحياة معهن بعد سنوات من الكفاح، وأطالب الأمهات بعدم غلق الأبواب في وجهه من البداية فقد تكون سعادة بناتهن الحقيقية مع مثل هذا العريس المبتدئ الذي يحب بصدق.. ويقدر على الكفاح لتحقيق آماله، ذلك أن أهم شيء في الحياة الزوجية من واقع خبرتي بها هو الأمان النفسي مع من تحب الفتاة وليس الأمان المادي وحده والاستقرار المادي في النهاية يمكن أن يتحقق بعد سنوات قصيرة من الكفاح.. فلماذا يحكمن على بناتهن بالشقاء مع أزواج تنبئ كل المؤشرات على أنهم ليسوا الأشخاص المناسبين لهن وأن وظيفة الأمهات هي أن يساعدن بناتهن بما لهن من خبرة بالحياة على ألا يغتررن بالماديات وحدها فليس العريس الغني القادر هو وحده العريس المناسب، فهناك في الحياة أشياء لا تستطيع كنوز العالم شراءها أو تحقيقها لمن لا يجدن السعادة مع أزواجهن. وفي الختام أشكرك على ما بشرتني به وأنا في قمة معاناتي من سعادة مؤجلة.. كدت أيأس من

تحققها فتحققت والحمد الله.. الحمد لله على ذلك وأدعو الله أن يحققها برحمته وكرمه لكل قرائك وقارئاتك من المهمومين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **رسالتك تقول الكثير مما لا نتعلمه ولا نقتنع به غالبًا إلا بدروس الألم. فمنذ قديم الزمان وأهل الحكمة يقولون لنا أن السعادة لا تشتري بكنوز الدنيا بأسرها إن لم تتألف القلوب والأرواح أو على الأقل إذا لم تتنافر منذ البداية كما حدث لك منذ اليوم الأول، ومع ذلك فلسوف يطلع النهار كل يوم على بعض من يتوهمون أن الماديات وحدها قد تكفي لتحقيق السعادة وتعويض نقص الوفاق والائتلاف. ويقولون لنا أن الوفاق هو سياج الزواج الأول الذي يحميه من التصدع والانهيار وأن الخلافات المستمرة بين طرفي أي مشروع للزواج تنبئ بعدم توافق الميول وتنذر بتفاقم المشاكل واتساع الفجوة بين الطرفين بعد الزواج، ورغم ذلك فمازال هناك من يخدعون أنفسهم ويتعامون عن النار التي تسري تحت الرماد، ويمضون في المشروع المحكوم عليه بالفشل منذ البداية ولا يقتنعون بفشله إلا بعد أن يدفعوا ضريبة الشقاء وقد يدفعها معهم أطفال أبرياء لا ذنب لهم في سوء اختيار الأبوين لحياتها ولا في تجاهل الأهل لنذر الشقاء القادم والواضح لكل ذي بصيرة.**

ويقولون لنا أن الخطبة ليست سوى مشروع للارتباط يحتمل الفشل كما يحتمل النجاح وأنه من الأفضل إذا تيقنا من غلبة احتمالات الفشل فيه على احتمالات النجاح أن نبادر بالاعتذار عن عدم المضي فيه من باب الأمانة مع النفس ومع الآخرين وبلا لوم على أحد ولا عار لأحد ومع ذلك فإن كثيرين يمضون في مراسم مشروع محكوم عليه بالفشل كأنما يوقعون بذلك على وثيقة استسلام لعدو منتصر لا يملكون مقاومته أو الفكاك منه مع أنه من حقائق الحياة البديهية أن من لا يناسبنا قد يكون هو نفسه ضالة غيرنا الذي لن يسعد إلا معه، لأن النفوس تتنافر وتتآلف بلا قانون واضح وتنافر شخصين لا يعيب أحدهما ولا ينقص من قدره ولا من جدارته بالسعادة مع الرفيق الملائم له .

إن الاختلاف بين الشركاء من طبيعة البشر، وليست هناك علاقة قوية تجمع بين طرفين لا تعتريها بعض الاختلافات العابرة حول أمور قليلة المتشابكة وأفضل خلق الله أجمعين الذي قال «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» قد غاضب زوجاته وغاضبته زوجاته في بعض الأحيان، لأن الخلاف طبيعة بشرية ولو وجد على سطح الأرض شخصان تعاشرا وتشاركا في حياة طويلة متصلة ولم يختلفا مرة واحدة حول أمر هين ذات يوم لوجب عرضهما على الطبيب النفسي وربما طبيب الأمراض العقلية أيضًا، لأن البشر ليسوا متماثلين في كل شيء كقوالب الطوب، لكن الفارق بين الحياة السعيدة والحياة الشقية هو ألا يكون الخلاف هو الأصل وهو طابع الحياة الذي يغلب عليها ويكون الوفاق هو الاستثناء النادر. وحين تغلب الخلافات على الحياة فإن ذلك لابد أن ينبه المتغافلين إلى أنهم ليسوا الأشخاص الملائمين كل منهم للآخر ولابد أن يدفع ذلك كل منهم للبحث عمن

يلائمه إذا لم يكن في حياته من يدفعونه لتغليب سعادتهم على سعادته الشخصية وهم أبناؤه. فالأبناء هم المبرر الشريف الوحيد لاحتمال حياة لا تحقق للإنسان احتياجاته الإنسانية من السعادة والوفاق والإشباع النفسي والعاطفي، وهم أيضًا الحافز الوحيد المقبول لأن يجاهد كل طرف لإصلاح الطرف الآخر والتواؤم معه فإذا خلت الحياة الزوجية منهم يصبح تصحيح هذه العلاقة الخاطئة والعدول عنها أمرًا واجبًا لكلا الطرفين وإلا كان استمرارها لدوافع أخرى كالحاجة المادية.. أو كالخوف من مواجهة الواقع أو المجتمع أو كالرغبة بالاستئثار بمميزات يوفرها هذا الزواج الخاطئ وكلها كما ترين دوافع أنانية لاتضع في الاعتبار سعادة المرء ولا سعادة الطرف الآخر والأقدار الرحيمة قد ترفق بنا أحيانًا فتتولى عنا تصحيح ما أخطأنا نحن بسوء اختيارنا، وتجمعنا بمن فرقت بيننا وبينهم ظروف الحياة وقصر نظر بعض الأهل، وهذا ما صنعته معك حين لم يقدر الله لك الإنجاب من زوجك الأول.. وهذه ظاهرة أخرى كثيرة في قصص عديدة مشابهة لقصتك هي أن تحرم فتاة من الزواج بمن أحبت وتتزوج راغمة بمن لا تريده فتفشل في الإنجاب منه رغم كل المحاولات، ثم تجمعها الأقدار في ظروف غريبة بمن أحبت وتتزوجه فإذا بمسامها المغلقة تتفتح من جديد ويتحرك جنين الحب في أحشائها على غير انتظار.

على أية حال لقد أحسنت بنفسك حين أقدمت على تصحيح علاقة زواج خاطئة لم يكن لها ما يبرر استمرارها من أبناء، وضحيت في سبيل ذلك بما لا قيمة له عند العقلاء من ماديات هي رخيصة مهما غلا ثمنها إذا قورنت براحة المرء وسلامة النفس. فعسى أن تقرأ الأمهات والآباء رسالتك ويتفكروا في معانيها وعسى أن يحفظ الله عليك سعادتك ويحقق لك كل ما تأملين فيه لنفسك بكفاحك الشريف مع من سكن القلب إليه واستراح، وشكرًا لك على أمنياتك الطيبة لكل التعساء والمهمومين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السيف البتار !

أنا سيدة أرملة في الثانية والثلاثين من عمري، وأريد أن أعترف لك أنني قد قتلت زوجي!

نعم أريد أن أعترف لك لأستريح وليهدأ ضميري الذي يؤرقني الآن ليل نهار لقد قتلت زوجي فعلا، ولكني لم أقتله بساطور ولا بالبلطة، وإنما قتلته بغبائي وكبريائي وعنادي وتكبري واستعلائي عليه، وبكثرة طلباتي منه، فلقد تزوجته منذ ثماني سنوات وهو يعمل موظفًا وأنا موظفة بإحدى الهيئات الحكومية، ومنذ اليوم الأول لخطبتي له اشترطت عليه لقبوله ألا أعمل بعد الزواج وأن يهيئ لي مستوى الحياة الذي أعيش فيه في بيت أهلي، ونفس المستوى الذي تعيشه زوجات إخوتي، رغم الفارق الهائل بين دخولهم ودخله. وقبل ذلك راضيًا، وتزوجنا، وتركت العمل وقبعت في البيت أطالبه كل يوم بالوفاء بوعده، واستجاب والتحق بعمل إضافي مرهق لا علاقة له بطبيعة عمله الحكومي، فكان يخرج كل يوم في السابعة صباحًا ويعمل بوظيفته حتى الساعة الثانية بعد الظهر ثم يجري ليلحق بعمله الإضافي بلا غداء فيعمل به من الثالثة إلى الثانية عشرة مساء كل يوم.. واستمر على ذلك منذ الشهر الأول من زواجنا، وكلما أحس بالإرهاق وهمّ بأن يناقشني في مسألة العودة للعمل لأساعده، خاصة حين كان الرجوع عن الاستقالة ممكنا، ثرت عليه وعيرته بفقره وقلة إمكاناته وصحت فيه: لماذا تزوجتني وأنت غير قادر على نفقات حياتي.. ولعنت اليوم الأسود الذي تزوجته فيه، فيسكت صابرًا ويواصل العمل من الصباح حتى منتصف الليل، وليتني بعد ذلك قدرت له كفاحه من أجلي أو محاولاته لإرضائي وإسعادي، إذ لست أذكر - للأسف - أني قلت له مرة كلمة شكر أو كلمة حب تهون عليه شقاءه.. أو حتى كلمة تعاطف أو عطف وهو يعود منهكًا في آخر الليل.. أو حين يقدم لي شيئًا طلبته.. إذ كان أقصى ما أتكرم به عليه هو ألا ألومه أو ألا أنتقده أو ألا أبخس قيمة الأشياء التي جاءني بها، وفى مثل هذه الحالات النادرة كان يسعد كثيرًا، حتى كانت سعادته في بعض الأحيان تغيظني فأكاد أفسدها عليه بكلمة قارصة من الكلام الذي تعودت أن أوجهه له. ومضت 8 سنوات على زواجنا وزوجي يكرس حياته لإرضائي ولا يجرحني بكلمة، إلى أن صحوت ذات ليلة على صوته وهو يصرخ من شدة الألم.. وأسرعت بنقله للمستشفى وهناك ذهلت حين عرفت أنه مريضٍ بمرض خطير منذ فترة طويلة وأنه، كان يتحامل على نفسه ويهمل العلاج خوفًا من نفقاته الباهظة، وتعجبت من أنه لم يشر إلى مرضه معي من قبل، كأنه كان يشفق عليّ حتى من أن يشغلني بأمره.. وهو من لم يكن له شاغل سواي.

ولم يطل بقاؤه في المستشفى، فلقد تدهورت حالته سريعًا وفارق الحياة وهو يمسك بيدي ويشكرني على «السعادة» التي منحتها له خلال السنوات التي عاشها معي.. وبكيت بحرقة عليه وأنا أتساءل في مرارة وحسرة لا يعرف عمقها غيري.. وأين هي هذه السعادة التي منحتها له.. لقد قتلته بالإرهاق.. وبالتدريج.. وظل يموت قطعة قطعة طوال السنوات الأخيرة وأنا لا أحس به ولا أدري ولا أشفق

عليه ولا أرحمه ولا أرى إلا مطالبي وطلباتي ومقارناتي مع زوجات إخوتي، والآن أبكي عليه بالدمع السخين بالساعات كل يوم.. أبكي الرجل الذي أحبني بكل ذرة في كيانه فكرهته وعذبته وأنكرته ومات قبل أن يسمع مني كلمة حب واحدة.. إن الندم يقتلني الآن ولكن بماذا يفيد الندم يا سيدى، لقد قررت أن أكتب إليك لتعرف كل زوجة تفعل مثلما فعلت بزوجي الطيب.. أنها ستشرب من نفس الكأس التي أشرب منها الآن، وسينبذها الجميع بعد رحيل زوجها حين يتذكر لها الجميع ما صنعت وما فعلت، فلا أحد في البيت يتكلم معي حتى إخوتي الذين يتهربون الآن مني ويوصون زوجاتهم بعدم الاختلاط بي حتى لا تصيبهن «العدوى» مني.

وآه يا سيدي مما أحسه حين أتذكر صورته.. وابتسامته المحرجة حين كنت أقسو عليه.. وأحس أني سألحق به قريبًا.. لكن بأي وجه ألقاه بعد أن فعلت به ما فعلت.. وهل يغفر الله لي حقًا ذلك.. إننى أستغفره كثيرًا وأبكي ندما طويلًا.. فهل يغفر الله لي ما صنعت؟..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **لأحد الصالحين قول حكيم يقول فيه: «ليس البكاء بتعصير العيون، وإنها بأن تترك الأمر الذي تبكي عليه»! لهذا فإني أرجو أن يكون بكاؤك على زوجك ندما صادقًا على ما فعلت به، وبداية لتغيير نظرتك كلها إلى الحياة وإلى العلاقة الزوجية في مستقبل الأيام فلقد فاتك الكثير حقًا خلال رحلة حياتك الماضية مع زوجك الراحل، وآن لك أن تعرفي أنه من حسن الإيمان ألا يبخس المرء أقدار الآخرين، وألا يسفه جهودهم وكفاحهم الشريف من أجله، وألا يتعالى عليهم ويعيرهم بضعفهم وقلة حيلتهم وضيق أرزاقهم، وألا يكتم الشكر لهم حين يستحقون الشكر، والمديح حين ينبغي أن يمدحهم وألا ينكص عن تشجيعهم حين يلتمسون منه التشجيع والعطف.. فكتمان الشكر جحود، وإنكار الفضل إثم.. أما البخل بالعطف على من يحتاجون إليه فهو ليس قسوة غير إنسانية فقط وإنما أيضًا جهل بطبيعة الإنسان الذي يحتاج دائمًا إلى العطف النبيل. لقد قال عالم النفس الأمريكي آرثر جيتس: إن الجنس البشري كله يتلهف على عطف الآخرين منذ فجر التاريخ. والزوج الذي يشقى لإسعاد زوجته.. والزوجة التي تناضل لإسعاد زوجها وأسرتها من أحق الناس بعطف كل منهما على الآخر لكي يهون عليهما معا عناء الحياة.. فلماذا تقسو القلوب أحيانا على من لا يحملون لها إلا أصدق الحب؟**

ولماذا لانعرف لهم أقدارهم دائمًا ولا ندرك قيمة نبع الحب العميق الذي نهلنا منه بلا حساب إلا بعد أن يفارقونا. ونتلفت حولنا فلا نجد لأنفسنا أية قيمة إلا لدى من كانوا يتلهفون على كلمة حب أو عرفان واحدة منا فلا يسمعونها. إن زوجك الراحل لم يمت بسيف المرض والإرهاق وحدهما وإنما مات أيضًا بسيف النكد والنقد العقيم المستمر الذي لا يفيد ولا يغير من الأمر شيئًا، وسيف التكبر عليه وخنجر افتقاد التقدير ممن تفانى في حبها، وكلها أسلحة فاتكة تقصف العمر وتسرع بالهلاك، وما شكره لك عند الرحيل إلا استمرار لإنكار نفسه ورغبة منه

في أن يجنبك عذاب الضمير وقبول منه لأقل القليل والرضا به.. فأي حب عظيم كان يحمله لك وأي خسارة فادحة قد خسرتها بافتقاد هذا الحب الطاغي الفريد؟

لقد حذرنا الرسول الكريم من أن نحاسب البشر عما لا حيلة لهم فيه، وهو رزقهم فقال ما معناه أنه سوف يأتي على الدنيا زمان يكون فيه هلاك المرء على يد زوجته وولده، يعيرونه بالفقر ويطالبونه بما لا طاقة له به، فيدخل المداخل التي يفقد فيها دينه وخلقه فيهلك.. فاذكري ذلك جيدًا يا سيدتي واجعلي من ندمك على ما فعلت رجوعًا عن كل أفكارك الخاطئة وتطهرا من كل ما فعلت.. ولتكن رسالتك نوعا من الشفاعة لك عند ربك.. والله يغفر لمن يشاء ويقدر والسلام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب المغلق!

قرأت رسالة «السيف البتار» للسيدة التي تعترف لك بأنها قتلت زوجها بمطالبها المتواصلة لكي يوفر لها متطلبات الحياة التي تليق بها كأخواتها وزوجات إخوتها، وبالتعالي والتكبر عليه، حتى مات بالإرهاق والحسرة بغير أن يسمع منها كلمة طيبة واحدة رغم حبه الجارف لها.

وقد قررت أن أكتب لك قصتي لترى فيها هذه السيدة الجانب الآخر من الحياة.. فأنا سيدة عمري 30 سنة نشأت في أسرة متوسطة أو أقل من المتوسطة، وأبي موظف بالمعاش ويداوم على الصلاة، وأمي سيدة عظيمة ولم أرهما أنا وأخواتي يختلفان أو يتشاجران أمامنا أبدًا، وكنت الابنة الكبرى، وتوقفت عن التعليم عند الإعدادية رغم إلحاح أبي عليّ لإكمال تعليمي، واكتفيت بالالتحاق بمعهد لتعليم التفصيل.. لأني لم أتخيل نفسي إلا أن أكون زوجة وأمًا وربة بيت.. وفي السادسة عشرة من عمري تقدم لي موظف في الثلاثين من عمره وتزوجته بعد فترة خطبة قصيرة، وكان عش الزوجية الذي وفره لي هو غرفة واحدة وكان عليّ إذا أردت غسل الملابس بها بالغسالة أن أفك السرير وأكوم كل ما فيها من أثاث في جانب منها لأؤدي هذا العمل، أما المطبخ فلقد حل زوجي مشكلته بأن وضع لي البوتاجاز في شرفة الحجرة وقال لي هذا مطبخك! ناهيك عن الوقوف في طابور طويل أمام الحمام، ومع كل ذلك فلقد كنت على استعداد لأن أتحمل كل شيء حتى تتحسن الظروف، لو كان زوجي قد أحسن معاملتي لكنه للأسف لم يحسن عشرتي وبدأ يضربني بعنف بعد أيام من الزواج كلما نشب بيننا خلاف. وكسر لي إصبعي في إحدى المرات فخرجت من عيادة الطبيب وأنا أحس بأنه لم تعد لي حياة معه ورجعت لأبي وطلبت الطلاق وتنازلت عن كل حقوقي وانتهى هذا الزواج الفاشل. وبعد فترة قصيرة ظهر في حياتي شاب آخر تربطنا به صلة نسب ويعمل نجار مسلح، وكان قد سمع بقصتي ورآني زوجة مناسبة له، فكان كل المطلوب منه هو إحضار الشقة ليتم الزواج لأن أثاثي جاهز وأنا مطلقة حزينة وسأقنع بالقليل وتزوجته بعد انتهاء عدة الطلاق بشهر وانتقلت إلى «عشي» الجديد فكان بالمقارنة بالأول «قصرا فاخرًا»، فقد كان شقة مستقلة من غرفة وصالة وان كانت بلا نافذة ولا شرفة!

وقررت أن أبذل كل جهدي لكي ينجح زواجي وأتجنب الفشل للمرة الثانية.. فإذا بي أكتشف أن زوجي هارب من الخدمة العسكرية وأنه تزوجني ببطاقة شخصية مزورة، لأنه بلا أوراق ويخشى الاقتراب من أي قسم للشرطة ولا يستطيع حتى أن ينتقل من محافظة إلى محافظة لخوفه من القبض عليه، وازدادت مشاكلنا حين غسلت من باب الخطأ بطاقته المزورة في ملابسه فتلفت، ثم تعرف زوجي على بعض أصدقاء السوء وتغيرت معاملته لي، وبدأ هو الآخر يضربني بعنف كلما حدث بيننا شيء. ثم انتقلت أسرتي من مسكنها القريب إلى بيت بسيط بناه أبي بتحويشة العمر وخشيت أن ينفرد بي زوجي ويزداد في ضربي وإيذائي فطلبت من أبي أن يؤجر لنا شقة في بيته لأكون في حمايته وأعطاني أبي شقة من غرفتين

وصالة «وشرفة»، وانتقلنا إليها وقلت مرات الضرب والإهانة قليلا عن ذي قبل ثم فوجئنا بالشرطة ذات ليلة تدخل بيت أبي للبحث عن زوجي الذي لم يكن موجودًا وانزعجت أسرتي بشدة، وفي اليوم التالي بحثت عن زوجي حتى وجدته في بيت شقيقه الأصغر ولأول مرة منذ تزوجته ثرت في وجهه وخيرته بين أن يسلم نفسه للجيش ويتحمل مصيره ثم نعيش بعد ذلك في أمان، وبين أن يطلقني ويسرحني لأعيش حياتي بلا خوف. وفوجئت به يوافق على تسليم نفسه ويطلب مني أن أقف بجواره إلى أن تزول هذه المحنة ووعدته بإخلاص بأن أقف معه وألا أتخلى عنه وأن أتحمل كل شيء في سبيل تصحيح وضعه، وعاد معي لبيت أبي ليعتذر له عما سببه له من إزعاج وتركته على باب الشقة ودخلت لأبلغ أبي بأن زوجي على الباب ويريد أن يعتذر ويبدأ صفحة جديدة في حياته، فهاج أبي ورفض السماح له بدخول البيت، واتجه للباب ثائرًا وأغلق الباب بعنف في وجه زوجي الذي وقف محرجًا وفي غاية الألم. ولم أغضب من أبي وعذرته فيما فعل بسبب غضبه من دخول الشرطة بيته، لكني فكرت في وعدى لزوجي بأن أقف بجواره في محنته مهما حدث، وقررت أن أخرج إليه واستأذنت أبي في اللحاق بزوجي فغضب مني بشدة وطلب منى تركه لمصيره فاعتذرت وأصررت على ألا أترك زوجي في شدته وخرجت وأبي غاضب وناديت زوجي على السلم أن ينتظرني فوقف ينظر إليّ والدموع في عينيه وهو سعيد وأمضينا الليلة في بيت أحد أشقائه.

وفى اليوم التالي سلم نفسه إلى منطقة التجنيد وحوكم وحكم عليه بالسجن لمدة عامين وانتهى جهادي الأصغر في احتمال ضرب زوجي وخلافاته، وبدأ جهادي الأكبر في الوقوف إلى جانبه في هذه الشدة، وسألت نفسى كيف سأساعده وأنا لا مورد لي.. وقررت العمل، وعملت عاملة تغليف في مصنع للحلويات من 8 صباحًا إلى 6 مساء وتعلمت عملي وتقدمت فيه بسرعة غريبة حتى زاد إنتاجي من 30 كيلو جرامًا في الأيام الأولى إلى مائة كيلو جرام في اليوم، وبدأت أزور زوجي كل 15 يومًا وأحمل له الطعام والفواكه وألبي مطالبه من النقود التي يحتاج إليها لتدبير معيشته في السجن.. وواصلت العمل الشاق والصعود حين يتعطل المصعد من الدور الأرضي إلى الدور الخامس وأنا أحمل 50 كيلو جرامًا من الحلوى والعودة في المساء في ليالي الشتاء الباردة بلا كلل ولا شيء يشغلني إلا انتظار موعد الزيارة وإعداد طلبات زوجي وكلما احتاج زوجي إلى مبلغ إضافي ليسهل عليه حياته في السجن، فعلت المستحيل لكي أدبره له، وأخيرًا زف إليّ زوجي في إحدى الزيارات بشرى قرب الإفراج عنه قبل مضي المدة في ذكرى 6 أكتوبر، وكدت أطير من الفرح لهذا الخبر السعيد وبدأت أستعد لخروجه بشراء ملابس مدنية له، وفي زيارتي التالية له أبلغني محرجًا أنه يحتاج لخمسين جنيهًا حتى يتم إخلاء سبيله في نفس اليوم المحدد للإفراج ولا تتعطل الإجراءات بضعة أيام فوعدته بإحضار المبلغ له في الزيارة التالية، وأنا لا أعرف من أين أحصل عليه.. ومضت الأيام وأنا لا أجد مصدرًا للنقود ولا أستطيع مطالبة أبي بالمبلغ وهو الذي توقف عن تقاضي الإيجار منا منذ سجن زوجي، والمصنع لن يقرضني مبلغًا كهذا وأنا عاملة باليومية وعدت من عملي في اليوم السابق للزيارة وأنا أحس بالضيق

يكتم أنفاسي وأدعو ربي أن «يفك ضيقتي» ويسترني أمام زوجي الذي احتملت كل شيء من أجله.. وسبحانك تجيب دعوة الداعي إذا دعاك فلقد عدت للبيت فوجدت خطابًا لي من عمى الذي يعمل بالخارج فوجدت فيه كارتًا موسيقيًا بمناسبة عيد ميلادي وفي داخل الكارت 320دولارًا هدية عيد الميلاد لي ولم أحتمل المفاجأة، فصرخت وبكيت وصليت ركعتين وشكرت ربى كثيرًا ودفعت له المبلغ المطلوب في آخر زيارة ثم تركت العمل بالمصنع لأستعد لخروج زوجي وأجهز بيتي لاستقباله كأنني عروس جديدة ووصل زوجي إلى بيته وامتلأ البيت بالأهل والأصدقاء.. وكنت قد أعددت طعامًا طيبًا وملأت ثلاجتي بحيث لا يحتاج زوجي لشيء خلال فترة الراحة.. فعشنا معا أسبوعين من أجمل أيام العمر، ثم خرج ليعد لنفسه أوراقًا سليمة ويعيش في «النور» لأول مرة منذ عشر سنوات.. وبدأ يعمل من جديد واستخرج لنفسه جواز سفر وجاءته بعد شهرين فرصة للعمل في الخارج وبعد سفره بدأت أنظر لنفسي بعد 8 سنوات من الزواج وأهتم بموضوع الإنجاب الذي أهملته خلال السنوات الماضية وبدأت علاجًا منتظمًا لأول مرة وأبلغني الطبيب بحاجتي لعمل منظار فأبلغت زوجي فانزعج لذلك كثيرًا وجاء في أجازة ليطمئن عليّ ويقف بجواري خلاله، وأمضى معي شهرًا سعيدًا وعاد لعمله، ثم جاء ظرف حرب الخليج وانكمشت أعمال شركته فعاد لمصر واهتم بعلاجي وأنفق مبلغًا كبيرًا عليه، ثم جاءته فرصة جديدة في دولة أخرى فسافر وسمع هناك عن مستشفى خاص لعلاج العقم فأرسل يستدعيني وسافرت إليه وفي اليوم التالي لوصولي اصطحبني للمستشفى وخضعت للعلاج وأجريت جراحة تكلفت الكثير وللأسف نزل الجنين بعد شهر ونصف ولم يكتمل الحمل، وأشفقت على زوجي من النفقات التي تكبدها من أجلي ورأيت أحواله في العمل قد اضطربت لأنه أمضى معي في المستشفى 4 أيام وتغيب عن العمل بضعة أيام أخرى من أجلي لكيلا يتركني وحدي حتى كاد يفصل من عمله. فقررت العودة لمصر.

ورفض في البداية قائلًا: كفانا فراقًا لكني أصررت حتى اضطر للموافقة بعد فترة ورجع معي في أجازة لمدة 45 يومًا مرت سريعة كالأحلام ورجع لعمله وهو يعدني بأن يصطحبني في المرة القادمة لمركز لأطفال الأنابيب بشرط أن تكون هذه هي آخر محاولة وبعدها ننسى معًا هذا الموضوع نهائيًا ونرضى بما كتبه الله لنا ويكفينا أن كلا منا قد وجد الآخر ووجد عنده كل ما يريده من حب وإخلاص وتضحية، وكنت قد سمعت أن زوجي قد ثار ثورة عارمة على بعض من نصحوه بأن يتزوج مرة أخرى لينجب، وأنه قال لهم.. إن زوجتي قد اشترتني وتحملتني ووقفت إلى جانبي في فقرى ومحنتي حين تخلى عني الآخرون.. ولن أفرط فيها أو أؤذي مشاعرها إلى نهاية العمر، فبكيت فرحًا وشكرت الله تعالى وعرفت أن ربي قد هداني لأن أصبر على زوجي وأحتمل ما عانيته منه في البداية لتكون «جائزتي» التي تتحدث عنها في ردودك هي الراحة بعد التعب، والحمد لله الذي هدانا لذلك، فزوجي طيب وأصيل وشهم ولم يكن ينقصه فقط إلا أن يرشده أحد إلى الطريق الصحيح بدليل أنه حين هرب من الخدمة العسكرية لم يبصره أحد بعواقب ذلك وخطورته ولم يرغمه أحد على العودة وتصحيح وضعه. إلى أن هيأني الله له،

وهيأه لي. والحمد الله على ما أعطى ومنح ولقد كتبت هذه الرسالة لأقول للزوجة التي قتلت زوجها «بالمعايرة بالفقر» والتكبر والتعالي عليه أن الزوج المحب الطيب الذي يخلص لزوجته ويعمل على إسعادها هو «نعمة» كبيرة من عند الله يؤتيها من يشاء وأن التنكر له والتكبر عليه ومعايرته بالفقر.. تبطر على هذه النعمة يعاقبنا الله عليها بزوالها وأرجو أن تتعلم هذا الدرس وتستفيد به في حياتها كما تعلمت واستفدت.. وأخيرًا فقد كتبت هذه الرسالة أيضًا لأقول لك أنني بعد زواج 13 عامًا مازلت أطمع في أن يرزقني الله بطفل، لأنه لا توجد امرأة على وجه الأرض لا تتمنى شرف الأمومة، لهذا فإني أحملك «أمانة» هي أن تدعو لي الله أنت وقراؤك بأن يرزقني بالخلف الصالح ليكون هدية السماء لي بعد صبري وشكرًا لك ولهم والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: قد يعاشر المرء الآخرين سنوات طويلة بغير أن «يكتشفهم»، ويعرف حقيقة جوهرهم إلى أن يواجه محنة عاصرة فتكون كوهج النار الذي يذيب الصدأ عن معادن البشر فتظهر له على حقيقتها إما نفيسة وإما رخيصة وفي هذا المعنى قال الشاعر العربي:

جزى الله الشدائد كل خير

عرفت بها عدوي من صديقي

وأنت يا سيدتي قد «اكتشفك»، زوجك لأول مرة بعد سنوات من الزواج واضطراب العشرة في اللحظة التي فتحت فيها الباب المغلق في وجهه حين جاء لأبيك معتذرًا، وخرجت إليه لتؤدي واجب الزوجة المخلصة في مساندة زوجها وإعانته على ما يواجهه من محن، بعد أن ادت قبلها أحسن الأداء واجبها تجاهه حين أخلصت له النصح بأن يسلم نفسه ويتحمل عواقب خطئه ليبدأ بعد ذلك حياة آمنة سليمة.

ولم تكن نصيحتك هذه له مجرد نصيحة زوجة رشيدة، وإنما كنت تمارسين بها «واجبًا دينيا» يبدو أن كثيرين قد نسوه في زحام الحياة وفي غمار انكفاء كل إنسان على نفسه ـ هو واجب النصيحة للمنحرف بالعودة للطريق القويم «فالدين النصيحة»، وأنصح الناس لك كما قال أحد العارفين هو من خاف الله فيك.. أي لم ينصحك إلا بما فيه خيرك وصلاح أمرك في الدنيا والآخرة. وأنت قد أديت هذين الواجبين فاكتشفك زوجك واكتشفته أنت أيضًا حين أنضجته نار التجربة وليس كالمحن نار تنضج الإنسان وترده إلى نفسه وتعينه على فهم حقائق الحياة التي كانت غائبة عنه. لهذا عرفت في زواجك بعد المحنة شخصا آخر غير الذي عاشرته سنوات طوالا قبلها، وهذه هي أهمية ألا يغلق الإنسان باب الأمل في إمكان إصلاح من يهمه أمرهم وأهمية ألا يسرع بالتسليم باليأس منهم قبل أن يجاهد معهم جهاد الأبطال ويستنفد معهم كل الوسائل لتغييرهم للأفضل فالإنسان وفقا لقانون التغير الذي يقول إن كل شيء في الحياة يتغير إلا قانون التغير لا

يثبت على أفكاره وسلوكه أبدًا من الميلاد حتى الممات، وإنما يتغير بتغير مراحل العمر وتغير الظروف والأشخاص من حوله.. والعقبى دائما للصابرين فلماذا نسارع دائما ومن أول جولة برفع الراية البيضاء يائسين من تغيير من لو بذلنا بعض الجهد معهم لأمكن إلى حد كبير إصلاح بعض أمرهم؟

إنك لو كنت قد سلمت بهذا المنطق العاجز من البداية.. لما صبرت على زوجك في سنوات طيشه، ولما حاولت تغييره، ولما عرفت هذا الإنسان الجديد، الذي تتمتعين الآن بحبه وإخلاصه وشهامته وشريك الحياة المحب المخلص رجلًا كان أو امرأة ثروة لا تقدر بمال، ويستحق أن نكافح لاستعادته إلى الطريق القويم إذا شرد عنه، بل ويستحق أيضًا أن نقول له مع «بوذا»: «ليت لي أربع عيون لكي أعطيك اثنتين منها»، والتبطر على شريك الحياة المخلص إثم يسرع بزواله عن صاحبه كما تزول النعم عمن لا يحفظونها بالشكر عليها ولاشك أن الجائزة عادلة تمامًا لكل منكما. فكلاكما يستحق صاحبه وينبغي أن يحرص عليه إلى النهاية.. والدعاء لك بلا حدود بأن يحقق الله لك أمانيك الطيبة.. لكن النصيحة الأخيرة هي أن تعملي بما أشار عليك به زوجك إذا ما ثبت لكما في النهاية وبالدليل القاطع أن الله قد اختار لكل منكما ألا يشاركه في الآخر وليد، وأن تقبلا هذا الاختيار وترضيا به عن اقتناع وصبر.. فبالرضا أيضًا تدوم النعم وبغيره تتعلق النفس الراغبة أبدأ في المزيد «بالمفقود»، وتنسى الموجود.. ويتعكر صفو الحياة عسى الله أن يحقق لك كل آمالك، ويهيئ لك من أمرك رشدًا وشكرًا لك على رسالتك المفيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عبيـر الأحـلام!

هذه رسالتي الثانية إليك وكلي أمل أن تلقى منك اهتماما أكثر من رسالتي الأولى فمنذ عام تقريبا كتبت إليك ورددت عليّ في باب الردود الخاصة برد موجز، قمت من جانبي بالعمل بما جاء فيه من نصيحة وإن كنت لم أستطع تطبيقها كاملة لظروف واعتبارات خاصة، ومع ذلك فلقد رضخت لرأيك ونفذت منه ما استطعت بقدر الإمكان.

إلى أن قرأت في بابك الحبيب منذ فترة قصيرة رسالة «اللقاء الصامت» عن المحبين اللذين فرقت بينها الأيام في بداية الشباب، ثم جمعت بينهما الحياة بعد الشقاء والمرارة فأهاجت خواطري ودفعتني للكتابة لك من جديد، لقد رويت لك من قبل أنني كنت وفتاتي نعيش في مدينة صغيرة بالأقاليم يملأ الحب قلوبنا ونتنفس معا عبير الأحلام الوردية والآمال العريضة في غد جميل يجمع بيننا في بيت سعيد صغير، وكنا بالمرحلة الثانوية وأكبرها بعامين وتعاهدنا على الوفاء والانتظار وكانت فتاتي جميلة وهدفا لخطاب كثيرين، فكانت كلما تقدم لأهلها خاطب ووافقوا عليه انتهزت أول فرصة للانفراد به وصارحته بقصتنا وبارتباطها عاطفيا بي بل وأخبرته باسمي وعنواني ليتأكد من صدقها، فكان أول بي خطابها كريما ونبيلا فانسحب على الفور وجاءني مهنئا ومشجعا ومتمنيا لي حياة سعيدة معها، وجاءني الثاني مساوما ومستغلا فقري وضعف موقفي كطالب لا يملك شيئا فلم يلبث أن انصرف عنها وعني يائسا حين لم يجد أدنى استجابة له، وبعد الخاطب الثاني أحسست بالخطر فتقدمت لأهلها مضطرا لأن ظروفي كطالب على أبواب المرحلة الجامعية ليست مناسبة فضلا عن ظروف الاجتماعية غير المشجعة، وقابلت شقيقها الأكبر رحمه الله وسامحه فيما فعل إذ لم أنس حتى الآن رغم مرور السنين ما دار بيني وبينه فقد تقمص دور الواعظ ونصحني بالالتفات لمستقبلي لأن المشوار طويل أمامي ولست أملك شيئا يعينني على الزواج، ورجوته أن نقرأ معا الفاتحة فقط وتوسلت إليه أن يكون هناك أي نوع من الارتباط ولو بكلمة أو وعد إلى أن أشق طريقي وخاصة أن فتاتي صغيرة السن ولن يضيرها انتظاري عدة سنوات وسوف أتخرج من الجامعة وأعمل و فقاطعني بأنني حتى لو حصلت على أعلى الشهادات فلن يغير ذلك من الواقع المادي لي شيئا وبالتالي فلا أمل في هذا الزواج وغادرت بيتهم وقد استوعبت الدرس الذي ألقاه عليّ وعرفت عدوي الحقيقي وهو الفقر فأقدمت على خطوة جريئة وهجرت الدراسة الجامعية قبل أن تبدأ بأيام وسافرت إلى بلد عربي مجاور لأعمل وأكسب مالاً يساعدني على تحقيق حلمي وودعتني فتاتي وهي تقسم لي بدموعها أنها سوف تنتظرني إلى نهاية العمر. وبدأت في الغربة معركتي لتغيير الواقع المادي الذي فرض عليّ يلهبني خيال فتاتي وصوت شقيقها سامحه الله وهو يقول لي أعلى الشهادات لن تغير من حالي شيئا، وتحملت الكثير في بداية غربتي وهمت جائعا في فترات كثيرة، وقبلت أعمالا حقيرة في فترات أخرى وأحسست بفقدان آدميتي في بعض الأحيان، وبكيت في وحدتي مرارا إحساسا بهواني على الدنيا

وعلى الناس، وبعد سفري تقدم لفتاتي الخاطب الثالث وكان أغربهم شأنا، فقد صارحته في أول لقاء بقصتها معي وحبها لي كما فعلت مع السابقين فتجاهل الموضوع برمته وقال لها في هدوء إن كل فتاة قبل الزواج لها نفس الحكاية ونفس الوهم وأن الأمر كله لا يعنيه في شيء ومضى في إتمام خطوات الزواج مع أهلها بكل هدوء معتمدا على مركزه المرموق ويسار حاله، وقاومت فتاتي ورفضت طويلا فكان نصيبها الزجر والضرب، ثم هادنها أهلها ودفعوا نساء الأسرة لإقناعها بقبول الخطبة فقط إلى أن تهدأ الأمور عسى أن تغير رأيها بعد حين فإن لم تتغير أمكن فسخها في أي وقت، وقبلت هي ذلك على مضض تخلصا من ضغط الأهل وإهانتهم. وفي يوم الخطبة كانت في حجرتها بين صديقاتها.. وهم في غرفة أخرى يعقدون قرانها بغير رأيها أو موافقتها. ورغم أن الزواج لا يجوز شرعا بغير رضا الابنة فقد مضت خطواته إلى نهايتها وبدأت فتاتي حياتها معه راغمة، وكنت خلال ذلك في غربتي أخوض معركتي ضد الفقر فعلمت بما جرى. وتصورت أنها قد خانت العهود وضعفت أمام ضغط الأهل أو الاغراء إلى أن عرفت بالمصادفة ومن أقرب الناس لها أنها قد تزوجت بالحيلة والغدر وليس بالقبول والإيجاب وظلت عاما كاملا بعد الزواج ترفض الاعتراف به إلى أن استسلمت للأمر الواقع في النهاية. فأحسست بنصل السكين يشق كبدي وكرهت الفقر الذي يحطم آمال المحبين من أعماقي وواصلت كفاحي في الغربة بلا سعادة ولا ابتهاج بأي شيء، وحين وضعت أقدامي على الطريق وحققت نجاحي وأصبح لي رصيد كبير في البنك، لم أسعد به لحظة وإنما سألت نفسي في مرارة وما قيمة النقود حين تأتي بعد أن تنتفي الحاجة الملحة إليها ويضيع الحلم الذي تمنيتها لتحقيقه، ثم استسلمت أنا أيضا للأمر الواقع بعد سنوات وتزوجت وأنجبت فكان من قدري أن تزوجت من سيدة سليطة اللسان نكدية دائمة الشجار والعبوس، ناقمة دائما ومتمردة على كل شيء وتوزع كلماتها البذيئة على أولادي كل يوم ولا هم لها إلا رصيدنا في البنك وأن تكون كل الممتلكات باسمها لأن الرجال ليس لهم أمان كما تقول دائما ويتمزق كبدي مرارا عندما أرى أولادي يتكومون في ركن من الغرفة خائفين حين تنجح زوجتي في استفزازي فأثور ردا على سبابها البذيء ويتعالى صياحنا أمامهم، وإني لأقسم لك غير حانث أني لم أكن يوما البادئ بالشجار ولا مثيرا للمشاكل فأنا باعتراف أهلها وزميلاتها زوج مثالي، ليس لي أصدقاء يشغلونني عن بيتي ووقتي كله بعد العمل لبيتي وأولادي والضحكة لا تفارقني رغم تعاستي وقد كتبت كل ما امتلكته من شقاء الغربة من أرض وعقار باسمها، كما أني مستقيم في حياتي الخاصة ولا أترك فرصة أو إجازة لإسعاد أسرتي برحلة أو استجمام إلا وانتهزتها، لكن معظم أو كل مشاكلنا تبدأ بصياحها وألفاظها البذيئة فأرجوها أن تخفض من صوتها حتى لا يسمع الأطفال نقاشنا وأن تهذب من ألفاظها حرصا على حيائهم وأكظم غيظي ما استطعت ملبيا لها مطالبها إذا كان سبب الشجار مطلبا لها، أو معتذرا لها عن خطأ لم أرتكبه إذا كان سبب الشجار اتهاما ظالما لي، وكان هذا فيما يبدو هو سبب تماديها في المكابرة وسلاطة اللسان لأنها ترى خوفي وحرصي على أولادي فتحولت التضحية من أجلهم إلى نوع من الابتزاز المستمر من جانبها، أما حبي

القديم فلقد انقطعت الأسباب نهائيا بيني وبينه فلم أعد أسمع عنها ولم تعد تسمع عني ومضت 14 عاما طويلة على هذا الحال. ثم قررت أنا وزوجتي أن نتخذ لنا سكنا في القاهرة نعود إليه في الإجازات ونستقر فيه بعد العودة النهائية، واختارت زوجتي المسكن الجديد في أحد أحياء القاهرة الراقية وعدنا للإقامة فيه في أول أجازة، فإذا بي أراها أمامي وجها لوجه! نعم هي نفسها فتاتي القديمة التي حال الفقر والضعف بيني وبينها وقد أصبحت الآن زوجة وأما يقف أكبر أبنائها على مشارف الدراسة الجامعية، وتقيم للمصادفة العجيبة في نفس الحي بل وعلى بعد أمتار من المسكن الذي اختارته زوجتي لنا بعد بحث عميق في طول القاهرة وعرضها! والتقينا في مصادفة كمصادفات الأفلام وتحدثنا طويلا وروت لي عن حياتها ورويت لها عن حياتي وسلمنا بلا مقاومة ومن اللحظة الأولى بأنه لا مهرب لكل منا من الآخر وأن الحب الكامن في الصدور قد انتفض من غفوته عملاقا كما كان في سن الصبا والأحلام. ولم يمض يوم خلال تلك الأجازة لم ألتق بها فيه أو لم نتحادث معا بشكل أو بآخر، وعدت إلى مقر عملي وتواصلت الرسائل والاتصالات التليفونية بيننا وبدأ أولادي بعد سبعة عشر عاما من الغربة يتمردون على الحياة بعيدا عن مصر ويضيقون بالحياة في وسط غريب عنهم بلا عم ولا خال ويضغطون عليّ للعودة النهائية والاستقرار في مصر بعد طول اغتراب وبلغت معاناتي قمتها في العام الماضي فكتبت إليك أستشيرك في ذلك بناء على طلب فتاتي القديمة وأقول لك إنني أخاف العودة لأني إن عدت واستقررت في مصر فلن أستطيع أن أمنع نفسي من لقاء فتاة أحلامي القديمة ما يترتب على ذلك من إحساس بالإثم وتأنيب الضمير وعصيان لما أمرنا به الله بالرغم من طهارة لقاءاتنا. كما أنني لن أستطيع أن أقاوم طويلا رغبتي ورغبتها في تحقيق حلمنا القديم في الزواج مهما كانت العقبات، فطلبت مني في ردك أن أؤجل عودتي لمصر لأطول فترة ممكنة وحذرتني من هدم المعبد فوق رؤوس أولادي وأولادها، وقد عملت بشطر نصيحتك الأول وهو تأجيل العودة فأجلتها عاما واستسلمت أنا وهي لرأيك لكننا بقينا على اتصال هاتفي شبه يومي ورسائل أسبوعية نتشاكي فيها همومنا وأنصحها بالتماسك وتنصحني بالصبر، ونتساءل ما ذنبنا في هذا الشقاء الذي فرض علينا وماذا يجبرنا على قبول «الظلم»، الذي تعرضنا له في البداية حين كنا ضعافا فدفعنا الثمن فادحا من شبابنا وسعادتنا؟

لقد جمعت الأقدار بيننا بغير أي سعي من جانبنا إلى اللقاء فتفتحت عيوننا من جديد على سعادة ومشاعر جميلة كنا نظن أنها لم يعد لها وجود في الحياة، وإني لأكتب لك الآن لأسألك سؤالا محددا هو: هل الإنسان السوي هو فقط من يضحي بنفسه وسعادته من أجل أولاده؟ أو ليس من الممكن أن يوفق الإنسان بين سعادته الشخصية ومصلحته وبين سعادة أولاده ومصلحتهم؟

ثم إنني أرى أن أي تضحية يقدمها الإنسان هي نوع من أنواع البطولة فهل كل إنسان مطالب دائما بأن يكون بطلا.. وهل يملك كل إنسان مؤهلات البطولة؟

إننى أعلم من متابعتي لردودك مدى حرصك على الحفاظ على كيان الأسرة ولو تطلب ذلك تضحية الأبوين باعتبارات السعادة الشخصية في بعض الأحيان طلبا

لسعادة الأبناء وحرصا عليهم، لكني أتساءل إذا كان استمرار الحياة في أسرة لا وجود لأي نوع من التفاهم أو التآلف بين الأب والأم فيها، نوعا من الانتحار البطيء فهل توافق على الانتحار حرصا على سعادة أولادي؟

وإذا افترضنا أنني أملك مقومات البطولة التي تسمح لي بالتضحية أليس من المفترض أن يكون لهذه التضحية عائد على أولادي في سعادتهم واستقرارهم.. وماذا يكون الحال إذا لم يكونوا سعداء ولا مستقرين في ظل أبوين لا تفاهم بينهما؟

إنني لا أطلب منك فتوى بتحليل حرام أو تحريم حلال لكني أريد أن تنصفني فقط ولو على الورق وتجيبني بحكمتك وعدلك أليس من حقي ومن الصالح العام أن أنهي هذا الوضع الخاطيء خاصة إذا كان في مقدوري ألا أقصر في حق أولادي وألا أجور على أمهم، وماذا يمنع من أن أعيش الحياة التي تمنيتها وقد عشت أربعين عاما حياة مفروضة عليّ فرضا لا أحبها ولا أريدها ابتداء من محنة الفقر في البداية إلى محنة الغربة إلى محنة الحرمان من الحب إلى الزواج التعيس إلى هذه المحنة الجديدة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **لست أفرض رأيي على أحد ولا ألزم أحدا بتضحية، لأن التضحية عمل اختياري لابد أن ينبع من أعماق الإنسان ولا يجوز لأحد أن يفرضها عليه، غير أني أومن بأن الحياة رسالة ينبغي أن نؤديها بأمانة وإن شقينا أحيانًا فيها وواجب إنساني عام يتسع لأهداف أخرى جليلة إلى جانب سعي الإنسان إلى سعادته الشخصية، ومن أهم هذه الأهداف بل ومن أنبلها إسعاد من جئنا بهم إلى الحياة بغير أن نستشيرهم في إنجابهم أو نستشيرهم في اختيارنا لمن شاركناهم الحياة، والسعادة الحقيقية يا صديقي هي السعادة التي لا يعقبها ألم للنفس أو الضمير أو للغير، وهذا هو جوهر الفلسفة الأخلاقية أما تقييم الأمور بمعيار واحد هو ما تحققه لنا نحن وحدنا من لذة ومتعة بغض النظر عما يترتب عليها من إيلام للآخرين أو إجحاف بحقوقهم فليس مما تستقيم به الحياة أو تترقى والأبناء هدف سام من أهداف الحياة يستحق أن نتحمل من أجله العناء والشقاء إلى أن يشتد عودهم وتتحدد شخصياتهم وتزداد مناعتهم ضد آثار انفصال الأبوين وتمزقهم بينهم في الصغر، فإذا لما بلغوا ذلك ربما كان من حق الإنسان إذا لم يشأ أن يتلطف بأبنائه أن يتخلص من عشرة «من لا يوافقه ولا يفارقه»، وأن يطلب سعادته مع من يحب ويرغب، أما قبل ذلك فإن كان سعي الأب للزواج ممن يحب مما لا يحرمه الله فهو أيضا مما لا يمنح عنه الجوائز. ذلك أن الأوسمة دائما للمضحين بأنفسهم من أجل أبنائهم ومن أجل أهداف الحياة الشريفة الأخرى.**

ورغم ذلك فلا أحد ينكر الضعف البشري أو يرفض الاعتراف به فالقلوب في النهاية بيد خالقها لكننا فقط نطالب من يتعرض له أن يغالب نفسه طويلا وطويلا وبإرادة من حديد، وأن يتذكر في ذلك قول الرسول الكريم: «أن المهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد هواه».

وأن يتجنب التصرفات والمداخل التي تساعد ضعفه على أن يتمكن منه ويزداد لهيبه وأن يلتصق بأبنائه بل وبزوجته ولو كره منها الكثير محتميا بهم من هوى نفسه ونزعاتها فإن عجز بعد كل هذا وفقد قدرته على المقاومة كان مما يرد عنه الاتهام بالأنانية أنه قد جاهد نفسه طويلا فلم ينتصر عليها وإنما انتصرت هي عليه وهزمته.

أما المسارعة برفع الراية البيضاء من أول جولة دون تقدير للعواقب ولا مراعاة حقوق الآخرين أو اعتبار لما سينالهم من شقاء وتعاسة فليس سوى استسلام خائر لأهواء النفس لتتلاعب به كما تتلاعب الأمواج بسفينة بلا شراع.

والنفس بالغة في شر صاحبها ما ليس تبلغه بيض ولا سمر.

لهذا فقد نصحتك حين كتبت إليّ منذ عام بأن تؤجل عودتك لمصر ما استطعت وأن تتوقف عن كل اتصال بها وتقاوم حتى النهاية حتى لا يدفع أبناؤها وأبناؤك ثمن أخطاء أهلهما.. وتصاريف الأيام، وها أنت تعود إلى بعد عام لتقول لي أنك مصر على ما تريد وتطرح عليّ أسئلة تثير التأمل عن حق الإنسان في السعادة وقدرته على التضحية.. وقدرته على الموازنة بين سعادته وسعادة أبنائه. ولست أستطيع أن أشير عليك أن تطلقها من زوجها وتتزوجها، لأن هذا فوق طاقتي على تقدير الضعف البشري والاعتراف به، إذ لو كانت مطلقة فعلا قبل أن تلتقي بها أو أرملة لما ترددت في أن أنصحك رغم معارضة ذلك لمبادئي بأن تتزوجها على الفور مع الاحتفاظ بزوجتك وبيتك لأني قد لمست فعلا عمق معاناتك وصدق العاطفة التي تجمع بينكما لكن ماذا نفعل ورسولنا الكريم يقول لنا ما معناه: ليس منا من خبب أي «أفسد»، امرأة على زوجها، وما ذنب أبنائها في سوء تصرف أسرتها معها ومجافاتهم لروح الشريعة وروح العدل وفى سوء ظروفك أنت في بداية الشباب، إن أقصى ما أستطيع أن أقوله لك هو أن أمامك خيارين لا ثالث لهما: الأول هو أن تتوقف تماما عن كل اتصال بها وفي أسرع وقت وتختار طريق التضحية من أجل أبنائك والصبر على تعاستك، والثاني هو أن تصحح هذا الوضع الخاطئ وتعفي نفسك وتعفيها معك من إثمه وليرع الله أبناءها وأبناءك وبشرط ألا تهدم بيتك في سبيل ذلك أو تطلق زوجتك إذ يكفي أن ينهدم بيت واحد قربانا لتحقيق هذا الحلم القديم.

فاختر لنفسك ما تشاء.. فإن أردت وسام المتعففين المضحين من أجل أبنائهم.. فرشح نفسك له.. وإن أردت سعادة المحبين على حساب تعاسة الأقربين فالله رب قلوب في النهاية ولا حرمة في حلال ولو دفع الأبرياء ثمنا غاليا له شيء واحد فقط أنصحك به بلا تردد هو أن تحزم أمرك على الفور لتنهي هذا الوضع الآثم.. إن تعففا.. وإن استسلاما لما أرادته القلوب والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

السـر الخطـير!

قرأت في ردك على رسالة «الباب المغلق»، التي نشرت منذ أسابيع، بضعة سطور كانت هي التي دفعتني لأن أكتب لك رسالتي هذه، أما السطور فقد كانت تقول أنه ينبغي ألا يغلق الإنسان باب الأمل في إمكان إصلاح من يهمه أمرهم وألا يسرع بالتسليم باليأس منهم قبل أن يجاهد معهم جهاد الأبطال ويستنفد معهم كل الوسائل لتغييرهم للأفضل.. وأما قصتي فهي أني طبيب متزوج منذ ثلاث سنوات، وعندي من فضل الله عليّ طفل وطفلة، وأخرج من البيت في الثامنة صباحا وأظل أتنقل من عمل إلى عمل حتى منتصف الليل أو ما بعده، جريا وراء لقمة العيش الحلال. وأنا ناجح في عملي ومحبوب بين زملائي واجتماعي، لكني أعود إلى بيتي مجهدا لأستريح وأسكن إلى زوجتي التي تشاركني حياتي، فلا أجد منها سوى التكشيرة الأزلية بلا سبب واضح، أقول لها السلام عليكم فلا ترد التحية، وأكررها ولا تجيب، وأسألها عن سبب التكشيرة الكبيرة فلا تجيبني ويستمر حالنا هكذا خمسة أيام أو أكثر ثم تتنازل وتتكلم معي وتبوح لي بالسر الخطير وراء تكشيرتها لمدة 5 أيام كاملة.. فإذا به أشياء تافهة لا يتوقف عندها أحد سواها كالعادة.

لقد تزوجتها بدون اقتناع ومنذ الأيام الأولى بدأت بيننا المشاجرات وشكوت لأهلها وإخوتها وعقدنا جلسات عديدة للصلح، ونتصالح فلا تمر أيام حتى يعود النكد من جديد، وكل ما أطلبه تخالفه ولا تستجيب له في كل شيء وفي كل مجال. طلبت منها ألا تخرج من البيت بغير إذني، لكنها تخرج ولا تبالي باستئذاني فتحدث المشاجرات وتقسو عليّ بالكلام الجارح حتى جاء يوم تهورت فيه عليّ وصفعتني على وجهي، ولم أتخذ موقفا أملًا في الإصلاح، فتمردت وتمادت في الاستهزاء بي، والنتيجة هي أني دائما غير مستريح في حياتي ورأسي يدور باستمرار، وقد توسلت إليها أن تعفي نفسها وتعفيني من هذا النكد المستمر، دون جدوى وقلت لها إنني أفحص المرضى وأريد شيئا من راحة البال حتى لا أخطئ في عملي، بلا فائدة، ومنذ أيام وجدت زوجتي لا تكلمني فجأة بلا سبب، ودخلت إلى البيت وحييتها فلم ترد التحية كالمعتاد، وفى اليوم التالي خرجت إلى عملي وعدت في المساء فلم أجدها في البيت، أجد الطفلين، وعرفت أنها ذهبت إلى بيت والدتها غاضبة كالعادة، ونمت مكتئبا وفي الصباح اتصلت بها وعاتبتها لذهابها إلى بيت أسرتها دون أن تبلغني بنيتها للهجر والخصام، حتى ولو تليفونيا، فأجابتني بأن «مزاجها كده».. فطلبت منها ألا تصعد الموقف بيننا فأجابتني أنها تتمنى تصعيده، فتحدثت مع والدتها، وأثناء حديثي معها وجدت زوجتي تطلب منها إغلاق الساعة وانتهت المكالمة.

والآن أجلس إلى نفسي وحيدا في بيتي الخالي من زوجتي وطفلي، فأجدني أمام زوجة لا تريد أن تعيش ولا تحترمني أمام أي إنسان، وتهزأ بي باستمرار وتعايرني بأني غير قادر على توفير المزيد لها من الماديات، مع أن دخلي من اللهث دائما من مكان إلى مكان، حوالي خمسمائة جنيه، ولا تشكر ربها على

نعمته علينا بطفلينا والحياة المعقولة، ولا تشكرني على جهادي من أجلها ومن أجل طفلينا، وكلما جاهدت معها لكي نلتقي في منتصف الطريق أجدها تبيعني باستمرار. لقد تهالكت صحتي من الجري من مكان إلى مكان، وابيض شعري ومنذ أيام اكتشفت إصابتي بالسكر وضغط الدم من الإجهاد والنكد المستمر والحياة في عناء دائم. لقد قررت ألا أطالبها بالعودة وألا أذهب لإعادتها كما حدث قبل ذلك، وأن أتركها في بيت أسرتها شهرا أو شهرين لأنها هي التي هجرت بيتها واصطحبت معها طفلينا، ولن أجرى وراءها كما جريت من قبل، فما رأيك في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **رأيي يا صديقي أنه كان ينبغي عليك أن تتخذ موقفا، حاسما حين تطاولت عليك زوجتك وصفعتك، لأن التخاذل في مثل هذه الأمور لا يندرج تحت مفهوم التمسك بالأمل في إصلاح من يهمنا أمرهم، وإنما يندرج تحت مفهوم التفريط فيما ينبغي أن يكون للزوج والأب من كرامة وولاية على أسرته. وأيا كان الخلاف بين الزوجين فإنه ينبغي أن يجرى دائما في إطار الاحترام للكرامة الإنسانية لكلا الطرفين، وبما لا يترك جروحا غائرة في النفوس قد لا يضمدها الاعتذار ولا تشفيها العشرة. ولقد مضى ما مضى ودفعت أنت الثمن من صحتك وراحة بالك، ومغالاة زوجتك في الاستهتار بك وعدم حرصها عليك. لهذا فإني أوافقك في أنك لست مطالبا بالمسارعة إليها واسترضائها، بل إني لا أنصحك بذلك لأن من لا تحرص على الحياة لا ينبغي أن توهب لها الحياة، ولأن المحافظة على الحياة الزوجية مسؤولية مشتركة للزوجين وليست مسؤولية طرف واحد على حساب كرامته وحقوقه.. فدعها لنفسها هذه المرة بعض الوقت.. وضعها أمام مسؤوليتها عن سعادة هذين الطفلين اللذين تقامر هي بسعادتهما ومصلحتهما لأسباب مزاجية غير مفهومة، ولا تظهر أي لهفة على استعادتها لبيتك لأن البعض منا يتمادى في التبطر كلما توهم أنه لا غنى عنه للطرف الآخر، وهذا هو سر ما تقوله من أنها تبيعك دائما في نفس الوقت الذي تحاول أنت فيه إرضاءها. وتحمل ظروفك برجولة.. وأداء واجبك تجاه طفليك من الناحية المادية والنفسية، واطلب أن تراهما من حين إلى آخر أو زرهما بغير أن تفاتح زوجتك في العودة أو الصلح. فإذا تدخل الأهل لإعادة المياه إلى مجاريها بينكما، ضع أنت شروطك للعودة وأولها أن تحترمك زوجتك ليس فقط أمام أي إنسان بل وأمام نفسك أنت قبل كل البشر.. وألا تخرج من بيتها بغير إذنك ولو كان هذا الآن ضمنيا.. وأن تتقبل حياتها.. وترضى بما هو متاح لها فيها.. وأن تشجعك على كفاحك لإسعادها وتقدره لك، وألا تهجر بيتها لأي سبب من الأسباب.. وأن تخاصمك إذا كان لابد من الخصام في بعض الأحيان في بيتك وليس بهجره، وأن تغير من نفسها ومن مزاجها الامتعاضي المتسخط الذي يكسو وجهها بالعبوس معظم أيام السنة، كأنما ترى نفسها «ملكة» وضعت خطأ في غير مكانها الصحيح، وهذا للأسف حال بعض الزوجات وبعض الأزواج أيضا الذين يظلون غارقين في هذا الوهم إلى أن تهوي على رؤوسهم مطارق الحياة وتذكرهم بأنهم**

بشر عاديون لا يميزهم عن غيرهم شيء إن لم يقلوا عنهم، وبأن الحياة قد سخت عليهم بما لم تمنحه لبعض من هم أفضل منهم ويتلهفون على بعض ما ناله المتسخطون.

فافعل ذلك يا صديقي فإن لم تقبل زوجتك فلا بأس بأن تجرب هي لفترة من العمر مرارة الحياة كمطلقة ذات طفلين، لتعرف بالتجربة أن أسوأ ما كانت تتسخط عليه أفضل كثيرا من أكبر مميزات حياتها الجديدة، كحال البعض منا الذين لا يقتنعون أبدا بخطر الشرارة التي تقترب منهم إلا بعد أن تحرق جلدهم.. فيتنبهون إلى ضرورة الابتعاد عن طريقها أو إطفائها، وهذه هي بلادة الحس وسوء التقدير وقمة الغباء البشري.

لقد كان الجنيد إمام الصوفية الكبير يقول إن الزوجة «قوت وسبب لطهارة القلب». لكنه إذا كف شريك الحياة عن أن يكون سببا لطهارة القلب وتحول إلى «أسباب» للشقاء والأمراض والانكسار النفسي، فإن من واجب الإنسان أن يسعى لإصلاحه قدر الجهد، وألا ييأس من ذلك.. فإذا تيقن من عدم جدوى المحاولة بعد طول جهاد.. فليدع للأيام أن تتم ما بدأه وتلقن دروسها القاسية للغافلين، وهذا ما أنصحك به إذا فشلت في النهاية كل محاولاتك للإصلاح.. وإذا لم تكن فترة الهجر هذه كافية لمراجعة النفس ولبدء صفحة جديدة في حياتكما مع نصيحتي الأخيرة لك بأن تتجنب أنت بقدر الإمكان أسباب الشقاق وبألا يكون لزواجك منها «عن غير اقتناع»، كما تقول في رسالتك أثر في تعقيد العلاقة بينكما وشكرا..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفنـدق!

أرجو ألا تتهمني أنت أيضًا بالجنون أو تتفق مع رأي أمي في وهو أني كما تقول باحثة عن النكد والشقاء ولا ينفعني إلا أكل الحصرم! والقصة من البداية هي أني سيدة عمري 37 سنة أعمل بالتعليم ومتزوجة منذ 15 سنة من رجل فاضل، كان حين تقدم لخطبتي معيدًا بنفس الكلية التي أدرس فيها وتزوجنا بعد تخرجي مباشرة وكان كما عرفته خلال الخطبة رجلا رائعا وحنونا وكريما ومهذبا وميسورا من الناحية المادية، وفى صبيحة اليوم التالي لزفافي فتحت عيني وأنا مازلت في الفراش فرأيت مشهدا من مشاهد الأفلام الغرامية التي طالما حلمت بها في صباي فلقد رأيته واقفا أمامي في بيجامته الحريرية حليق الذقن تفوح منه رائحة الكولونيا باسم الثغر.. ويحمل في يده صينية الافطار فضحكت في سعادة ووضع الصينية على الفراش بيننا وجلسنا نتناول الافطار في بهجة.. ثم نهض قبل أن أتحرك فحمل الصينية وذهب إلى المطبخ وأفرغ بواقي الأطباق وغسلها وغسل البراد والأكواب والشوك والسكاكين ووضعها بنظام في أدراج المطبخ فازدادت سعادتي بهذا الزوج الرائع، وفرحت لأننا سوف نتعاون معا في كل شيء من أعمال المطبخ والبيت إلى كل شئون الحياة، وبعد قليل استقبلنا المهنئين ففوجئت به يسرع أيضا إلى المطبخ ويعد أكواب الشربات والشاي وفناجين القهوة ويقدمها للضيوف بسعادة فازددت به اختيالا.. وبعد انصرافهم جمع كل الأواني في المطبخ وقام بغسلها رافضا أي مساعدة مني في ذلك ومؤكدا لي أنه لا يريد أن يتعبني في أي شيء وتكرر ذلك في المساء أيضا، ومضت الأيام الأولى من شهر العسل وأنا لا أفعل شيئا من شئون البيت.. ولا أستطيع أن أفعل إذا أردت فهو يطهو الطعام بيديه ويقوم بكل عمليات الطهي من غسل الخضر إلى إعداد اللحم وطهي الأرز إلى وضع الطعام على المائدة.. إلى رفع الأطباق وغسلها وغسل الحلل وتجفيفها ورصها بعناية في موضعها كما يغسل الملابس وينشرها.. وينظف الشقة ويلمع قطع الأثاث ويسوي الفراش بعد النهوض من النوم. وقد سعدت بذلك كثيرا.. وأدركت منه مدى محبته لي وحرصه على ألا أفعل شيئا طوال شهر العسل لأتفرغ للعناية بنفسي وزينتي.. ومباهج الحياة الجديدة. لكن شهر العسل انقضى ولم يتغير شيء من سلوكه في البيت بل ومضت الشهور والسنوات وأنجبنا أطفالا والحال على ما هو عليه، فلقد تولى أيضا من اللحظة الأولى كل شئون الأطفال من إعداد الرضعات إلى نظافتهم وغسل ملابسهم.. الخ.

وأصبح المعيد الشاب مدرسا مساعدا بكليته ثم مدرسا ثم أستاذا مساعدا وعالما له أبحاثه ومؤلفاته ولم يتغير شيء في نظام حياتنا فهو مازال يطهو الطعام ولا يسمح لي بمد يدي إليه.. وإذا تجرأت ودخلت المطبخ ولو لعمل كوب من الشاي ثار وغضب وأفرغ الشاي في الحوض ليصنعه هو بدلا مني، ومازال زوجي حتى الآن وهو الأستاذ الجامعي والباحث يصر على ألا يغسل أحد الملابس سواه وعلى ألا يكويها غيره.. ولا يخجل من وقوفه في الشرفة أمام الجيران وبجواره آنية الغسيل البلاستيك يلتقط منها الملابس المغسولة وينشرها بعناية و «يحبك»

المشابك عليها وهو في قمة الابتهاج والاهتمام، أما قبل الأعياد فهو يحصل على أجازة يومين من عمله لأن «عنده» تنظيف الشقة و «التنفيض» بالمنفضة المصنوعة من جريد البامبو، وفي شهر رمضان يصنع المربى والبسكويت والحلويات، وقد جاءني منذ يومين والفرحة تملأ وجهه ليخبرني سعيدا بأنه قرر أن يصنع كعك العيد هذا العام في البيت لأنه أرخص من شرائه من المحلات فكدت «أرقع» بالصوت من غيظي ونكدي! يا سيدي إنني لا أنكر أنه زوج مثالي تحسدني عليه كثيرات ولا أنه أب رائع لأولاده ومهذب ولم تصدر عنه كلمة واحدة تغضبني منه منذ زواجنا حتى الآن، لكني لا أشعر معه بأني ربة بيتي منذ تزوجنا وإنما نزيلة فندق صغير تستمتع فيه بالخدمة الكاملة من جانب العاملين به، ولست أكره أن يساعدني في أعمال البيت ورعاية الأطفال فهذا أمل كل زوجة في العالم، لكني أكره أن يقوم هو وحده بكل ذلك دوني وكلما اشتكيت من ذلك قال لي باسما إنه يريد راحتي، حتى أصبحت أكره ابتسامته هذه وأكره وقوفه في الشرفة وهو ينشر الغسيل، وكلما شكوت لأمي اتهمتني بأني «فقرية» وغاوية نكد وتعب وقالت لي أن زوجي هذا تحسدني عليه أخواتي، لكني لا أريد هذه الراحة وأكاد أن أطق من الغيظ فماذا أفعل مع هذا الزوج المثالي الذي سوف ينقطني، بمثاليته.. هل أتركه بضعة أيام حتى تستريح أعصابي في بيت أمي خاصة أنه يقوم لنفسه بكل شيء.. أم ماذا أفعل لكي يكف عن اعتباري «ضيفة» عليه في البيت الذي يديره ويقوم فيه بكل شئونه على حساب الوقت الذي كان ينبغي أن يخصصه لأبحاثه ودراسته؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **للشاعر الهولندي المعروف باسم الأب كاتس (1577 - 1660) عبارة جميلة تقول: ينقلب البيت رأسا على عقب حين يسكت الديك.. وتصيح الدجاجة!**

والمقصود بالعبارة هو أن الحياة الزوجية تختل بالفعل حين لا يقوم كل طرف من أطرافها بالدور الذي تؤهله طبيعته لأدائه أو حين يحاول القيام بدور مخالف تماما لهذه الطبيعة. ولا شك أن التعاون بين الزوجين في كل شئون الحياة بما فيها الأعمال المنزلية بدافع من التراحم واستشعار المسؤولية الجماعية عن الأسرة، مما يوثق الروابط بينها ويجدل خيوطها بحيث تتشابك وتتدعم ويصعب فصمها لكن هناك فارقا كبيرا بين التعاون والتطوع بالمساعدة، وبين تبادل الأدوار.. أو إلغاء دور أحد الطرفين إلغاء تاما وتحويله إلى نزيل في «فندق» يعني بخدمته بنظام خدمة الغرف في فنادق الدرجة الأولى.. إلى مالا نهاية وبلا داع من مرض عابر مثلا.. فهذا شيء آخر مخالف للطبيعة.. وخارق لكل مألوف. وإذا سعدت به المرأة بعض الوقت في البداية ايثارا للدعة أو استمتاعا بالراحة، فإن الزوجة الطبيعية تفضل في النهاية أن تكون ربة بيتها وسيدة مملكتها الصغيرة، ولا تسعد بها يغير من هذا الوضع حتى ولو غبطتها عليه الأخريات ممن يتحملن عناء كل شيء في حياتهن بلا أدنى مساعدة أو تقدير من شريك الحياة.. فلا هذا وضع

طبيعي.. ولا ذاك وضع عادل ومنصف ولقد كان الرسول الكريم وهو من هو لا يترفع عن أن يساعد زوجاته فيما يشق عليهن من أعمال البيت، وقالت عنه السيدة عائشة حين سئلت عن صنعه في بيته:

كصنع أحدكم يشيل هذا ويحط هذا ويخدم في مهنة أهله ويقطع لهن اللحم ويقم البيت «أي يكنسه»، ويعين الخادم في خدمته. صلى الله عليه وسلم.

لكنه من ناحية أخرى وهو يفعل هذا حبا وكرامة قد حكم بين ابنته فاطمة وزوجها الإمام علي بن أبي طالب حين شكت إليه من ثقل أعمال البيت وهي وحيدة بلا معين، فحكم على فاطمة بخدمة البيت وحكم على علي بكسب النفقة وإعالة الأسرة. وهذا هو الوضع الطبيعي. وهو لا يمنع من تعاون الزوجين فيما يخفف عنهما من عناء الحياة كأن تعين الزوجة زوجها على أعباء الحياة المادية إذا شقت عليه وأن يعين الزوج زوجته على أعباء البيت حين تحتاج لمعونته وفي إطار ما أهلت الطبيعة كلا منهما له، أما المغالاة فإنها تخرج بالإنسان عن جادة الاتزان وتثير المشاكل بدلا من أن تسهم في حلها.. والغلو أي الشطط وتجاوز القصد مرفوض ومذموم في كل شيء حتى في الدين، فكيف بأعمال البيت؟

أما الاعتدال فهو مطلوب دائما في كل أدوار الحياة حتى في «مثالية» الأزواج من نوع زوجك لأن الطبيعة كما يقول الشاعر الهندي طاغور قد «خلقت خليجا فاصلا بين الجنسين لكي تضمن استمرار التجاذب المتبادل بينهما»، فإذا اختفى هذا الخليج الفاصل بين طبيعة الجنسين ضعف التجاذب.. وحل الفتور ولا شك أن زوجك رجل مثقف ويعرف أن ما يفعله ربما يكون بلغة علم النفس - ناتجا عن «اضطراب التحكم في نزعة ما غير مصنفة في الاضطرابات النفسية المعروفة» لكنها نزعة غلابة تدفعه لأداء دور ليس مطلوبا منه أداؤه بل ويغضب من يحاول إرضاءهم به! كما لابد أنه يعرف أيضا أنه من المحتمل أن يكون لوسواس النظافة القهري دخل أيضا في إصراره على أن يفعل كل شيء بيديه.. اعتقادا منه أنه لن يحس بالأمان إلا إذا صنعه بيديه بدليل حكاية إفراغ الشاي في الحوض لأنه لم يصنعه بيديه! وسواء نجح في مقاومة هذه النزعة الغلابة وهذا الوسواس بالاستعانة بالمشورة النفسية المتخصصة أو لم ينجح فلا شك أنه شديد الحب لك والحرص عليك. فحاولي أن تتوصلي معه إلى حل وسط بالتفاهم أو بإقناعه بطلب النصيحة النفسية المتخصصة على الأقل لكي يتفرغ لما هو أهم من نشر الغسيل وحبك المشابك عليه فإن لم يستجب لكل ذلك فلا مفر من التعايش مع هذه المشكلة، التي قد تتمنى ألوف الزوجات أن يبادلنك عنها بمشاكلهن مع أزواجهن فأمسكي الخشب رغم كل شيء.. وترفقي بزوجك إلى أن ينجح في التخلص من وسواسه ونزعته واستمتعي «بخدمة الغرف»، هذه إلى أن تتغير الأحوال تدريجيا وأرجو مخلصا ألا «تندمي» ذات يوم على تخلصه من تلك النزعة وهذا الوسواس!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

المحجر!

أكتب هذه الرسالة وأنا أغلي بالغيظ بعد قراءة رسالة «الفندق» التي تشكو، فيها كاتبتها من أن زوجها يقوم عنها بكل أعمال البيت من المطبخ إلى الغسيل إلى نشر الملابس المغسولة إلى تنظيف البيت.. إلى عمل الكعك بيديه ولا يسمح لها بأن تدخل المطبخ لتصنع كوبا من الشاي حتى أنها تشعر بأنها ليست ربة بيت وإنما نزيلة في فندق، فما أن انتهيت من قراءة هذه الرسالة حتى كدت ألطم.. وأصرخ قائلة لها: حرام عليك أن تقتليني غيظا وكمدا بمثل هذا الكلام، وقررت أن أقدم لها صورة مختصرة جدًا لحياتي وبعدها سوف أسألها سؤالا واحدًا. فأنا زوجة عمري 35 عاما مثلها ومتزوجة منذ 15 عاما، وعندي ولدان، ونظام حياتي كل يوم كالتالي: أصحو من نومي مبكرة فأؤدي واجبات طفليّ وأعد لهما الإفطار وأشرف على نظافتهما وملابسهما إلى أن يخرجا للمدرسة.. وبعدها مباشرة أبدأ بالغسيل فأضع الملابس في الغسالتين وأديرهما.. وأتركها جريا إلى المطبخ لأغسل أواني المساء ثم أطوف بغرف البيت واحدة واحدة أنفض هذه.. وأمسح تلك.. وأخرج مفروشات ثالثة، وأنظف كل غرف البيت ما عدا غرفة واحدة هي حجرة البيه الملك، التي لا أستطيع أن أقترب منها قبل أن يصحو من نوم العافية بكل أمان واطمئنان الساعة 2 أو 3 بعد الظهر وذلك في غير أيام شهر رمضان! وقبل أن يصحو أظل أجري بين الحمام والمطبخ ونشر الغسيل وغرف الشقة وأختطف ساعة من الزمن أنزل خلالها جريا لأشتري طلبات البيت لكي يكون اللبن جاهزا وساخنا قبل أن يصحو زوجي وحين يصحو يبدأ البرنامج الثاني من يومي فعندما يفتح عينيه يجلس في الفراش ثم يصفق بيديه كأنه في مقهى فأهرول إليه بكوب اللبن الساخن فيشربه في مكانه.. ثم أهرول لأخلي الحمام من أدوات الغسيل وأسخن الماء وأعود إليه بالشبشب وأضعه جانب السرير.. فيقوم إلى الحمام في جلال وأدخل وراءه لأساعده في خلع ملابسه.. وأضع له الملابس النظيفة.. وأساعده في ارتدائها، وينتهي الحمام بالسلامة فيعود إلى غرفة النوم ويجلس على السرير مرة أخرى لكي يشعر ببعض الدفء وخلال لحظات أكون قد عدت إليه بصينية الطعام فيأكل بالهناء والشفاء وهو جالس أيضًا بجوار السرير.. وثواني أخرى وأتي بالشاي.. ثم وأقسم بعزة الله آتيه بعد ذلك بالحذاء والجورب وأنحني لأضع له الجورب في قدميه حتى لا يكلف نفسه مؤنة أن ينحني لارتدائه. وكذلك الحذاء.. ثم يجلس على طرف الكنبة لأسرح له شعره وليتني أفعل ذلك بنفس راضية أو ليته يشكرني على ذلك أو يتقبله مني بعطف وإنما أفعله مرغمة وأنا أبكي بغير دموع ويتقبله هو مني بكل عجرفة كأنني جارية.. ولا يناديني سوى بيا: إنت هاتي الماء.. والكوب إلى جواره وأسرع من المطبخ لأقدمه له، وأخيرا ينتهي من غدائه وملابسه فينزل إلى عمله.. وهو لسوء حظي محل تجاري في نفس البيت الذي نسكن فيه.. ومنذ نزوله لا تتوقف طلباته وكل عدة دقائق يرن الجرس: اعملي شاي.. أرسلي صينية طعام عندي ضيف، فإذا كان صبي المحل في مشوار خارج المحل أنزل بالطلبات ثلاثة أدوار لأقدمها له وقد أنزل وأصعد السلالم بالطلبات 8 أو 9 مرات في اليوم الواحد وكل ذلك ولم أحدثك بعد عن خدمة

الولدين وطلباتهما وهما للمصيبة صورة مصغرة من أبيها.. هاتي.. اعملي خدي طوال النهار فإذا نهرت واحدا منهما وأمرته أن يصنع لنفسه ما يريد وسمعني زوجي كانت ليلتي سوداء فيشخط فيّ أمامهما ويسألني وما فائدتك إذن؟ وهكذا أظل طوال يومي واقفة أتحرك من مكان لمكان أو أؤدي عملا لزوجي أو للبيت أو للأولاد، ثم ينتهي أخيرا يوم الشقاء ويعود زوجي ومن أول لحظة بعد دخوله من الباب لا أسمع منه إلا الأوامر الجافة خذي - هاتي - روحي - تعالي، ويدخل غرفة النوم ليخلع ملابسه فأقف معه لأساعده في خلعها وأنحني لأخلع له الحذاء والجورب.. وأنحني مرة أخرى لأساعده في ارتداء بنطلون البيجامة وليتني أسمع خلال ذلك كلمة طيبة. بل الشخط والنظر والعجرفة وإذا استدعيت ابنة أختي الصغيرة لتساعدني في يوم عمل زائد يغضب ويثور ويأمرني بألا أكرر ذلك مرة أخرى وهكذا يفعل مع كل إنسانة يمكن أن تساعدني وبعد كل ذلك فإذا عاد ذات مرة في الليل فوجدني نائمة غلبني النوم والإجهاد على غير إرادتي فإنه وعزة جلال الله لا يوقظني إلا رفسا بقدمه وهو يسبني لكى أقدم له العشاء والشاي وأقف بين يديه وفي خدمته وتحت أمره حتى الفجر إلى أن ينام نوم العافية لما بعد ظهر اليوم التالي وأصحو أنا بعد 3 أو 4 ساعات لأعد ولديّ للخروج للمدرسة وأكرر برنامج الشقاء من جديد وإذا اعترضت أو طالبته بالرحمة كان نصيبي منه الضرب والإهانة والتهديد بالطرد وتسألني: ولماذا أتحمل كل هذه الهوان؟ فأجيبك بأنه أولا من أجل الولدين اللذين يبلغ أكبرهما عشر سنوات أما ثانيا فهو إلى أين أذهب إذا خرجت من بيته.. وأنا لا أحمل أي شهادات ولا أعرف سوى القراءة والكتابة بهذا الخط الرديء وأهلي فقراء في غاية الفقر.. ولا ملجأ لي ولا مورد؟

وبعد كل ذلك تأتي هذه السيدة كاتبة الرسالة لتفقع مرارتي وتشكو من أن زوجها يقدم لها الإفطار في الفراش.. ويغضب إذا صنعت كوبا من الشاي ويفرغه في الحوض لكي يصنع هو بدلا منه.. ولماذا؟ علشان مش عايزك تتعبي في أي حاجة يا حبيبتي! وسؤالي لها هو: هل تحب أن أدعو، لها بأن يتغير زوجها ليصبح مثل زوجي وتتمتع هي بإحساس ربة البيت؟!

يا سيدي قل لها أن تشكر ربها على ما هي فيه من نعيم وبغددة.. وقل لزوجي أيضا كلمتين من كلامك الجميل لعله يتقى الله فيّ ويعاملني كزوجة وأم وإنسانة وليس كحيوانة، وأرجو أن تعيد عليه ما قلته في ردك عن معاملة الرسول الكريم لزوجاته ورحمته بهن.. فلقد اثارت كلماتك عن مساعدته لهن حتى في بعض أعمال البيت مواجعي.. كما اثارت رسالة تلك السيدة غيظي.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **إذا كنت قد اخترت لرسالة السيدة فلقد التي يحرم عليها زوجها ممارسة الأعمال المنزلية ليقوم هو بها منفردا عنوان «الفندق»، فلا شك أن أفضل عنوان لقصتك هو «المحجر»، ليس لأنك تقومين بكل الواجبات المنزلية تجاه بيتك وزوجك وطفليك وتزيدين على ذلك خدمة زوجك في فراشه وحمامه وبيته وعمله خدمة متصلة ومرهقة منذ لحظة استيقاظه حتى**

لحظة نومه السعيد قرب الفجر. وإنما لأنك تؤدين كل ذلك وأنت خائفة وكارهة لما تفعلين وبدموع مكتومة لا تفرج عن نفسها إلا في غياب زوجك، وهذا هو العناء الحقيقي الذي يجعل مما تقومين به أعمالا شاقة كقطع الأحجار، ثم لأنك أيضا تؤدينه مع افتقاد التقدير والاعتبار.. ومع الإحساس المؤلم بأنه لا مفر لك من الاستمرار فيها تفعلين حتى ولو كرهته لأنه لا بديل آخر لاستمرار هذه الحياة ولا سند ولا نصير. إن العبد «الرقيق»، هو الإنسان الوحيد الذي يجيد أداء العمل الذي لا يحبه لأنه مضطر إليه ومجبر عليه، وأسوأ ما يصنعه إنسان بنفسه هو أن يجعل من شريك حياته - زوجة أو زوجا - عبدا كسيرا يظهر الطاعة الذليلة ويبطن المرارة والإحساس بالقهر ويتطلع إلى اليوم الذي يتم فيه عتقه. ومثل هذه الحياة الزوجية لا مبرر لاستمرارها سوى الاضطرار وانعدام القدرة على الرفض والتغيير. وهذا النوع من العلاقات الزوجية القائمة على القهر والاضطرار هو الذي يصدمنا فيه أن نفاجأ بعد حين بانقلاب الأوضاع فنرى الزوج الكاسر في شيخوخته أو مرضه وقد تحول إلى طرف ضعيف.. وتوحشت الزوجة الكسيرة وأصبحت الطرف الأقوى.. ولم تكرم شيخوخة زوجها ولم ترفق به في ضعفه. فإذا رحل الزوج عن الحياة لاحظنا أن الزوجة لم تبد أي حزن حقيقي عليه.. وأنه لولا الحياء لأعلنت ارتياحها، ثم لم تمض أيام حتى تحسنت صحتها وارتفعت معنوياتها.. ولا عجب في ذلك لأنه صمت المقهور وليس رضا ولا سعادة ولأنه هاهنا تدفع الفواتير.. وتؤدي الديون.. ونستطيع أن نفرق بسهولة بين من كانت شركة حياتهما شركة حب واختيار ومن كانت شركتهما شركة قهر واضطرار ثم سعد الطرف المقهور فيها بفضها أو بتغيير الأوضاع فيها لأسباب صحية أو قدرية.. وهذا ما أريد أن ألفت نظر زوجك إليه وقبل أن يتمادى في عجرفته وجحوده لفضلك وخدمتك إلى النهاية وهو أن يملك قلب زوجته ومشاعرها بالحب والفهم والعطف والتراحم وليس بالاحتياج والاضطرار والعجز فالله جل شأنه كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي «يبغض الشديد على أهله المتكبر في نفسه».

والرجولة الحقيقية ليست في قهر زوجة ضعيفة واستغلال احتياجها وقلة حيلتها لكي تمتهن كرامتها وتسيء معاملتها وتهددها إن اعترضت بالطرد وإنما هي أن تكسبها بحبك ومودتك وعدلك بحيث إذا أتيح لها الاختيار الحر بين البقاء معك أو مفارقتك اختارتك أنت دون غيرك من الرجال.. وعندها لن يثقل عليها شيء من أعمال خدمتك وخدمة بيتك وأطفالك ولو اضطرت لنزول السلالم عشرات المرات كل يوم فارفق بزوجتك يا سيدي وارفق بنفسك أيضا، لأنك لن تشعر بسعادة حقيقية إلى جوار شريكة تكظم غيظها وقهرها المكتوم منك وتذكر أن الرسول الكريم لم ينصح الرجال بحسن الخلق مع زوجاتهم فقط بل وبالصبر عليهن وبالتلطف معهن بل وأيضا بالمزاح والمداعبة معهن في غير مغالاة. وهو القائل: أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله. و «الأهل» هنا هي الزوجة. أما أنت يا سيدتي فتماسكي قليلا.. ولا تقبلي منه هذه المعاملة غير الآدمية التي تصل إلى حد الرفس بالأقدام لإيقاظك من النوم.

فحتى العبيد لهم حقوق كآدميين ينبغي مراعاتها.. وتعلمي كيف تقولين «لا» بأدب وبإصرار عند الضرورة.. ولا تبدي كل هذا الهلع من احتمال ألا تجدي مأوى غير

مأواه.. فأنت زوجة وأم وشريكة حياة وهو يحتاج إليك كما تحتاجين إليه وربما أكثر واستعيني بأهله عليه إذا عاد لضربك وإيذائك بتلك البشاعة فالاستضعاف الشديد يغري البعض بالاستئساد على البؤساء.. وحسن المعاملة أمر مطلوب من الطرفين وليس من طرف واحد فاستمري في خدمة بيتك وأسرتك وخدمته بإخلاص وباعتدال.. ولكن بلا خوف ولا هلع ولا ذل يقلل من قدرك حتى أمام طفليك.. ولسوف تتحسن الأحوال تدريجيا بإذن الله.

السهام القاتلة

أنا واحد من قرائك.. شاب في الثامنة والثلاثين ليس في حياتي ما يستحق أن يروي فلقد نشأت في أسرة عادية وتخرجت في الجامعة وفي إحدى المناسبات العائلية التقيت بفتاة من معارف شقيقتي فلفتت نظري برقتها ومسحة الجمال الملائكي الهادئ في وجهها، وارتحت إليها وسألت أختي عنها فأثنت على أخلاقها وطيبتها فطلبت منها أن توثق علاقتها بها لأني أفكر في التقدم إليها.

وتكررت المناسبات التي التقينا فيها وأحسست بارتياحها لي فتجرأت واعترفت لها بحبي ورغبتي في التقدم إليها. وفوجئت بها تنظر إليّ ساهمة ثم تعتذر لي بأدب عن الارتباط بي. ودهشت لرد فعلها وقدرت أنها لم تحبني، لكني لاحظت عليها حين استأذنت في الانصراف أنها تبذل مجهودا كبيرا لكبت دموعها.. ورغم ذلك انفرطت من عينها دمعة فمسحتها بيدها وأسرعت بالانصراف. وسألت شقيقتي عما تعرفه عنها، فلم أخرج منها بشيء مفيد فهي ابنة وحيدة لأب من رجال التعليم، لكن أمها كثيرة السفر إلى أقاربها في إحدى مدن الأقاليم وتطول غيبتها في كل مرة بضعة شهور فترعى هي أباها وتتولى شئون البيت خلال سفرها، وتبدو خلال ذلك حزينة حزنا غامضا.. ولا تعود لها الابتسامة الغائبة إلا بعد عودتها. ورغما عني وجدتني أفكر في أمر هذه الفتاة وأتساءل عن سر رفضها لي.. وازداد اهتمامي بها حين تأكدت من شقيقتي أنها غير مرتبطة بإنسان آخر.. وأنها ترتاح إليّ وطلبت منها أن تواصل زيارتها لها وافتعلت مناسبة ما لزيارتها في عملها فوجلت حين رأتني لكنها استقبلتني بود وسهلت لي الاستفسار عما أردته ثم دعوتها لتناول مشروب في محل عام بعد العمل.. فنظرت إليّ نفس النظرة الساهمة الحزينة ثم اعتذرت بأدب أيضا. وتوالت زيارتي لها في العمل وانتظاري لها بعد موعده بحجة أنه قد تصادف مروري بجوار عملها لنتمشى قليلا قبل أن تركب المواصلات، وهي لاتزال على موقفها مني لا تعاملني بجفاء فأبتعد عنها.. ولا تستجيب لرغبتي في الخروج معها أو زيارتها في البيت، واستمر الحال هكذا بضعة شهور، وأحسست أن هذه الفتاة هي قدري الذي لا مهرب لي منه، فقررت أن أتقدم إلى خطبتها رغم رفضها، وتوجهت لمقابلة أبيها في بيته بغير موعد سابق وضغطت على جرس الباب ففتحته لي فتاتي وارتاعت حين رأتني كأني قادم لقتلها! وسألتها عن أبيها وأشارت لي إلى غرفة الصالون فتوجهت إليها، وبعد قليل جاءني الأب فاسترحت لمرآه من الوهلة الأولى وصارحته بغرضي من الزيارة فرحب بي وفاجأني بأنه يعرف عني الكثير، وصارحني بأنه ربى ابنته على الصراحة معه في كل شيء ولهذا فهو يعرف أني أزورها في العمل وأسعى للتقدم لها، وتردد قليلا قبل أن يسألني: ولكن هل سألت عنا جيدا قبل أن تتقدم إلينا؟ واستغربت السؤال وأجبته بإجابة مناسبة.. لكنه كرر سؤاله مرة أخرى.. ولم أجد ما أقوله فقال لي: إنه رجل يعرف ربه ولا يرضى لنفسه أن يخدع أحدا لكنه لا يقبل أيضا أن يهتك أسراره الخاصة لكل طارق على الباب، لذا فهو يطلب مني أن أسأل عن أسرته جيدا.. ثم أعود إليه مرة أخرى إذا

رغبت في ذلك. وانتهت المقابلة وخرجت وأنا أكثر حيرة وتمسكا بهذه الفتاة. وأخيرا وبمساعدة شقيقتي عرفت سر هذا الغموض، فوالدة الفتاة مسكينة مصابة بمرض عقلي ونفسي منذ شبابها بعد أن أنجبت ابنتها الوحيدة، وحالتها تستقر وتتحسن لفترات طويلة فتعيش الأسرة حياتها بطريقة عادية. ثم تنتكس وتسوء حالتها فيتم إدخالها إحدى المصحات فتمضي فيها شهورا أيضا ينفق خلالها الأب كل ما يملك على علاجها وهكذا منذ سنوات طويلة.

وسألتني شقيقتي عن موقفي بعد أن عرفت فأكدت لها رغبتي في الارتباط بها ورغم ميل شقيقتي لفتاتي وحبها لها إلا أنها حذرتني من مسألة العوامل الوراثية وتأثيرها على فتاتي نفسها وعلى ذريتي القادمة لكني لم أتردد وواجهت معارضة قصيرة من أبي وأمي وقد حسمتها بسؤالي لهما عما يفعلان لو كانت شقيقتي هي التي في نفس ظروف هذه الفتاة! وخطبت فتاتي والأم غائبة في المصحة. وزرتها مع خطيبتي فوجدت حالتها شبه مستقرة ولا يكاد يظهر منها سوى الذهول الدائم والصمت، وتعجبت من أني وجدت خطيبتي صورة مصغرة من أمها في جمالها وهيئتها، وعقدنا قراننا وتزوجنا وهي مازالت في المصحة، وتحملت معظم أعباء الزواج وحدى نظرا لظروف الأب الواضحة، وسعدت بحياتي الجديدة واكتشفت في زوجتي بالمعاشرة مزايا عديدة فهي قليلة المطالب جدا وتسعد بكل لفتة اهتمام مني بها.. وتعتبرها شيئا كبيرا وتنظر إلى بعدها بعرفان شديد وعيناها مغرورقتان بالدموع، كما اكتشفت أيضا أنها تعبر عن مشاعرها المختلفة بالدموع.. فحين تفرح تبكي وحين تحزن تبكي أيضا وهي غزيرة الدموع بشكل غريب، وسألتها عن سبب ذلك ففسرته بأنها عاشت طفولة حزينة بسبب مرض أمها المتكرر وانتزاعها من بين أحضانها لإيداعها المصحة أكثر من مرة.. وفكرت لأول مرة في سؤال طبيب متخصص عن احتمالات العوامل الوراثية، ليس بسبب زوجتي فقد اخترتها بإرادتي وسعدت بها وإنما تحسبا للإنجاب في المستقبل. وزرت طبيبا فطلب مني التقارير الطبية عن حالة الأم وتحايلت للحصول على بعضها بدعوى عرضها على طبيب عائد من الخارج حديثا وعرضتها عليه فقال لي إن العوامل الوراثية لها دور فعلا في هذا المرض، لكنه ليس أمرا مؤكدا أن ينتقل لزوجتي أو لأولادي فقد ينتقل مثلا إلى الجيل الثالث من الأحفاد وقد لا ينتقل!

وواجهت الاختيار الصعب في موضوع الإنجاب.. لأن أبي وأمي كانا يتلهفان على أن يريا أحفادهما مني خاصة بعد أن تزوجت أختي وواجهت مشكلة بسيطة في الإنجاب تقوم بعلاجها. وأخيرا توكلت على الله وقررت الإنجاب وأنجبنا طفلا بعد عامين من الزواج وتقدمت في عملي بفضل رعاية زوجتي وتهيئتها الجو المناسب لي للتفرغ للعمل، والحق أني لم أشعر بأي متاعب معها منذ تزوجتها وأحبها أبي وأمي كثيرا ونالت احترام كل أهلي وأصدقائنا وجيراننا وبعد ولادة ابني تفرغت لرعايته وللبيت ولم أشك من شيء فيها سوى أنها تكاد تخاف من الخروج من البيت وترفض الخروج إلا معي ولزيارة أهلي وأبيها فقط غالبا وفسرت لي ذلك بأنها لا تحس بالأمان إلا في بيتها وبالقرب مني. فلم أعد أرهقها بطلب الخروج لأداء عمل معين خصوصا حين لاحظت أنني إذا تمسكت بالطلب

نهضت لارتداء ملابسها.. وعيناها مغرورقتان بالدموع فإذا عدلت عن رأيي انفرجت أساريرها وقبلت رأسي شكرا وعرفانا!

وفيما عدا ذلك فهي كالنسمة الرقيقة معي ومع الجميع وتشعرني بأني أهم إنسان في الوجود، وينخلع قلبها من الخوف إذا تأخرت عليها في العودة للبيت، ولاحظت أن خوفها هذا يتضاعف في فترات انتكاس حالة أمها.

وبعد أربع سنوات من زواجنا توفيت أمها رحمها الله فانتابت زوجتي نوبة حزن طويلة، واحترمت مشاعرها وازداد عطفي عليها وبعد عام من وفاتها أراد أبوها أن يتزوج ففاتحني في الأمر ووسطني لنيل موافقة ابنته، وحدثتها في الموضوع بحذر فتفهمت دوافعه وقالت لي إن من حقه أن يستريح بعد ما تحمل من عناء. وشاركت في إجراءات زواجه من أرملة من أقاربها.. وحضرت عقد القرآن وعدنا للبيت وهي ساهمة ثم فجأة انفجرت في نوبة من البكاء لم أرها منها من قبل، واستمرت هذه النوبة بلا توقف حتى الصباح وهدأت قليلا بتأثير المسكنات وخرجت لعملي وأنا قلق.. وعدت بعد الظهر فوجدتها جالسة في فراشها كما تركتها في الصباح ودموعها تسيل في صمت ولم تشعر بدخولي الغرفة ووجدت طفلنا يبكي بشدة من الجوع ويقول لي إنه طلب الطعام من أمه منذ الصباح لكنها لم ترد عليه.

وأدركت أن ما خشيته قد وقع والأمر لله من قبل ومن بعد واستدعيت الطبيب الذي عالجها بالمهدئات في البداية ثم نصح بضرورة إدخالها لإحدى المصحات، فتركت ابني في رعاية أمي واصطحبتها وهي مستسلمة ودموعها تسيل بلا توقف إلى المصحة. وبكت طويلا وهم يصطحبونها بعيدا عني.. وظلت تتلفت خلفها تنجد بي بنظرتها الباكية ألا أتركها وحدها حتى غابت عني وصورتها وهي خائفة توجع قلبي. ودخلت في دوامة العلاج وكرست حياتي لتدبير كل النفقات اللازمة لعلاجها في المصحة الخاصة، واقترضت من عملي ومن أبي وشقيقتي، وبعد عدة أسابيع استقرت حالتها وسمحوا لها بالخروج وطلب مني الأطباء عدم تعريضها لأية انفعالات مفاجئة حتى لا تنتكس حالتها. وعادت زوجتي كسيرة الخاطر وتحس بخجل مؤلم لما تحملته أجلها من عناء وقلت لها إن هذا الإحساس غير سليم لأنك زوجتي وشريكة عمري وقد كان من الممكن أن أمرض أنا فتقومين معي بنفس الدور. وعادت حياتنا إلى مجراها الطبيعي وقد نهيتها عن العودة لتكرار الكلام عن أنها ستعيش جارية، تحت قدمي لكي ترد لي الجميل!

ثم عدت للبيت ذات يوم ففوجئت بها تقدم لي مبلغا كبيرا من المال لأسدد به ديوني.. وتعجبت كيف عرفت ومن أين جاءت بالنقود ثم غضبت منها حين عرفت أنها كلفت أباها ببيع شبكتها لكي تخفف عني هم الديون.. ورفضت قبول المبلغ فلم تدعني حتى قبلته وحتى - وهو الأهم «عفوت» عنها لأنها تصرفت في ذلك دون إذني.

ومضت حياتنا هادئة سعيدة.. وزوجتي تتفاني في إرضائي وتشيع في حياتنا جوا جميلا من الهدوء والرقة والمشاعر الجميلة ثم تعرض أبوها لأزمة مع زوجته

الجديدة واختلفا ولم ترع حرمة كبر سنه وبجهل شديد اتصلت بزوجتي تليفونيا وأشركتها في المشكلة وتطاولت على أبيها وأهانته وزوجتي تحاول تهدئتها والاعتذار لها ودموعها تجري كالنهر.. وعدت إلى البيت فوجدتها ممسكة بسماعة التليفون وهي تبكي وترجو الزوجة أن تعطف على أبيها وتراعي سنه فأخذت منها السماعة فوجدت صريرا مزعجا. وكانت الأزمة الثانية واستغرق علاجها منها بالمصحة شهرين طويلين ثم استردت صحتها وجمالها تدريجيا وعادت حياتنا إلى طبيعتها وبعد عامين آخرين توفى والد زوجتي وأثارت أرملته مشاكل سخيفة حول أشياء لا قيمة لها فانهارت زوجتي للمرة الثالثة وعاودتها الأزمة واستغرق علاجها منها شهرا ونصف الشهر، وعدنا للحياة معا من جديد، وقد ازددت حرصا على حجب أي مؤثرات انفعالية عنها.. ولفت نظر أهلي وأهلها وجيراننا إلى عدم إشراكها في أي مشكلة أو توتر انفعالي. وأصبحت أحجب عنها حتى الأخبار المؤلمة التي تثير الانفعال في التليفزيون والصحف، وقد تشجعت زوجتي على الخروج معي قليلا فأصبحنا نصطحب طفلنا إلى نزهة بسيطة في الشوارع أو النادي أو لشراء شيء له، ونعود وزوجتي سعيدة وممتنة لي كأنني حققت لها معجزة من المعجزات.. ولا تكف عن شكري والدعاء لي بالصحة وطول العمر جزاء لما أفعله، معها.. وهي إنسانة طيبة بكل معنى الكلمة لا تعرف الكراهية وتبتسم في وجه الجميع.. ولا تصدر عنها كلمة مؤلمة لأي إنسان أو حيوان.. ومنذ تزوجتها منذ عشر سنوات لم أسمع منها مرة واحدة كلمة جارحة أو مسيئة وتعبر عن مشاعرها المختلفة بالدموع فإذا فرحت اغرورقت عيناها بالدموع.

وإذا حزنت تدفق دمعها كالسيل وكل من يتعاملون معها يحبونها من الزبال إلى البواب إلى اللبان إلى الأهل والجيران ويوصونني بها خيرا.. وأنا سعيد بها وبحياتي معها ولا أشكو من شيء.. لكنى أطلب منك خدمة كبيرة لي ولطفلنا الوحيد ذلك أن هناك بعض الأقارب كانوا فيما علمت يتوقعون مني أن أتقدم لابنتهم مع أني لم أبد أي إشارة نحو هذا الاتجاه وابنتهم فتاة يتمناها أي شاب.. لكن حظها لم يأتها بعد. وهؤلاء الأقارب لا يتركوننا في حالنا لأسباب لا يعلمها إلا الله.. فإذا مرضت زوجتي وأدخلتها المصحة واضطررت لأن أقول لمن يسألني عنها أنها مسافرة لبعض الوقت عند عمتها بالأقاليم.. سارعوا «بإذاعة» أنها عاودها المرض ودخلت المصحة.. وتحدثوا عن أنها.... وأكثروا من الكلام عن تعاستي وسوء حظي وأن من حقي أن أستريح من عبء زوجتي بغير مراعاة لمشاعري ومشاعر طفلي ومع علمهم بأن زوجتي يتيمة الأبوين ولا سند لها من إخوة أو أهل سواي ورغم أني وسطت عندهم قريبا لنا يرجوهم ألا يقسوا علينا بالكلام مع العائلة والجميع حتى لا يتسرب الحديث إلى طفلنا.. وخاصة أننا لا نسيء إليهم في شيء، ولا نتمنى لهم إلا الخير، لكنهم يتمادون في ذلك.. ويتعمدون أن يتحدثوا عن مرض زوجتي أمام الأطفال.. وأنت تعرف كيف تنعكس تلك الكلمة اللعينة التي يطلقونها على زوجتي على عقول الأطفال وسلوكهم معها مما يجرح مشاعرها ويفجر ينبوع الدموع في عينيها.. وقد ازداد غضبهم منى حين وسطت قريبنا لديهم فتعمدوا الحديث عن مرض زوجتي أمام ابن أحد الأقارب

لأنه زميل لابني في المدرسة.. وجاءني ابني ذات يوم باكيا وسألني: هل صحيح أن ماما...؟ ولقد تحملت كل ما واجهت من أزمات بشجاعة وصبر، لكني لم أتحمل حيرة ابني مما سمع وبكاءه.. انهزمت لأول مرة أمامه باكيا.. واحتضنته وأقسمت له يمينا حسابها مع رب القلوب أن ذلك غير صحيح، وأصبح همي بعد ذلك هو أن أمنعه من إبلاغ أمه بما علم، ومن أن ينعكس هذا القول على سلوكه معها بأي شكل من الأشكال.. فيطعنها في قلبها في الصميم، ويهددها بالمرض والانتكاس.

وما أريده منك يا سيدي بعد أن أعيتني الحيل هو أن تكتب لهؤلاء الأقارب وهم من قرائك وتبلغهم أنه إذا كان هدفهم هو إيلامي وإيذائي فليستريحوا، فلقد تألمت وتأذيت أكثر مما حدث لي طوال حياتي. وأنا على استعداد لأن أسعدهم.. وأتألم أكثر وأكثر لكني أرجوهم فقط ألا يسددوا إليّ سهامهم القاتلة عن طريق ابني.. فهو لا ذنب له في «جريمتي» في حقهم.. ولا ذنب له في حالة أمه.. بل إنه يستحق عطفهم لا قسوتهم ويكفي أننا حكمنا عليه بأن يبقى وحيدا مراعاة للظروف، وأنه حرم من حنان أمه خلال عمره القصير مرات عديدة. فماذا فعل لكي يعاقبوني عن طريقه هذا العقاب القاسي.. وماذا فعلت زوجتي وهي إنسانة مسكينة تحب الجميع ومنهم هؤلاء الأقارب لكي يسلخوا جلدها دائما بالحديث عنها وإيذاء مشاعرها هكذا، بل ما هي جريمتي أنا أصلا والزواج قسمة ونصيب في النهاية.. وأنا راض بنصيبي وسعيد به، ولن أرضى بغيره بديلا فهل تؤدى لي هذه الخدمة إكراما لخاطر ابني البائس هذا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: من لا تحركهم ضمائرهم.. ولا نوازع الرحمة بطفل بريء كطفلك لا تحركهم كلماتي أو كلمات غيري، ومع ذلك فإني أستجيب لرغبتك وأقول لك أولا أنك إنسان نبيل تحمل همًا إنسانيا يستحق أن يعينك الآخرون على حمله والتخفيف من آثاره، لا أن يضاعفوا من ثقله عليك بسيوف اللسان التي تقطر دما! والحق أني أصدق كل كلمة في رسالتك عن سعادتك مع هذه الزوجة الملائكية الطيبة، التي تحب الجميع حتى من ينهشونها ولا تحمل للحياة وللآخرين إلا كل المشاعر الإنسانية الرقيقة، ولا عجب في أن تسعد بها ومعها رغم الآلام العارضة ولا في أن يحبها كل من يتعاملون معها إلا من خلبهم من كل ما يجعل من الإنسان إنسانا إذ «ما جزى من يحب إلا بحب» كما يقول الشاعر. وليس من حق أحد في النهاية أن يحكم من زاوية رؤيته هو على سعادة الآخرين أو شقائهم، فالسعادة سر شخصي لا يدرك أبعاده إلا صاحبه، ومن كانت سعادته حقيقية في أوقات الهناء حق له أن يتحمل بعض الآلام في أوقات البكاء، ويوم أو حتى لحظة واحدة من السعادة الحقيقية تستحق أن نتحمل من أجلها ما تفرضه علينا الحياة أحيانا من ضريبة الألم. ومن حق كل إنسان أن يعيش حياته كما أرادها لنفسه في أمان مادام لا يصادر حق الآخرين في أن يعيشوا حياتهم في سلام، لكن آفة البعض هي أنهم لا يعيشون في سلام مع الحياة ويعز عليهم في نفس الوقت أن يدعوا الآخرين يعيشون حياتهم في هدوء. وهؤلاء هم من

يكرهون الحياة وتكرههم الحياة ويبغضهم ربهم لأنهم من آكلة لحوم البشر الذين عناهم الحديث الشريف القائل: إن الله يكره عباده اللحمين.

والمؤسف حقا هو قصور القانون الوضعي في كثير من الأحوال عن العقاب على جريمة الإيذاء المعنوي بنفس ما يعاقب به على جريمة الإيذاء البدني، مع أن إيذاء النفوس قد يكون في بعض الأحيان أشد قسوة وأكثر إيلاما من إيذاء الجسد.

ولو كان الأمر بيدي لعاقبت من تعمدوا أن يسربوا إلى طفلك، هذا الحديث المؤلم عن أمه بأشد مما يعاقب به سارق أو قاتل، ذلك أنهم قتلة فعلا يقتلون في هذا الطفل البريء أمانته وسعادته، ويدمرون روح أمه وسلامها بما يرشقونها من سهام مسمومة. وهي سهام قذرة لأنها تختار ما لا حيلة الإنسان فيه، وهو المرض هدفا لها وحتى لو كانت هناك خصومة ما، بينك وبينهم فشرف الخصومة يفرض على الشرفاء أن يتعففوا عن استخدام الأسلحة القذرة في خصومتهم، وأن يعفوا الأبرياء من إيلامهم بما لا جريرة لهم فيه.. فالصحة ليست امتيازا لأحد والمرض ليس عارا شخصيا لأحد، حتى يحق للبعض أن يشمتوا بصاحبه ويعيروه به.. ونصيب كبير من أماني الإنسان بأن تجنبه الحياة محنها المؤلمة يتمثل في ألا يشمت هو في ضعف أحد أو انكساره بالمرض. إذ من يدري غدا ماذا سوف تقذف به أمواج الحياة في المستقبل.. فليدفعوا عن أنفسهم هذا العقاب الإلهي بكف ألسنتهم وأذاهم عن زوجتك وطفلك.. وليتقوا الله في أنفسهم قبل أن يتقوه فيك وفي أسرتك، فإنما يدافع الإنسان عن نفسه قبل الآخرين حين يكف أذاه عنهم، ويبتهل إلى ربه أن يخفف عنهم ويجنبه بعض عنائهم. فإذا أردت نصيحتي بعد كل ذلك فإني أنصحك بأن تباعد بين هؤلاء البشر، وبين أسرتك وزوجتك، وبأن تتجنب كل ما يجمع بينك وبينهم، وبين طفلك وأطفالهم إلى أن يرجعوا عن غيهم أو تهدأ خواطرهم بزواج ابنتهم، وحبذا لو نقلت طفلك في العام الدراسي القادم إلى مدرسة أخرى لا تجمع بينه وبين أطفالهم.. ثم عش حياتك يا صديقي بعد ذلك آمنا، كما اخترتها واختارها لك الله، فأنت جدير بزوجتك الفاضلة هذه، وهي جديرة بك وبأخلاقك الكريمة ويكفيك أنك تعيش مع إنسانة تفيض حبا لك ورقة وخيرا وودا للجميع، ولا تعرف الكراهية ولا الالتواء ولا تجرح مشاعر أحد ولا تحتمل إيذاء أحد.. فإن كان هذا هو في عرف هؤلاء «الأقارب»، فأهلا به ومرحبا، وطوبى للحياة وللأرض إذا انتشرت فيها هذه المشاعر الرقيقة السامية وعمت كل أرجائها، وإذا كان عكس كل ذلك من الكراهية والشحناء والصراع والتطوع بإيذاء الآخرين هو العقل، فبعدا له وسحقا، ولندع الله معا أن «تمرض»، البشرية كلها بكل هذه المشاعر الإنسانية الجميلة التي تسبح في جو عشك الصغير وترفرف على حياتك. وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الشخص الآخر

أنا سيدة أعمل بالتدريس بإحدى كليات القمة.. بدأت قصتي منذ 12 عاما حين كنت طالبة في كليتي المرموقة والتقيت بشاب جامعي أحببته ورأيت فيه الرجل الذي أريد أن يشاركني حياتي، وعارض أبي في زواجي منه بشدة لتقاربنا الشديد في السن ولوجود تفاوت تعليمي وثقافي بين أسرتي وأسرته، فأسرتي يتمتع كل أفرادها بمراكز اجتماعية مرموقة في حين يعمل كل أفراد عائلته بالتجارة وكان من رأي أبي أن ثراءهم طارئ وحديث، وسوف تختلف نظرة كل منا للحياة ومعاييره تبعا لاختلاف المستوى الثقافي بين الأسرتين إلى جانب أن ظروف هذا الشاب العائلية لم تكن مستقرة فقد كان أبواه منفصلين وتزوجت أمه بعد طلاقها زواجا لم يلق قبول أسرتها وترتب عليه نشأته مع أخته وأمه في عزلة عن بقية العائلة. لكني رغم كل هذه الاعتراضات تمسكت به للنهاية وتحملت إساءة معاملة أبي له لكي يبعده عني.. وتم زواجنا بعد حصولي على البكالوريوس.. ومنيت نفسي بتحقيق الأحلام والسعادة معه ففوجئت بعد أيام بأنني قد تزوجت شخصا آخر غير الذي أحببته وحلمت به، شخصا يسيء معاملتي ويضربني ويهينني لأتفه الأسباب ويمنعني من زيارة أهلي أحيانا واكتشفت عمق اختلاف نظرة كل منا للحلال والحرام واختلاف قيمنا ومعاييرنا من خلال وقائع كثيرة لا مجال لسردها الآن وكان من بينها أني حملت بعد زواجنا مباشرة فأراد التخلص من الجنين بدعوى أنه لا طاقة له بنفقات زائدة فصدمت وفعلت كل ما بوسعي للاحتفاظ بجنيني بغير أن أخالف أمر ربي وجاءت الطفلة فإذا بأبواب الرزق تفتح لزوجي فانتعشت تجارته واشترى لي سيارة وانتقلنا من الشقة الصغيرة التي تزوجنا فيها إلى شقة أوسع في حي راق، ووقفت إلى جواره بكل قواي في أزمة جديدة نشأت بينه وبين زوج شقيقتي حول التجارة وأحس هو بالامتنان لي وساندني خلال استذكاري للحصول على الماجستير ثم ازدهرت أحوال زوجي المالية فانتقلنا إلى شقة فاخرة كالقصر وخلال ذلك كنت قد أنجبت طفلي الثاني وجاء طفلا جميلا فأحسست بأني قد ملكت كل شيء في الدنيا، ورغم ذلك فلقد كان الإحساس بعدم الأمان يساورني من حين لآخر، إذ كان زوجي رغم رقته أحيانا يثور مرارا ثورات بركانية وينهال عليّ بالضرب والإهانة حتى كسر لي في إحدى هذه المرات ضلعا، ولست أدعي أنني كنت أقف ساكنة أمامه، فالحق أني بعد عامين من الزواج وبعد أن استمر في سبي وسب أهلي بدأت أرد عليه إهاناته.

ومضت الحياة بيننا هكذا سلسلة من الخلافات والمشاحنات المستمرة تصل أحيانا إلى حد ضربي تتخللها بعض الأوقات الطيبة المريحة، وكنت أطالبه دائما بحسن معاملتي.. ويطالبني هو دائما بالتسبيح بحمده وفضله على لأنه انتشلني من قاع المجتمع واشترى لي سيارة واسكنني في شقة فاخرة.

ثم عانت تجارة زوجي بعض الكساد فأصبح يقضي وقتا أطول في البيت وكثرت الخلافات والمشاحنات بيننا وفي إحداها انهال عليّ ضربا حتى أغمي عليّ وحين أفقت قلت له إنني لا أريد لطفلي أن يريا أباهما وأمهما على هذه الحالة البشعة،

ولابد أن نعيد التفكير في ضرورة إصلاح حياتنا، وقال لي إنه سيسافر مع أصدقائه في رحلة يختلي فيها بنفسه ويفكر بهدوء في حياتنا.. وسافر وانتظرت عودته بكل الشوق لأنه زوجي وحياتي رغم كل شيء. وعاد بعد أيام لكنه رجع إنسانا آخر غير الذي سافر.. فقد أعرض عني تماما ولم تعد به رغبة في الحديث معي وأصبح يطيل السكوت خلال وجوده في البيت ويطيل الغياب حين يخرج رغم كساد عمله ثم أقدم على خطوة أخرى فهجر فراش الزوجية وأصبح ينام في غرفة أخرى، وأنا أكاد أجن ولا أدري ماذا أفعل لاسترضائه، ورغم كثرة مشاكلنا وخلافاتنا فلقد أحسست أن الخلاف هذه المرة من نوع آخر قاتل ومخيف، فقد لاحظت أنه لا يعبأ بي ولا شيء يقتل المرأة كإحساسها بأن زوجها لا يكترث بها حتى في وقت الخصام خاصة إذا كان يعني لها كل شيء في حياتها.

وفجأة بدأ زوجي يتحدث عن رغبته في أن أترك وظيفتي في التدريس الجامعي لأتفرغ له ولبيتي ولطفلي مع أني كنت قبلها بقليل في إجازة لمدة عام لرعاية طفلي، وبدأ يتحدث عن رغبته في بيع الشقة الفاخرة ليستفيد بثمنها في إنعاش تجارته وبدأ يشكوني لكل من يقابله ويدعي تقصيري في واجباتي المنزلية وفي حقوقه كزوج وحقوق طفلي ويقول إن عملي أهم شيء في حياتي ويعلم الله أن كل هذا غير صحيح، وضقت بكل ذلك وتمنيت أن تعود حياتنا إلى طبيعتها وطلبت منه في جلسة طويلة خلال شهر رمضان الماضي أن يفتح لي قلبه ويحدثني بما يراه خطأ في وأنا على استعداد لإصلاح كل أخطائي فأجابني بوجوم بأنه قد فات الأوان. فقمت وصليت لله باكية وأنا أدعو الله أن يهديه لنفسه ولولديه وفوضت أمري إلى الله ودعوته أن يختار لي ما فيه خيري وصلاح أمرى بعد أن أعيتني كل الحيل لإنقاذ زواجي ولم يعد في مقدوري شيء جديد. وجاء زوجي ذات يوم وأخبرني بأنه قد باع الشقة وأنا أعلم يقينا أن ذلك غير صحيح وبعد فترة قام بجمع ملابسي وملابس ولدي وقال إننا سنترك الشقة اليوم وسيرسل هذه الملابس لشقتنا السابقة التي كان يؤجرها مفروشة وطلب مني الإقامة لدى والدي لفترة مؤقتة إلى أن ينقل الأثاث إليها، وبعد أيام ذهبت إلى الشقة فوجدته قد نقل إليها أثاث غرفتين فقط من أثاث الغرف السبع بالشقة الفاخرة ولم أجد ملابسه فيها وسألته عنها فقال لي إنه سيقيم لدى والدته. وأحسست بنية الغدر في رنة صوته وملامح وجهه الجامدة.. وبأن هناك امرأة أخرى قد احتلت مكاني في حياته لكني صبرت وسلمت أمري إلى خالقي. وبعد فترة جاءني وقال لي إنه بعد أن فكر جيدا في حياتنا الماضية فإنه يدعوني للذهاب معه إلى المأذون! وقلت له إني أرفض الطلاق من أجل ولدي فأجابني بأنه قد وضع حجرا على قلبه بالنسبة لهم فقمت باكية.. وأنا أقول له: حسبي الله ونعم الوكيل أنت ظالم.. ظالم ولن يهملك الله أبدا لكنه سيمهلك إلى يوم تشخص فيه الأبصار.

ورفضت الذهاب معه الى المأذون وطلقني غيابيا سامحه الله ورفضت أنازعه في شيء أو أقاضيه لأني أردت ألا أفعل شيئا يؤذي ولديّ نفسيا في المستقبل وأحرص على ألا أثير كراهيتهما ضده وعلى الحفاظ على صورته الأبوية الطيبة في نظرهما لأني بحكم ثقافتي ودراستي أعرف جيدًا أهمية الحب المتوازن للأب

والأم في نفسية الطفل. ولست أفعل ذلك من أجله بقدر ما أفعله من أجل طفلي بل ومن أجلي أنا شخصيا لأني لن أسعد بطفلين نفساهما مشوهتان وغير سويتين بسبب اهتزاز صورة الأب أمامهما. وها أنذا يا سيدي مطلقة في الثانية والثلاثين من عمري وبعد سبع سنوات فقط من الزواج الذي حلمت به مع الشاب الذي أحببته وتمسكت به في وجه معارضة أبي ونصائحه لي. وأنا الآن أستعد للسفر إلى الخارج مع ولدي للحصول على الدكتوراه، ورغم علمي بأنه في طريقه إلى الزواج من الأخرى، التي قوضت زواجي فأنا لا أشعر تجاهه إلا بالإشفاق عليه مما فقد، لأنه لا يعي قيمة ما فقد ومازلت أدعو له الله بأن يهديه لنفسه ولولديه، أما أنا فلقد استرددت بفضل الله نفسي المحطمة وثقتي المهزوزة وأشرقت روحي مرة أخرى بحب الحياة والناس حتى يظن من يراني أني لم أتزوج من قبل، ولست في النهاية أعتبر ما جرى لي في حياتي فشلا كما يفعل البعض وإنما تجربة وخبرة بالحياة حلوها ومرها، ويكفيني أني بفضل الله أستطيع الاعتماد على نفسي تماما وأستطيع أن أربي ولديّ على القيم التي نشأت عليها وأني أملك أمر نفسي وروحي الطليقة التي تسبح في ملكوت الله الواسع وتؤمن بأنه ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. وكل ما أدعو به ربى هو أن يهديني ويصلح لي أمري ويبدلني به خيرا منه زوجا صالحا وأبا آخر لولدي أواصل حياتي معه فإن لم تشأ عناية ربي بذلك فبدونه سوف أمضي في الحياة بإذن الله.

وقد تعلمت الكثير من تجربتي ورأيت أن أكتبها لتستفيد بها بعض الفتيات اللاتي يصممن آذانهن عن نصيحة الأهل قبل الزواج مع أنها تكون غالبا صادرة عن رغبة صادقة في سعادتهن كما أريد في النهاية أن أقول للفتيات إن المال لا يصنع السعادة في الزواج وأن السعادة الحقيقية هي في سكينة القلب إلى جوار إنسان مناسب عائليا وفكريا وماديا ومن كل الجوانب، ليؤانس روح الفتاة وينشأ أولادهن سعداء وأصحاء نفسيا والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **تعجبني دائما كلمة للكاتب الأمريكي وليم شيرر يقول فيها: في حالات ضعفي ألجأ دائما إلى وسيلتين: الأولى أن أنظر إلى حياة الناس وصفحات التاريخ وأجد أنه كانت هناك دائما آلام لا أستطيع احتمالها فيساعدني ذلك على النظر لمتاعبي نظرة نسبية، والثانية أن أنشد دائما حياة جديدة ملؤها الأمل والتفاؤل مهما كانت الأحوال.**

وهذا في تصوري ما ينبغي أن يفعله كل إنسان تعترض حياته تجربة مؤلمة ولعل هذا أيضا ما احترمته في قصتك وهو روحك العالية وشجاعتك في تقبل أقدارك وتطلعك بروح الأمل والتفاؤل إلى مستقبل أفضل يمسح عنك الأحزان مع إدراكك في نفس الوقت لقدراتك واستعدادك للاعتماد على نفسك ورفضك الانهزام أمام تجربة قد تدعو أخريات إلى اليأس والإحباط.

أما أكثر ما شد انتباهي في رسالتك فهو ظاهرة «الشخص الآخر» الذي تكشف عنه أحيانا تجربة الحياة الزوجية فإذا به نقيض مخالف تماما لصورة فتى القلب الواعد بكل سعادة وشاعرية قبل الزواج!

وهي ظاهرة ألمسها بكثرة في رسائل القارئات والقراء الذين يصطدمون أيضا بنفس المفاجأة أحيانا بعد الزواج. ولا تفسير لها عندي سوى التسرع في الارتباط دون دراسة كافية للطرف الآخر وشخصيته وظروفه وطباعه، وفي تجاهل الفوارق المؤثرة على نجاح الزواج في المستقبل تأثرا بأحكام القلب وحده وبغير عرضها على محكمة العقل. إلى جانب عوامل لا تقل أهمية عن ذلك كتأجيل المشاكل إلى ما بعد الزواج دون حسم أو التوصل إلى حل مرض للطرفين بشأنها قبل أن تبدأ الحياة الجديدة، كمشكلة عمل الزوجة مثلا أو مكان الإقامة الزوجية ... الخ.

فضلا عن الانفعالية والاستجابة السريعة لنزوات الغضب واتخاذ أسلوب الشد والجذب وصراع الديكة كأسلوب حياة بعد الزواج اعتمادا على أن الحب سوف يغفر كل الخطايا. وهذا ليس صحيحا في أحيان كثيرة.. إذ لا شيء يحفظ على الحياة الزوجية نجاحها واستمرارها أكثر من التفاهم والرفق المتبادل في التعامل بين الطرفين.. وحرصهما معا على ألا يكون زواجهما قابلا للكسر مهما كانت العواصف التي تعترضه رعاية لحق الأبناء على الزوجين.. وتجنبا لمعاناة مرارة الفشل والإحباط.

والحق أن هناك دائما جانبا خفيا في شخصية كل طرف لا يتعرف عليه الطرف الآخر إلا بالمعاشرة اليومية ومواجهة اختبارات الحياة وكيفية تصرفه فيها واحتماله لها. وهو جانب لا يمكن امتحانه للأسف جديا إلا عند الخلاف. لأنه في أوقات الصفاء يبدو الجميع ظرفاء وشاعريين ومجاملين، أما في أوقات الخلاف الجاد فقد يتكشف الأمر عن شخص آخر أو امرأة مختلفة لا علاقة لكل منهما بفتى الأحلام القديمة أو فتاتها. لهذا قيل دائما إن أخلاقيات الإنسان عند الخلاف.. تكشف عن جوهره الحقيقي ومعدنه الأصيل وكلما كان عادلا وحريصا على ألا يجرح مشاعر الآخرين بقسوة وسادية وعلى ألا يتمادى في الخصومة والفحش عند الخلاف، كان إنسانا فاضلا حسن المعاشرة.

وقصتك لم يكن ينبغي أن ترشحك لأية مفاجأة لأنك قد عرفت زوجك السابق وأحببته وخطبت له عدة سنوات قبل الزواج.. إذن فلقد تحطمت سفينة زواجك للأسف على صخرة الانفعالية، وتقارب سنكما التي أظنها متساوية وعدم حسم مشكلة عملك قبل الزواج أو عدم توصلكما إلى حل لها يرضيكما معا. وإلى استجابة كل منكما سريعا لدواعي المشاحنة والخلاف. وإلى تسرع زوجك في تحطيم زواجه بغير دفاع جاد عنه ولقد كان من حق طفليه عليه أن يتروى طويلا في اتخاذ قرار الانفصال خاصة بعد كل ما أبديته من حرص عليه وتمسك به رغم ما نالك منه من إهانات وضرب يكسر الضلوع في بعض الأحيان. لكنه لم يفعل للأسف ولم يرفع الحجر الثقيل عن قلبه ليعرف أن من واجبه تجاه طفليه ألا يرضى لهما بأن يدفعا ثمن أخطاء أبوين اختار كل منهما الآخر بملء إرادته ولم

يستشرهما أحد في أمر زواجهما ولا في إنجابهما.. وسوف يتفهم ذات يوم حجم جنايته عليهما.. وسيدرك بكل تأكيد قيمة ما فقد، ولكن بعد أن يكتوي غالبا بنار التجربة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظرة الاحتقار

أرجو ألا تتصور أني أروي لك قصة فيلم قديم.. فإن ما أرويه لك هو الواقع الذي أعيشه، والذي يتكرر كثيرا في صور مختلفة. فأنا فتاة في الثامنة والعشرين من عمري، منذ سنوات كنت طالبة في كليتي المرموقة، وعندما وصلت إلى السنوات النهائية فيها تقدم لي خطاب كثيرون، فكان أبي يلتقي بهم ويسمع منهم ويتحرى عن إمكاناتهم المادية، ثم يعدهم بالاتصال بهم بعد انتهائي من الدراسة، ولم يكن دافع أبي إلى ذلك هو الحرص على تفرغي للدراسة، وإنما انتظار العريس الأفضل والأقدر ماديا. فأنا من أسرة مكافحة ولم يكن أبي قادرا على مساعدتي في تكاليف الزواج ولا أمل له إلا في زوج يعفيه من كل مسؤولية مادية. وكنت مقتنعة بذلك أيضا. لكن حدث ما غيّر بعض أفكاري، فلقد تعرفت على شاب وسيم مهذب لفت نظري فيه أنه سعى للتعرف عليّ بجرأة وأدب في نفس الوقت، وعرفت منه أنه يعمل محاسبا، وتحدثت معه عدة مرات في إطار الكلية ثم أبدى رغبته في أن يرتبط بي فرحبت به وشجعته على التقدم لأبي. ورحب به أبي كثيرا وأعطاه «كلمة شرف»، أن تتم خطبتنا بعد عام عقب تخرجي، واتفق معه على المهر والشبكة وكل تفاصيل الزواج بما فيها أننا سنتزوج في مدينة أخرى غير المدينة التي تقيم فيها أسرتي، وصارحه أبي بأنه لا يملك شيئا يساعدني به في إعداد الجهاز. فازداد تمسكه بي على عكس ما يفعل بعض الشباب الآن حين يصدمون بعجز أسرة الفتاة عن المشاركة في الأعباء.

وقضينا الفترة الباقية على دخولي الامتحان بغير أي خطوة رسمية اعتمادا على كلمة أبي للمحاسب الشاب. وفي هذه الأثناء تسلل حبه إلى قلبي رغم تباعد فترات لقائنا وانشغلت به وأسعدني أن الجميع يشيدون بخلقه وأصله الطيب. ومع أنه كأي شاب كان يأمل في مساعدة أبي له في أثاث الشقة إلا أنه تقبل الأمر الواقع بسماحة حين تأكد له عجز أبي عن ذلك، وقال إن «الأثاث» مهما كان ثمنه لا يعمر البيوت.. وإنما يعمرها الوفاق والإخلاص، واتفق مع أبي على أن يقوم هو بالتأثيث في حدود إمكاناته على أن نستكمل حياتنا فيما بعد. ومضى عام على الانتظار وهو يعد الأيام على قرب موعد الخطبة، وفجأة تقدم لي طبيب ثري من أسرة ميسورة طالبا يدي، ورحب به أبي بشدة ولم يشر معه إلى مشروع الخطبة المتفق عليها، وبدأ يقارن بين مميزاته ومميزات المحاسب الشاب فيجده يرجحه في كل شيء بلا منافسة، فهو سوف يعفيه أيضا من المشاركة في الجهاز لكنه سيؤثث بيت الزوجية بما يتفق مع إمكاناته المادية التي لا تقارن بها إمكانات المحاسب الشاب، وهو طبيب دخله كبير وله إيراد خارجي وأسرته ميسورة، كما أنه من أهل المدينة التي نقيم فيها وبالتالي فسوف يكون عش الزوجية بالقرب من أسرتي وليس في مدينة أخرى. وبعد تفكير قصير وضغط هين بسيط من أبي وأمي وجدت نفسي بعد قليل أؤيد رأيهما وأقبل الطبيب بل «وأفرح به»، ولا تسألني.. وماذا عن الحب الذي تسلل إلى قلبي تجاه المحاسب لأنني تنكرت لهذا الحب في غمار فرحتي بالإمكانات المادية والأسرة الكبيرة والجهاز الفاخر بل وفي غمار

سعادتي بإثارة حسد وغيرة زميلاتي مني حين أفوز بهذه الزيجة الممتازة. وبقيت مشكلة «كلمة شرف» التي ارتبط بها أبي مع المحاسب وقد تخلص منها بغير عناء كبير بأن طالبه بمهر وشبكة أكبر مما اتفقا عليه ومما يقدر عليه بكثير، وتمسك بمطلبه فأدرك الشاب نية الغدر وأحس بانقلابنا عليه دون سبب مفهوم فغادر بيتنا محسورا وأنا أسمعه يردد «حسبي الله ونعم الوكيل» بصوت عال أرادني أن أسمعه، ولم أتوقف عند ذلك بل شغلت عنه بالشبكة الذهبية الثمينة التي أهداها لي خطيبي الجديد وتفاخرت بها أمام زميلاتي وأثرت حقدهن مع أني لم أرتد ذهبا في حياتي قبل ذلك، وتمت الخطبة وجرى إعداد الأثاث الفاخر والزواج سريعا وسعد الجميع ماعدا الخطيب المغدور به وفاز أبي بالإعفاء الكامل من مسؤولية زواجي وفزت أنا بالشبكة والمهر والأثاث الفاخر والشقة اللائقة، وفاز زوجي بالفتاة الجميلة التي أرادها لنفسه، وانتقلت إلى عش الزوجية ونسيت تماما مشروع خطبتي الأولى، وبدأت شهور الزواج الأولى في قمة السعادة، ثم ظهرت بوادر الحمل عليّ لكنه لم يتم للأسف لأني تعرضت لعارض صحي بسيط أدى لنزول الجنين، وتجاوزنا الأزمة نفسيا بعد فترة قصيرة وأملنا أن نعوض ما فقدناه سريعا لكن الحمل لم يثبت مرة ثانية رغم كل المحاولات، وحاول زوجي علاجي بكل الوسائل الممكنة فلم أفز بالحمل وإنما تأكد من أنني لن أحمل مرة أخرى فبدأت معاملته لي تتغير.. وبدأت المشاكل بيننا حتى وصلت إلى حد الضرب والإهانة، وراح يعايرني بأنني عاقر ويهددني من حين لآخر بالطلاق، وبأنه يستطيع أن يتزوج غيري في أية لحظة، وبلغ الأمر بأسرته أن كاد بعض أفرادها يعتدون بالضرب على أبي حين تدخل للدفاع عني في أحد خلافاتنا، وتكشفت لي السعادة التي حلمت بها عن بيت صامت بارد موحش لا مكان فيه لدفء الأنس والعاطفة والعشرة الطيبة ولا مكان لراحة البال والإحساس بالأمان والاطمئنان للغد فيه، وأصبحت أرى قطع الأثاث الكبيرة الثمينة وكأنها أشباح تخيفني وتقض مضجعي وتذكرني بخيبتي وتعاستي، حتى أصبحت أقضي في بيت أبي البسيط من الزمن أكثر مما أقضيه في بيت الزوجية الذي حلمت به. فنحن في خلافات ونزاعات دائمة.. وكلما استقررت في مسكني أسبوعين أو ثلاثة سمعت من الأشياء الصبيانية شيئا جديدا عن خيانة زوجي فأواجهه بما سمعت وينفجر الخلاف بيننا وأغادر البيت وهكذا. ومضت على هذا الحال ست سنوات، وذات يوم كنت مع شقيقي أشترى لوازمي من أحد المحلات ففوجئت برؤية المحاسب الشاب القديم ومعه فتاة جميلة وهادئة وطفل وليد يتبادلان حمله في تعاون جميل ويتحادثان في ألفة وود واحترام والسرور ينضح من وجهيها.. فخفق قلبي بشدة، وسرت برودة شديدة في أطرافي وأحسست كأن كل من في المحل يعرف أني قد غدرت بهذا الشاب، جريا وراء الإمكانات المادية فعاقبني الله بالتعاسة مع زوجي.. وبينما أنا في اضطرابي رآني خطيبى السابق أنظر إليه، فنظر إليّ نظرة احتقار وددت معها لو انشقت الأرض وبلعتني. وأدركت في هذه اللحظة أكثر من أي وقت آخر عمق تعاستي، وتنبهت إلى أنني «أتسول» شقيقي لكي يخرج معي لقضاء حاجياتي لأني لا أجد زوجي دائما.. أو في نزاع معه، في حين يعيش الآخر.. الذي غدرت به في سعادة وهناء مع زوجة سعيدة به، ومضى هذا الموقف

تاركا آثاره في نفسيتي.. وأنا الآن في بيت أبي مرة أخرى في نزاع جديد من نزاعاتنا بسبب تصرفاته الصبيانية وخياناته لي التي وصلت إلى حد معاقبته رسميا في عمله عليها وبسبب إهاناته وإهانات أسرته وسوء معاملتها لي. وقد فقدت الإحساس بكل شيء وتجعد وجهي وعجزت عن الاختيار الصحيح. فهل أختار الطلاق والحياة كعاقر وحيدة.. أم أختار العودة إليه وإلى كل ما أعاني منه معه، والأمران كلاهما مر.. أرجو أن تشير عليّ بما فيه الخير لي، وألا تكون قاسيا عليّ لأني قد نلت عقابي من الدنيا ولم أعد قادرة على المزيد وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **لن أقسو عليك يا سيدتي لأنك قد عرفت فعلا بتجربة الألم كل ما كنت أريد أن أقوله لك، فأدركت قيمة ما عبر عنه بفطرته السليمة خطيبك السابق من أن البيوت لا تبنى بالمتاع الفاخر أو الشبكة الثمينة.. وإنما تبنى بما هو أهم وأبقى كالوفاق والإخلاص والرغبة الصادقة في مشاركة إنسان أفراح الحياة وأحزانها وعرفت أن السعادة الحقيقية لا ينالها الإنسان صافية إذا اهتدى إليها ببوصلة الحسابات المادية وحدها أو إذا كان دافعه إليها إغاظة الآخرين وإثارة أحقادهم أو إذا وطأ في طريقه إليها قلوب الآخرين.. وعرفت الكثير والكثير، لكن هناك شيئا واحدا يبدو لي أنك لم تعرفيه حق معرفته بعد وهو أنك لم تحملي حبا حقيقيا لخطيبك السابق وإنما خيل إليك أو توهمت أنك قد أحببته، لأنك لو كنت قد عرفت الحب حقا معه لما غدرت به بهذه السهولة العجيبة.. ولما ضحيت به أبدا على مذبح الأشياء الصغيرة التي لا قيمة لها ولا أثر في السعادة الحقيقية، كما فعلت أنت مع خطيبك السابق. وعلى أية حال فإن ما يعنينا الآن هو تعاستك الحالية ومستقبل علاقتك الزوجية. وفي رأيي أنه لا معنى أبدا للمعاناة ومكابدة الآلام حتى نهاية العمر.. إذا لم يكن للاحتمال هدف نبيل يبرر للإنسان مقاساة ما يعانيه.. وليس من بين أهداف الحياة هدف واحد يمكن قبوله لتبرير شقاء الإنسان سوى حرصه على سعادة الأبناء فإذا كانت حياتك خالية من هذا المبرر النبيل.. فبأي هدف آخر يمكن تبرير هذه الحياة القلقة المضطربة التي لا تعرف السعادة ولا الأمان!.**

إن هناك نوعا من العلاقة العاطفية يسميه علماء النفس علاقة «الحب ـ الكره» وهي علاقة معقدة تجتمع فيها أحيانا مشاعر الحب والكراهية معا في قلب إنسان تجاه إنسان آخر يحبه وينقم عليه بعض الأشياء والتصرفات، ولا يستطيع الابتعاد عنه أو نزع حبه من قلبه، ولا يستطيع في نفس الوقت التخلص من مشاعر الكراهية له بسبب ما ينقمه عليه من أعمال وتصرفات. وهذه العلاقة قائمة بين كثيرين وإن لم يتنبهوا لحقيقتها.

وكل ما أخشاه هو أن تكون علاقة كل منكما بالآخر من هذا النوع المعقد من العلاقات، ولهذا فأنت مطالبة أولا أن تتعرفي على حقيقة مشاعرك تجاه زوجك وأن تحددي بأمانة مع النفس على ضوئها رغباتك الحقيقية في الاستمرار معه مع ما يحمله لك ذلك من نذر استمرار المعاناة، أو في بتر هذه العلاقة وطي صفحتها

مع ما يحمله لك ذلك من خيبة أمل ووحدة لبعض الوقت، وحين تتوصلين مع نفسك إلى تحديد حقيقة المشاعر والرغبات فسوف تستطيعين تحديد الطريق الذي تسيرين فيه بلا ندم لأنك ستختارينه بملء إرادتك وبعد أن اكتسبت خبرة ثمينة بالحياة وبالأشياء والأهداف التي تستحق المعاناة من أجلها وتلك التي لا تساوي لحظة معاناة واحدة من عمر الإنسان، ولو سألتني عن رأيي في علاقتك بزوجك لقلت لك على ضوء ما قرأت من تفاصيل أخرى في رسالتك أنها ليست زواجا بقدر ما هي طلاق مؤجل، فزوجك لن يتوقف فيما يبدو لي عن تصرفاته الصبيانية التي أدت به إلى مجازاته إداريا في عمله. وأنت لست على استعداد للتغاضي عما يفعل، والتسليم به كأمر لا حيلة لك فيه، وعلاقة الاحترام وحسن المعاشرة والاقتناع والتراحم ليست قائمة بينكما.. وبنيان الزواج نفسه، إلى جانب كل ذلك هش لا تسنده أية دعائم من الرغبة المشتركة في إسعاد الأبناء، وتيسير رحلة الحياة عليهم، وسفينتك هائمة تتقاذفها الأمواج باستمرار بين مرفأين هما بيتك وبيت أبيك.. فماذا بقي لكما إذن من علاقة الزواج كما أرادها الله لنا؟ يا سيدتي إذا كان الانفصال قدرا مؤجلا.. فالأفضل أن يتم وأنت في سن الشباب، والحياة ممتدة أمامك لتعويض ما نلت من شقاء ومعاناة، وفرصك أكبر للالتقاء بمن توافقه ظروفك ويأنس إليك وتأنسين إليه لكن بشرط واحد هو ألا تحاولي من قريب أو بعيد إفساد حياة خطيبك السابق أو التأثير على استقراره أو البحث عن حل لشقائك على حساب سعادة أسرته الصغيرة وأمانها، فلقد انتهت صفحتك معه إلى غير رجعة ولا أمل في إعادتها مرة أخرى وإنما الأمل كل الأمل في أن تتخلصي أنت أولا من ضعفك مع زوجك.. ومن خوفك من المجهول.. ومن عجزك عن تحمل تبعات الاختيار المؤلم بشجاعة.. ولك بعد ذلك أن تنتظري تعويض السماء ومواساتها للتعساء، وأن تسلمي بأن إطالة العناء لا تعني إلا مزيدا منه وأن تبديد العمر حرصا على بعض متاع الدنيا الذي لا قيمة له أو حرصا على مظهر بيت وأسرة لا وجود لها في الحقيقة لا يعني إلا تبديد الأيام بلا طائل.. وإنما الأحرى بك أن تراجعي الموقف كله بأمانة وموضوعية.. وأن تفكري في قول الشاعر حين قال:

إن كـان منزلتي في الحب عندكـم

ما قـد علمـت فقد ضيعت أيامـي

وأظنك قد «علمت»، فما معنى.. إضاعة الأيام؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طابع الألم!

أنا سيدة في السادسة والثلاثين من عمري، على قدر كبير من الجمال. أبي موظف بإحدى الهيئات الحكومية وأمي ربة بيت، ونحن أربعة أبناء: بنتان وولدان، وكان ترتيبي الثالث بين إخوتي. وحين ولدت زاد دخل أبي مع قدومي إلى الحياة فاعتبرني فألا حسنا وأحبني كثيرا ودللني كثيرا ثم جاء أخي الأصغر فبدأت به سلسلة أحزان هذه الأسرة ومتاعبها. فلقد أصيب وهو في عامه الأول بشلل الأطفال في إحدى ساقيه عقب تعاطيه المصل وبدأت معاناة أمي معه في العلاج الطبيعي على مدى سنوات حتى تحسنت حالة ساقه إلى حد كبير وإن كانت مازالت تؤثر على نفسيته. ثم دخلنا مرحلة الشباب وأتممنا تعليمنا والتحقنا بالوظائف وسافر أخي الأكبر الذي يكبرني بعامين إلى السعودية ليعمل هناك وكان على خلق ودين فسعد كثيرا بسفره إليها ليؤدي العمرة والحج أكثر من مرة، وأداهما فعلا وكرر العمرة.. لكنه لم يكرر الحج لأن شقيقي الممتلئ بالصحة والشباب توفي فجأة بأزمة قلبية مباغتة، وعاد إلينا داخل صندوق ليخيم الحزن على حياتنا جميعا ويتمكن من قلب أمي ويعشش فيه للأبد. وتجاوزنا هذه المحنة القاسية بصعوبة بالغة وبعد فترة بدأ يتقدم لي بعض الشباب لكني كنت أشترط فيمن أتزوجه أن يكون مستريحا من الناحية المادية لكيلا أعاني معه متاعب الحياة بعد أن عانيت ما يكفيني من آلامها، ولم أكن أومن بالحب بل كنت أسخر من خرافات زميلاتي عن حبيب القلب والكفاح مع شريك الحياة لبناء عش المستقبل طوبة طوبة وأرى أن الزواج الصحيح هو زواج العقل الذي تتوافر له كل الإمكانات المريحة ومع ذلك فلقد وقعت في المحظور.. ولا أعرف حتى الآن كيف وقعت وارتبطت عاطفيا بشاب على قدر كبير من الوسامة.. لكنه من أسرة بسيطة وإمكانياته المادية شبه منعدمة.. ورفضت من أجله كل من كانت تتوافر فيهم أحلامي السابقة في زوج المستقبل من شقة لائقة مجهزة بكل شيء إلى سيارة إلى الدخل الكبير، واضطررت لتبرير رفضي إلى أن أصارح أسرتي بارتباطي بهذا الشاب فوافقوا عليه على مضض، لكنه استطاع بعد فترة قصيرة أن يكسبهم إلى صفه بتوددده إليهم والتفاني في خدمتهم وبتحمله لمسؤوليتي من كافة النواحي وحرصه على إرضائي.

وبينما نحن نستعد للزواج السعيد اكتشفنا فجأة مرض أبي بالمرض اللعين وجاء اكتشافه متأخرا جدا وبعد فوات الأوان، ففشلت كل المحاولات لحصاره وعشنا عاما كئيبا نرقبه وهو يعاني ما لا طاقة لبشر به، ثم يرحل إلى جوار ربه مستجيرا به مما عاناه.

وبعد رحيل أبي بفترة تزوجت وقبلت أن أقيم مع زوجي في شقة صغيرة قمت أنا بتجهيزها وبتأثيثها بأثاث مناسب من عائد عملي ومما ورثته عن أبي وبدأت حياتي الزوجية وكلي أمل في أن تنسيني أحزاني، فلم تمض شهور حتى أحسست بالاختلاف الرهيب بين شخصيته التي عرفتها خلال فترة الارتباط الطويلة، وبين شخصيته التي عايشتها لأول مرة في بيت الزوجية، واكتشفت أنه غير قادر على

تحمل المسؤولية على الإطلاق ويريدني موظفة عاملة في الصباح وربة بيت تتحمل مسؤوليته بالكامل من الإدارة إلى كافة نفقات البيت بعد الظهر.. ثم زوجة وحبيبة في المساء وبغير أي مشاركة من جانبه في المسؤولية المادية أو الأدبية عن الأسرة.. وفكرت طويلا فيما واجهته وقررت الرضا بأقداري بعد أن دب في أحشائي دبيب ثمرة الحب، لكني صدمت - وبعد فترة قصيرة جدا من زواجنا - بأنه قد بدأ في خيانتي وفصل من عمله بشركة خاصة بسبب علاقة بينه وبين إحدى الموظفات، ووقعت بيننا مشاجرة حامية بسبب هذه الكارثة ثم بدأنا صفحة جديدة تعهد لي فيها بالإخلاص والاستقامة فلم تمض فترة قصيرة حتى عثرت في جيبه على ما أثار شكوكي وواجهته به وكل ذلك ولم يمض على زواجنا سوى شهور.. وبدأنا صفحة أخرى ثم عندما علم بحملي طلب مني إجهاضه بدعوى أننا لسنا مستعدين ماديا لرعاية طفل، مع أننا لم نكن مدينين لأحد فرفضت الإجهاض خوفا من عقاب الله وخوفا على نفسي.. وعمل بوظيفة حكومية ولم تمض أسابيع حتى علمت بوجود علاقة له بإحدى زميلاته فكثرت مشاجراتنا وبدأت أفقد الأمل في إمكانية إصلاحه ويئست منه وقررت أن أدعه لنفسه يفعل بها ما يشاء وأتفرغ لطفلي الوليد وأركز كل حياتي له، لكنه تمادى في مضايقتي واستفزازي ومحاولة إذلالي كأنما يعاقبني على أني أحببته أربع سنوات ورفضت من أجله كثيرين، ولم أعد أعرف ماذا يريد بالضبط فطلبت منه الطلاق، ورفض بشدة في البداية، ثم تم الانفصال بعد مفاوضات طويلة والألم يعتصرني لفشلي وخروجي من حياتي الزوجية الخائبة بطفل بريء لا ذنب له في اختياري لمن تزوجته، وفكرت في أمري ثم قررت أن أكرس حياتي كلها لهذا الطفل الضحية لكي أعوضه عن أقداره الحزينة ولم أستجب لأية رغبة للزواج مرة ثانية لكيلا أحكم عليه بزوج أم بعد أن أصبحت له زوجة أب بعد فترة ليست طويلة من انفصالي عن أبيه. وتركز أملي في الله في أن يمنحني الصحة والقوة التي تعينني على أن أواصل مشواري في رعاية طفلي وإسعاده حتى أصل به إلى بر الأمان. لكن حتى هذا المطلب البسيط يا سيدي لم يتحقق للأسف فلقد أصبت بعد قليل وفي يوم مشئوم في حادث أنهى مرحلة كاملة من حياتي.. ونقلني إلى مرحلة أخرى مختلفة تماما، أكدت لي أنني ممن قدر عليهم الشقاء من البداية للنهاية. فلقد نتج عن الحادث إصابتي بشلل نصفي أقعدني عن الحركة وأدخلني في متاهات لا آخر لها من العمليات الجراحية، فما أن أنتهي من إحداها. حتى أبدأ الأخرى.. ولا تسلني عما ألاقيه من عذاب تهون إلى جواره كل عذابات الدنيا في هذه العمليات الجراحية، ولا تسلني عما عانيته وأعانيه من الآلام النفسية التي طبعت وجهي بطابع الألم، وطبعت وجه أمي بطابع الحزن المقيم وهي تبكي ابنتها.. وأنا أبكي طفلي الذي عجزت عن رعايته وبدأ يفتقدني.. وبدأت تظهر عليه علامات العصبية وأنا قعيدة مشلولة الجسد والتفكير لا أملك له شيئا بعد أن كنت شعلة من النشاط وتحمل المسؤولية، ولقد أنفقت كل مدخراتي ومدخرات الأسرة جميعها على هذه الجراحات التي لا تنتهي وناءت بها ميزانيتي وكثرت ديوني ومرضي لا يرحم وكل يوم يظهر الجديد.. وتتراكم المشاكل وأجدني وسط كل هذا العناء عاجزة عن إدراك حكمة الله فيما أنا فيه.. هل هو ذنب اقترفته ويعاقبني الله عليه؟ أو يعاقب به طفلي الذي لا

يجد من يرعاه؟.. أم هو ذنب اقترفته أمي ويعاقبها الله عليه بي وبشقائها في خدمتي نفسيا وجسديا؟

إن هذه الأسئلة تدق فوق رأسي ليل نهار فأجبني بصدق يا سيدى.. هل هو اختبار لي أم لأمي أم لطفلي.. وهل كتب على الشقاء من بداية حياتي إلى نهايتها إذ أني أكاد أكون لم أنعم بيوم واحد من الراحة ربها منذ انتهت مرحلة الطفولة اللاهية وحتى الآن. هل عندك جواب مريح عن هذه الأسئلة؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: ليس لدينا من مرشد إلى فهم حكمة الألم الإنساني إلا بعض الإشارات الإلهية في التنزيل العزيز ثم في الحديث الشريف كقوله سبحانه وتعالى: (وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) أو مثل قول الرسول الكريم ﷺ «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل».. ومثل قوله عليه الصلاة والسلام «ما من شوكة تصيب المؤمن إلا يكفر الله بها خطاياه أو يرفع بها درجاته» والبشرى دائما يا سيدتي للصابرين الراضين بأقدارهم العالين فوق أحزانهم. إذ فيما عدا أمثال هذه الإشارات فنحن لا نعرف الكثير ولا يحق لنا أن نتساءل لماذا اختبرنا نحن ولم يختبر الآخرون.. أو لماذا كانت اختباراتنا نحن قاسية واختباراتهم هم هينة، فالله يسأل ولا يُسأل هو جل شأنه عما يفعل، ونحن في النهاية نتصور غالبا أن حياة الآخرين خالية من الآلام في نفس الوقت الذي يعتقدون هم فيه أن حياتهم حافلة بها وحياتنا نحن مبرأة منها، وهكذا يتبادل الجميع غالبا حسن الظن بحياة الآخرين وسوء الظن بحياتهم. ولو أجلنا النظر حولنا لرأينا من الآلام ما قد يقنعنا بأننا لسنا وحدنا «أحباء الأقدار»، الذين تختصهم وحدهم بمنحها واختباراتها، ولو كان من حقنا فعلا أن نسأل لماذا كابدنا نحن الآلام في حياتنا، ومضت حياة الآخرين هينة لينة.. لوجب علينا أن نتساءل مثلا في نفس الوقت لماذا راح من راح من الضحايا الأبرياء في نكبة الزلزال الأخير.. ونجونا نحن مع أننا كابدنا معهم نفس اللحظات الرهيبة، ولوجب علينا أن نسأل أيضا وماذا جنى الأطفال الأبرياء الذين لم يقترفوا ذنبا ولم تدنسهم الدنيا بعد بدناياها حتى يلقوا هذا المصير المؤلم ولو فعلنا وأجهدتنا الأحزان لما وجدنا لنا من نجاة في النهاية سوى في الإيمان بالله والتسليم بمشيئته والرضا بقضائه وقدره، والوقوف عند حدود ما يعلو على أفهامنا من تصاريفه.

ولقد روى عن الرسول الكريم ﷺ قوله «يقول الله تعالى: من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليخرج من تحت سمائي وليختر ربا سواي» .

فأين النجاة لنا في بحر الأحزان إلا في قارب الصبر على ما كرهنا والأمل في أن يرفع لنا درجاتنا بما لقينا وما صبرنا.

لا نجاة لنا إلا في ذلك يا سيدتي.. وآلام الحياة ليس من الضروري أن تكون عقابا دنيويا على ذنوب أو آثام اقترفها المبتلون.. وإلا لما كان الأنبياء هم أشد الناس

بلاء.. وأكثرهم كروبا وآلاما.. ومن واجبنا دائما أن نتجاوز مرحلة الوقوف أمام السؤال الأبدي.. لماذا حدث ما حدث؟ إلى التفكير فيما نستطيع أن نفعله لكي نخفف عنا خسائر ما قد حدث فعلا ولا نستطيع تغييره الآن لكننا نستطيع بكل تأكيد أن نخفف من آثاره علينا وأن نتواءم معه.. ونتطلع إلى ما وراءه من الألطاف الخفية التي تجزينا عما لقينا خير الجزاء. فاستعيذي بكلمات الله التامة يا سيدتي من وساوس الصدور وتطلعي للحياة بقلب يخفق بالأمل الدائم في رحمة الله وتأكدي من أن فرصتك في الحياة لم تضع ولن تضيع ومن أن المستقبل سوف يحمل لك ما يعوضك عما لقيت من آلام بإذن الله وبقدر البلاء يكون الجزاء دائما في الدنيا والآخرة وتفضلي بالاتصال بي مساء الاثنين القادم لعلي أستطيع لك شيئا يخفف عنك بعض العناء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بداية القصة!

أنا من قارئات بريدك منذ سنوات طويلة وقد قرأت رسالة «الحل الموفق» التي تشكو فيها أم معذبة من ابنتها الوحيدة الجميلة ذات الأعوام الثانية والعشرين التي تحب زميلا لها متزوجا ولديه أبناء، وفكر في التقدم لخطبتها لكنها أبت ذلك إشفاقا عليه من رفض أبيها له، وكان الحل - «الموفق» الذي توصلا إليه هو استمرار الحال بينهما على ما هو عليه.. هو متزوج وعلى خلاف مع زوجته كما يزعم، وهي لن تتزوج أحدا والمقابلات مستمرة بلا نهاية ولا أمل في حل آخر.. وطلبت منك الأم الحزينة أن تنصح ابنتها وتبصرها بحقيقة ما تفعل وبما هي مقدمة عليه، فرددت عليها ردا حكيما مفاده أنك تنصح الابنة أن تتعظ بتجارب الأخريات اللاتي اعتمدن على الحب وحده في اختيار شريك الحياة، وتجاهلن العوامل الأخرى الكثيرة التي يقوم عليها بنيان الزواج ومن أهمها ألا يتجاهل مشروع الزواج المشاكل المحيطة به من كل جانب، فتصبح قنابل موقوتة تنفجر في أي لحظة، ومنها أيضا ألا يبدأ الإنسان طريقه للسعادة بمشكلة لم تجد حلا نهائيا لها فترشحه للشقاء والمعاناة بعد قليل.. وقلت لها في ردك أن أسرة زميلها المتزوج والأب ستظل عامل جذب أساسيا يجذبه كقطب المغناطيس إليها بعد الزواج.. وينذرها هي بالمتاعب خاصة حين تهدأ العواطف.. ويفشل الزوج في احتمال عناء انقسام الشخصية بين حياته الجديدة وواجبه ومسؤولياته العائلية والأدبية تجاه أولاده وزوجته الأولى. فيعيدها إلى عصمته سرا إن كان قد انفصل عنها.. أو يخون عهده مع فتاة القلب التي تزوجها وينفصل عنها ويعود لحياته الأولى نادما. إلى آخر ما قلت لها.

ومع احترامي لهذا الرد الحكيم، فإني أنصح هذه الفتاة بألا تستجيب إلى حرف واحد منه وألا تعمل به! لماذا؟ هذا ما سوف تشرحه لك تجربتي الشخصية بعد قليل .

فأنا سيدة في الثالثة والثلاثين من عمري، جميلة بإجماع الآراء، وقد نشأت في أسرة متماسكة ميسورة وتعلمت في مدرسة أجنبية راقية وتفوقت في دراستي فرشحتني المدرسة بعد الثانوية العامة لمنحة دراسية بإحدى الجامعات البريطانية. وسافرت وأنهيت دراستي هناك في فترة قياسية بتفوق، وعدت فعملت مدرسة في نفس المدرسة التي تخرجت فيها، وبمعهد للغات الأجنبية إلى جوارها ونجحت في عملي، وذات يوم جاء رجل وسيم جذاب ليسأل عن حال ابنته التلميذة من الناحية الدراسية، وكان لطيفا وشكرني على اهتمامي بابنته.. وأثنى على نطقي السليم للغة الانجليزية الذي انعكس على نطق ابنته وانصرف تاركا فيّ أثرا طيبا. ومنذ ذلك اليوم بدأ يتردد على المدرسة بكثرة بحجة السؤال عن ابنته ويطيل الحديث معي، وانتهت اللقاءات بغير تفاصيل طويلة إلى أن وجدت نفسي أعيش في قصة حب مع رجل متزوج ولديه أبناء بغير مقاومة من جانبي، وكان دائما يشكو من زوجته ويقول إنها لا تهتم بشيء إلا بنفسها وأنه يفتقد معها الحب والحنان، وأنه كان سينفصل عنها سواء التقى بي أو لم يلتق. الخ وصدقته في كل

ما قال، وأشفقت عليه من تعاسته واتفقنا على أن يتقدم إلى أسرتي، وأبلغت أمي بأنه سوف يجيء ليخطبني وبأني موافقة عليه.. ولم أشر إلى أنه متزوج ولديه أبناء، ليس رغبة في إخفاء الأمر لأنه لا يمكن إخفاؤه.. وإنما لأني كنت أعتبره أمرا ليس جديرا بالاهتمام، وإن الأمر الأهم هو أن أرتبط بالإنسان الذي أحببته! وجاء في موعده وذهل أبي وإخوتي حين علموا أنه متزوج وأب ورفضه أبي بغير تردد. فانهرت باكية وسألت أبي وأمي من بين دموعي: هل تريدان تعاستي؟.. فأجابني أبي بأن ما أنا مقدمة عليه هو التعاسة الحقيقية، أما هما فلا يريدان إلا سعادتي وسمعت من أبي كلاما كثيرا كله حكمة ومنطق كردك على فتاة «الحل الموفق» وسمعت من أمي كل الاحتمالات التي سأتعرض لها إذا تزوجت من أحببته وهي شبيهة بنفس الاحتمالات التي عددتها أنت في ردك على الرسالة وأنت تحاول إقناع الفتاة بأن تتبصر طريقها، لكني لم أقتنع بحرف واحد من كل ما قيل لي خاصة أنني كنت كلما قابلته وحكيت له عن حجة من حججهما للرفض بادر بدحضها على الفور وتذليل العقبة التي يشيران إليها.

وكان أبلغ ما قاله لي أنه سوف يطلق زوجته، وسوف نعيش معا بعيدا عن الجميع وسوف ينقل حياتنا إلى دولة أخرى لعمله الخاص فيها مصالح..

وسيدير شريكه العمل في مصر.. ولم تجد أسرتي بداً من الموافقة على زواجي منه على مضض بعد أن عرفوا أني لم أنقطع عن مقابلته وتزوجنا وكل من حولي حزين لزواجي هذا، وأنا وحدي التي في قمة السعادة والابتهاج ولم أستطع مواصلة عملي في المدرسة بعد أن كثرت الهمسات والأقاويل حولنا فتركتها وتركت المعهد وسافرنا بعد قليل إلى الدولة الأخرى، ورشفت رحيق السعادة التي حلمت بها ووجدتها حقيقة وليست أوهاما ستختفي بعد قليل وتطل المشاكل حين يتبدد ذهول القلب، الذي يعمي الأحباء عن المشاكل الكامنة تحت السطح كما حاولت أنت أن تقنع فتاة «الحل الموفق» في ردك، وكما حاولت أمي وأبى أن يحذراني أنا أيضا..

إلى أن تلقى زوجي خطابا من أولاده، وكان أول خطاب يصله منهم بعد فترة من القطيعة ففرح به جدا وقرأه مرات ومرات ثم جلس شاردا فتركته لنفسه حتى لا يحس بأني لاحظت شيئا، وبعد ذلك بدأت خطابات الأبناء تصل بانتظام.. وبدأ حديثه يتحول تدريجيا من حديث الحب والشوق إلى الحديث عنهم حتى أصبحوا محور حديثه الدائم وبدأت أدرك في هذا الوقت عمق ارتباطه بهم، وفزعت حين أخطأ ذات مرة وناداني باسم زوجته الأولى، لكني هونت الأمر على نفسي بأنها زلة لسان عابرة.. لكن الزلة تكررت وفى مناسبات أخرى جرحت إحساسي كامرأة، ثم جاء شريكه في زيارة للبلد الذي نقيم فيه، وانفرد بزوجي بعد الغداء في حديث طويل، وبعد أسبوع أبلغني زوجي أنه سيعود مع شريكه إلى مصر لإنهاء بعض الأعمال وسيعود بعد فترة قصيرة، وسافرا معا وغاب شهرا كاملا قبل أن يتصل بي ليبلغني بموعد عودته، وعاد فاستقبلته في المطار وتلقيته بلهفة صاعقة..

ورغم ذلك فقد أحسست بشيء غريب في مشاعره، وبأن شوقه لي مفتعل وليس نابعا من القلب، وفي اليوم التالي تلقيت خطابا من أختي نزل عليّ كالصاعقة.. فقد أبلغتني فيه أن زوجي الحبيب الذي تعاهدنا معا على أن نعيش قصة حب بلا بداية ولا نهاية إلى آخر العمر، قد أعاد زوجته إليه وأمضى فترة وجوده في مصر كلها مع زوجته وبين أولاده وأن شريكه كان واسطة الصلح بينهما.

وزلزلتني الصدمة القاسية وواجهته بما عرفت فإذا به يقول بهدوء إن سبب العودة هو مسؤوليته التي لا يستطيع أن يتخلى عنها تجاه أولاده.

ولم يقل أنه أيضا «حبه» لزوجته الأولى مع أني كنت أحس بذلك في قلبي.

وأغلقت باب الحجرة ورائي وانهمرت في بكاء طويل وأنا أتساءل بلا صوت:

ماذا فعلت بنفسي.. وأين الحب والأحلام التي حلمنا بها وتحدينا الجميع لتحقيقها.. هل كانت وهما وسرابا.. أم كانت من «ذهول القلب»، الذي تتحدث عنه والذهول لا يدوم وبعده يعود العقل فيصحح الأخطاء.. وأنا كنت خطأ من هذه الأخطاء في حياته؟

ووقعت في حيرة شديدة.. هل أبقى وأتحمل الأمر الواقع وأتحمل نتيجة خطئي، أم أعود إلى أهلي وقد خسرت كل شيء؟ ولم أجرؤ على العودة وبقيت لم أغادر البيت لكن البيت نفسه هو الذي تغير فيه كل شيء، فقد تغير زوجي إلى النقيض وأصبح يتحاشى النظر إليّ والكلام معي ويقضي معظم وقته في مكتبه أو في مقابلات العمل وكلما عاتبته على انشغاله عني اعتذر بكثرة العمل. ثم سافر مرة أخرى وتركني للوحدة والمعاناة وعلمت بالمصادفة أنه يصفي أعماله في هذا البلد، فأدركت أنه يصفي أيضا حبنا وحياتنا، ولم أستطع الاحتمال أكثر من ذلك وعدت لمصر ووجدت أهلي في انتظاري ورجعت معهم إلى بيت الأسرة، ورويت لأمي كل ما عانيته وفوجئت بأنها لم تندهش لشيء، لأنها كما قالت لي كانت تتوقع لي هذه النهاية وتجاهل الجميع الأمر ولم يجرحوا مشاعري بالسؤال عن زوجي.. وبعد أسبوعين لم يسأل عني خلالها شريك الأحلام والوعود، أحسست ببعض الأعراض المرضية فتوجهت للطبيب وأجريت بعض التحاليل وصدمت صدمة قاسية حين جاءت نتيجتها تؤكد أني حامل، بل لا يتصور أحد تعاستي حين علمت بذلك، وقبل أن أتمكن من الاتصال بزوجي لأبلغه بالنبأ «السعيد».. سبقني هو بإرسال ورقة الطلاق إليّ فنزلت المفاجأة على رأسي كالمطرقة.. ولم أفق منها إلا في المستشفى، وأمي تبكي إلى جواري والأطباء يقولون لي أني كدت أفقد الجنين لولا أنهم أسعفوني.. وليتهم ما أسعفوني. وهونت أمي الأمر عليّ وطالبتني بالصبر على نصيبي وصبرت على ما اخترته لنفسي وما فعلته بها، حتى بلغ ابني الوحيد الآن أول مراحله الدراسية ودفع هو الآخر معي ثمن خطئي ولكن دون ذنب جناه، فلقد حرم من وجود الأب إلى جواره ومن الحياة الأسرية الطبيعية وأحسست بمسؤوليتي عنه وبأنه قد أصبح كل حياتي فرفضت ومازلت أرفض كل من يتقدمون للزواج مني ويكفيه ما فعلته به.. فهل أجيء له أيضا بزوج أم؟

وبعد أن كنت محبوبة من كل الصديقات وكن يفخرن بصداقتي، تباعدت عني كل الصديقات المتزوجات وأصبحت غير مرغوبة منهن حتى في محيط الأهل ولهن العذر في ذلك، فلي سابقة في خطف الأزواج.. وساءت سمعتي بينهن للأسف فاضطررت للابتعاد عن الجميع وسافرت مع شقيقي وابني للعمل في إحدى الدول العربية إلى أن ينسى الآخرون قصتي. وبعد فوات الأوان أدركت قيمة كل حرف قاله لي أبي وهو يحاول أن يثنيني عن الارتباط بمن أحببته وأردت زواجه ضد العقل والمنطق.. بل وعرفت أيضا وجه الحكمة في حديثه لي عندما شكوت من تعاستي ووحدتي وسوء ظن الصديقات بي وتباعد الأهل فقال لي: وماذا تنتظر من تسلب زوجة أخرى استقرار حياتها وتسلب أولادا أبرياء أباهم وحياتهم الأسرية الطبيعية؟.. هل تنتظر من المجتمع «جائزة» على فعلتها؟ إن هذه هي الجائزة الوحيدة التي تستحقها من تفعل ما فعلت أنت.. فاصبري على ما تلاقين ولا تلومي أحدا!

فانصح تلك الفتاة بأن تنجو بنفسها وبحياتها من هذا المصير لأن استمرار علاقتها بهذا الرجل دون زواج سيحكم عليها بسوء السمعة وسيغلق أبواب قلبها دون من تستحقه ويستحقها، وسوف يتباعد عنها الشباب وتحكم على نفسها بالوحدة إلى نهاية العمر، أما إن تزوجته فسوف تتعلم الدرس الذي تعلمته أنا بهذه التجربة المريرة في حياتي، وسوف تدفع نفس الثمن وما كانت نصيحتي لها في أول الرسالة بألا تستجيب لرأيك الحكيم، إلا سخرية مريرة من نفسي ومن حالي في بداية القصة، وهي دائما نفس البداية لكل قصة مشابهة حين كان الجميع يرددون على مسامعي صوت الحكمة والخبرة فلا يجد طريقا إلى عقلي المغلق دون كل شيء إلا حديث الحب في غمرة «ذهول القلب» الذي يعمي البصيرة عن حقائق الحياة فامض في طريقك يا سيدي وواصل نصح الغافلات وتحذير وإدانة سارقات الأزواج وسارقي الزوجات، وهادمي سعادة الأبناء واستقرارهم كما تفعل دائما، لعل الجميع ينتبهون ويتجنبون أخطاء السابقين.. ويتعلمون الحكمة مرة في الوقت المناسب وليس مثلي بعد فوات الأوان!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: في كتاب «كليلة ودمنة» عبارة حكيمة تقول: **«أنفعُ العقل المعرفة بما يكون وما لا يكون.. مع طيب النفس وحسن الانصراف عما لا سبيل إليه»، ومأساة الإنسان تكمن في أحيان كثيرة في عجزه عن حسن الانصراف عما لا سبيل له إليه أو عما يتصادم مع أحكام العقل وموج الأعراف والقيم السائدة في مجتمعه فيتعامى عن تحذيرات الآخرين المخلصة.. ويصر على نطح الصخر والسباحة ضد التيار ويبرر لنفسه دائما إقدامه على نفس الطريق الذي آب منه الآخرون نادمين بأن تجربته هو «تختلف» عن تجاربهم، وقصته لامثيل لها في الأولين، وهذا ما يترجمه تماما «حالك» حين كان الجميع يرون «تحت الرماد وميض نار»، ويرددون على مسامعك نداء الحكمة فلا يجد طريقه**

إلى عقلك المغلق إلا على نداء القلب.. وهذا أيضا ما يترجمه موقف فتاة و الحل الموفق، من النداءات المماثلة.

إن رسالتك يا سيدتي تقول الكثير وليس عندي ما أضيفه إليها بعد كل ما قلته في تعليقي السابق على رسالة الحل الموفق، سوى أني أدعو بطلتها إلى تأمل تجربتك هذه طويلا والتفكر فيها طويلا مع مراجعة النفس وعدم الاستنامة إلى الوهم المخدر المريح «بأننا شيء مختلف عن الآخرين»، فالحق الذي يتعامى عنه البعض هو أن الجميع أمام قانون الحياة سواء وأن الاستثناء من القاعدة حتى وإن كثرت أمثلته لا يقاس عليه.

أما أنت يا سيدتي فكفاك ما نلت حتى الآن من عناء ومن «جائزة» المجتمع لمن يتحدون قيمه السائدة.. وتوقفي عن جلد نفسك إلى مالانهاية بخطئك الوحيد. فلقد أديت الضريبة كاملة عنه وآن لك أن تتفتحي من جديد للحياة وتتخلصي من ذباب الندم ولسع الإحساس بالذنب تجاه ابنك الوحيد، وواجهي الدنيا بنفسية طبيعية واستعداد سليم لاستقبال مؤثرات الحياة والتفاعل معها، فأنت مازلت في سن الشباب ولاشك أن هناك وسيلة ما للتفاهم مع زوجك السابق على حل يوفق بين أمومتك ورعايتك لطفلك، وبين حقك في الحياة الطبيعية بعد حين، وليس من الحكمة أن تحكمي على نفسك بالوحدة الأبدية فتضيع فرصك الملائمة في الاستقرار مرة أخرى وتتلفتين حولك بعد حين فلا تجدين في يدك إلا قبض الريح وحصاد الهشيم.

لقد رفضت منذ سنوات نداء العقل وعرفت بالتجربة قيمته فأرجو ألا ترفضيه مرة أخرى الآن.. فلا تعرفي له قدره مرة أخرى إلا بعد فوات الأوان..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الـتـفكير الطويل!

أنا سيدة عمري 36 سنة، طلقت منذ أربع سنوات من زوجي ووالد أولادي الثلاثة بعد عدة مشاحنات ومشاكل لا حصر لها وبعد زواج دام عشر سنوات تحملت خلالها غيرته الشديدة التي تصل إلى حد الشك، وتحملت عدم قدرته على إيجاد شقة لنا كل هذه السنوات الطويلة وتنقلت خلالها بين الشقق المفروشة، كما تحملت أيضا عصبيته وتهديده الدائم لي بالطلاق عند كل خلاف، وقد تحملت كل ذلك ولم أشك منه، أو أحاسبه عليه باعترافه هو نفسه، لكن ما لم أتحمله هو إحساسه المركب بالتفاوت في المستوى الاجتماعي بيني وبينه وانعكاس ذلك على تصرفاته معي، وقد كان ما دفعني للتجاوز عن هذا التفاوت بيننا هو أنه أقنعني أن منهاجه في الحياة هو كتاب الله وسنة رسوله، واتضح لي بعد أن عاشرته أنه يتخير من هذا المنهاج ما هو في صالحه، ومن القانون ما هو في صالحه، ومن العرف ما هو في صالحه ويعيش معي بهذا المنهاج وكنت قد أحببته فتغاضيت عن كل ذلك.. لكن إحساسه بالتفاوت الاجتماعي بيننا جعله لا يفلت فرصة لكي يهينني فيها ويهين عائلتي بل حتى أبي الراحل الذي لم يره إلا وينتهزها لكي يقنعني ويقنع نفسه بأنه إذا كان أهلي أفضل منه اجتماعيا فهو أفضل منهم في الدين والخلق وبعد سبع سنوات طويلة من تحمل هذه الإهانات صابرة وصامتة وبلا رد من جانبي بدأت أرد عليه الإهانة بمثلها، خاصة أن عائلته لا تزيد في ناحية الدين والخلق عن عائلتي فكان يحاسبني على ردي عليه ولا يحاسب نفسه على بدئه لي بالإهانة بدعوى أن الزوجة ينبغي ألا ترد على زوجها.

وأعترف لك أني وجهت إليه كلاما لم أتصور يوما ما في حياتي أني سأوجهه إليه أو لأي إنسان آخر، لكن بنفس الصدق الذي أقول لك به ذلك، أقول لك أيضا أني لم أبدأه مرة واحدة بالهجوم وأن كل ذلك قد جاء ردا على كلامه هو وهكذا انتهى الأمر بيني وبينه بالطلاق منذ أربع سنوات، وعدت إلى بيت أسرتي بأطفالي الثلاثة. وقد تعجب وربما تتهمني بالعته إذا قلت لك أني أمضيت هذه السنوات الأربع وأنا أفكر بصفة شبه دائمة في أمر واحد هو: من منا المخطئ ومن منا المصيب فيما حدث؟ وكلما أرهقني التفكير في ذلك وطردت هذا السؤال المرهق من ذهني لا يلبث أن يعود ليلح عليّ بعد بضعة أيام ويعكر صفو حياتي ويؤرقني ويفقدني القدرة على التعامل مع أطفالي وهم الضحية الحقيقية لما حدث بيننا، أما سبب تشتتي وحيرتي الشديدة في هذا الأمر فهو أن زوجي السابق يصر على أني كنت سليطة اللسان وغير عاقلة حتى أصابني تكرار هذا الكلام بالحيرة الشديدة.

والآن يا سيدي فهو يعرض الصلح ولكن بشرط أن أذهب أنا إليه معتذرة عن لساني السليط وبعدها يعفو عني ويردني إلى عصمته.

وأنا لا أستكبر على الاعتراف بخطئي إذا كنت مخطئة حقا، لهذا فإني أسألك هل كان معي عذري حين رددت عليه بتلك العبارة إياها في الواقعة التي رويتها لك ورجوتك ألا تنشرها حرصا على مشاعره.. أم أنني فعلا سليطة اللسان كما يقول زوجي السابق؟ إن كل رجائي لك هو ألا تتحامل عليّ بدافع حرصك المعروف على

لم شمل الأسرة وإعفاء الأطفال من التمزق بيننا، لأنني وإن كنت أقدر لك دوافعك الشريفة هذه إلا أنني أؤمن أيضا بأن ما بني على خطأ فهو خطأ، وإذا تم رجوعي إليه بأسلوب خاطئ فسيأتي يوم طلاقنا الثاني لا محالة، أما اذا كنت مخطئة حقا فانصحني قبل أن أفقد عقلي من التفكير المتواصل وأجبني عن السؤال الذي يؤرقني الى حد لا تتخيله وهو: هل إذا رددت عليه بعض الإهانة وليس كلها في ثورة الغضب فإني أكون بذلك سيئة الأدب؟ إنني لا أكذبك القول في أني مازلت أحبه رغم غضبي من أفعاله ورغم حرماني من حبه بسبب ألفاظه وإهاناته لي باليد واللسان وأنا زوجته، لكني وصلت إلى حد من البلبلة وتضارب الآراء يجعلني أبكي أكثر أوقاتي أحيانا من الغيظ من إهاناته السابقة لي وأحيانا من الندم على ردي عليه فأرجو أن تنقذني من حيرتي وتفيدني برأيك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: رأيي يا سيدتي الذي أسأل عنه أمام الله قبل أن أسال عنه أمام البشر هو أن تراشق الزوجين بالسباب الجارح الذي يمس الأهل والحرمات خطيئة يتحمل الاثنان مسؤوليتها بنفس القدر بغض النظر عمن كان البادئ منها بالتجريح ومن كان المجيب، لأنه إذا أخطأ أحدهما لابد أن يترفع الآخر عن الرد عليه بنفسه أسلوبه ويستطيع أن يعاقبه على خطئه بأكثر من طريقة ليس من بينها أبدا مبادلته سباب السفهاء.. هذا هو رأيي تماما كما أن رأى أن إهانة الزوج لزوجته وأسرتها وطعنه عليها في دينها مهما كانت الأسباب والدوافع ليس أبدا من حسن المعاشرة أو حسن الخلق أو من الدين وأن أفضل ما تفعله الزوجة في مثل هذه الحالة هو أن تحذره من العودة لهذا الإثم وتنبه بحزم إلى خطورته ومساسه بها وبكرامتها وإلى تعارضه مع القيم الدينية والخلقية ومع «المنهاج» الذي أمرنا به الله ورسوله في معاملة الأهل، فإن عاد لفعلته غاضبته لفترة قصيرة.. فإن تمادى فيها يفعل شكته لحكم عدل من أهله هو وليس من أهلها حتى لا تجعل من أهلها طرفا في نزاع يمس كرامتهم ومشاعرهم وقد يخرجهم عن حيادهم المطلوب في الحكم فإن لم تفلح كل هذه الوسائل معه وأصر على خطئه وخطيئته جاز لها أن تختار بين كرامتها وبين مصلحة أبنائها، فإذا اختارت مصلحة أبنائها وواصلت كفاحها معه لتغييره كانت أما بارة بأبنائها ومضحية من أجلهم بشرط أن تنزه نفسها عن التراشق معه بالسباب حرصا على معنويات الأطفال وأخلاقياتهم وأن تكتفي بمجانبته إذا أخطأ وتفادي أي احتكاك معه يتيح فرصة تكرار الإهانة، أما إذا اختارت كرامتها وحدها وفضلتها على كل الاعتبارات فلها أن تفعل لكنها لا تكون في مثل هذه الحالة أما مضحية بالقدر الكافي من أجل أبنائها ولكل إنسان أن يختار ما يراه ملائما له بلا لوم عليه فيما اختار لكن فضل الأم المضحية أكبر بكل تأكيد من غير المضحية، وفضل الزوج الذي يحفظ على زوجته كرامتها ويعفيها من جراحات اللسان أكبر ممن يؤذي زوجته في أهلها ونفسها، وإساءته لزوجته عليه هو قبل أن تكون عليها لأنه إنما ينال من نفسه وعرضه قبل أن ينال من أي إنسان آخر، وهي أكبر دليل على الغباء البشري لأنه ينال بها ممن اختارها أما لأبنائه فإن كانت وأهلها كما قال فهو سفيه لأنه اختارها

لهم بملء ارادته ويتمسك بعشرتها ويواصل الحياة معها وإن كانت غير ذلك فهو ظالم يرمي زوجته وأهلها بالباطل وجزاء من يرمي الآخرين بالباطل معروف. والعبارة التي رددت بها عليه وتسألينني عنها يا سيدتي للحق أقسى من العبارة السخيفة التي بادرك هو بها ولم يكن هناك أي مبرر من الأصل لو كان حقا يتبع منهاج الله ورسوله لكن كلاكما مخطىء في حق صاحبه.. البادئ والمجيب على السواء وإذا كان البادئ أظلم فالمجيب إذا كان زوجة أو زوجا أو ذا رحم ظالم أيضا لأنه كان يستطيع أن ينزه نفسه عن الرد على صاحبه وأن يشعره بخطئه بغير أن ينجرف إلى استخدام أسلوبه الشائن في الحديث والتجريح، وسندي في ذلك هو رأي الإمام الشافعي الذي رأى رجلا يسفه على رجل من أهل العلم فالتفت لأصحابه وقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به فالمستمع شريك القائل وأن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في إنائه ويحرص على أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفيه عليه لشقي بها قائلها!

وعلى هذا الأساس فإن البدء بالإهانة خطأ فاحش وردها بنفس الطريقة خطأ لا يقل فحشا وخيركما من يبدأ بالاعتذار لصاحبه عن اقتناع صادق بأن ما وجهه إليه من إهانات ما كان له أن يجرحه به.

وسعادة ثلاثة أطفال وصلاح أمرهم ونشأتهم بين أبوين يرعيان حدود الله في حياتهما، أمانة كبرى سوف تسألان عنها معا أمام الله سبحانه وتعالى وأمام هؤلاء الأبناء أنفسهم حين يشبون عن الطوق ويسألون كلا منكما ما هذه المبالغة في الإحساس بالكرامة وما هذا العناد الغبي الذي قضى علينا بالتمزق بينكما طوال العمر ولماذا لم يتنازل أحدكما عن بعض حقه ويحسن عشرة صاحبه لنعيش معكما حياة طبيعية وأنتما لم تستشيرانا في اختيار أبوينا قبل إنجابنا؟

وسيكون الحساب عسيرا بكل تأكيد يا سيدتي فسارعا معا إلى تفاديه قبل أن يجيء وقت الحساب ولو أتيح لي أن ألتقي بزوجك لنصحته بإخلاص بأن يذهب هو إليك في بيتك فيكون ذهابه إليك اعتذارا ضمنيا عن حياته الماضية معك..

ثم تبدئينه بالاعتذار فيرد على اعتذارك باعتذار مماثل ويبدأ معك صفحة جديدة بلا إهانات ولا تجريح وخاصة أن كلا منكما فيما أحس يحب الآخر لكنه لا يحسن التعبير له عما يكنه له من حب وبعد ذلك أليس عجيبا أن يكون الإنسان قادرا على أن يحسن عشرة صديق يمضي معه رحلة العمر الطويل بغير أن يتبادلا إهانة واحدة لأن كلا منهما يتجاوز عن انفلاتات أعصاب الآخر إذا انفلتت ثم يأبى ويستكبر في نفس الوقت أن يتجاوز عن أتفه انفلات إذا جاء من جانب الزوجة أو الزوج؟.. أليس هذا دليلا آخر على قمة الغباء البشري! والزوج والزوجة أحق بمثل هذا التسامح ومثل هذا التعالي على الصغائر؟ إن مقاساة الأهل والولد أي تحملهم والسعي في إصلاحهم والصبر على هفواتهم بمنزلة الجهاد في سبيل الله كما يقول الإمام أبو حامد الغزالي.

فلماذا لا تجاهدان معا لإصلاح كل منكما الآخر والصبر عليه وإقناعه بالحسنى بعدم البدء بالإهانة أو الرد عليها وحق كل منكما - مقدمًا - عليّ أنا؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

التفكير السعيد

أنا السيدة التي نشرت رسالتها منذ أسابيع تحت عنوان «التفكير الطويل»، وقد كتبت إليك أسألك عن مدى خطئي في ردي على إهانة زوجي بإهانة مماثلة، ورويت لك أنني تحملت في البداية إهاناته لي ولأسرتي ثم بدأت أرد عليه بعنف شديد، وانتهى أمرنا إلى الطلاق وظللت عامين طويلين وأنا أفكر هل كنت المخطئة والمسؤولة عن فشل الزواج وتشريد أطفالنا الثلاثة أم هو ولم أتوصل إلى قرار مريح ثم أبدى زوجي السابق استعداده للعودة بشرط أن أعتذر له أولا. فطلبت رأيك ورجوتك ألا تتحامل عليّ لأعترف بخطئي وأعتذر لكي أعود لزوجي لمجرد الحرص على سعادة الأبناء لأن الزواج الذي يبنى على الخطأ في رأيي لن يكون مصيره إلا الانهيار مرة أخرى وقد رددت عليّ، ونصحت مطلقي بأن يسعى هو إليّ فيكون سعيه إلى اعتذارا ضمنيا فأبادره أنا بالاعتذار الصريح بعد أن حكمت بأن ردي على إهانته الأخيرة قبل الطلاق كان أقسى مما قاله لي، ويبدو يا سيدي أن كلماتك كان لها فعل السحر معه، فقد فوجئت به بعد نشر رسالتي بأيام في مقر عملي، ورأيته يتجه في جدية ناحيتي ثم يطلب مقابلتي بعد انتهاء العمل ووافقت وأنا أتلهف على معرفة ما يريده مني، ومرت ساعات العمل بطيئة ثم خرجت إليه فبادرني بالسؤال في جدية تامة: هل أنت كاتبة تلك الرسالة؟ فلم أنكر ذلك رغم تخوفي من أن يكون سؤاله عنها بداية لمشاجرة جديدة. ففوجئت به يبتسم الابتسامة التي لم أرها منذ طلاقنا ثم يقول لي بارتياح: إذن فأنت مازلت تحبينني، وبدأ عتاب طويل بيننا في كل شيء حتى فيما اتهمته به في رسالتي إليك وأخرج كل منا ما في صدره تجاه الآخر، وروى لي أسباب تأخره في التفكير في إعادة جمع شملنا من جديد، فقال لي أنه بعد طلاقنا بعام توفى والده وورث عنه بضعة آلاف من الجنيهات فاستطاع الحصول على شقة صغيرة ثم تعرف على فتاة وخطبها، وأدرك كما قال منذ هذا الوقت أصالة معدني وجوهري وعرف كيف كنت أصبر على طباعه وثوراته إلى أن فاض بي الكيل.. بل وكيف كنت أصبر حتى على مضايقات والدته لي أثناء إقامتنا لديها في فترات الانتقال من شقة مفروشة لأخرى، فلقد اكتشف أنه قد خطب فتاة متغطرسة أساءت الأدب معه ومع أمه ورفضت السكن في شقته الجديدة الضيقة، وتمردت على كل ما قدمه لها والذي لم يستطع أن يقدم لي بعضه لضيق ذات يده حين كنا معا. ففسخ خطبتها في النهاية غير نادم على ما يكلفه ذلك، وقرر بعدها أن يعود لمن كان يعتبرها سليطة اللسان وطلب من صديقتي وهي زميلته في العمل التي تعرفت عليه أول مرة في حفل زفافها وكانت تقوم بدور حمامة السلام بيننا أن أعتذر له أنا أولا وإلا فلن يعود، وفسر لي ذلك بأنه كان متخوفا من رد فعلي تجاهه فلما قرأ رسالتي وقرأ اعترافي فيها بحبي له قرر أن يقدم على الخطوة التي كان يتهيبها وجاءني!

وسمعت اعترافه واحترمت صراحته وشعرت بأن إعزازي له قادر على أن يجعلني أصفح عنه، واعترف كل منا للآخر بأنه يتوق إلى الأيام الحلوة القديمة التي كانت بيننا والتقينا بعد ذلك عدة مرات ثم أخبرت أمي برغبته في العودة

فتخوفت من نواياه في البداية. ثم جاء أعمامي الثلاثة وأخبروني بأن مطلقي اتصل بأكبرهم طالبا عودة المياه إلى مجاريها وسألوني عن رأيي فلذت بالصمت وفهم أعمامي أنني موافقة فثاروا جميعا وانهالوا عليّ بالاتهامات والتجريح لتفكيري في العودة لمن جرح كرامتي وأهانني الخ. فتلقيت كل ذلك صامتة ثم قلت لهم إن جرحي بإهانات زوجي لي لا يحس به أحد أكثر مني لكنى قبل أن أكتفي بالثورة لكرامتي ينبغي أن أتذكر أيضا جروحه التي تسببت له فيها بإهاناتي أنا أيضا له.. كما أن أطفالنا وعشرة السنين بيننا. تجعل قبولي الرجوع إليه حقا مشروعا لي.

ولم يضايقني هجوم أعمامي لأني شعرت منه بأهميتي عندهم وبحرصهم على، ولقد اعتدت طوال حياتي خوفهم عليّ وعلى أمي وأخي بعد وفاة أبي رحمة الله عليه، وانتهينا من كل ذلك إلى الاتفاق على أن يقدم لي مطلقي مهرا كمهر أي عروس أخرى وشبكة جديدة تليق بي، وهدأت النفوس بعد أن لمس أعمامي صدق ندمه واعتذاره الذي أرضى كبرياء الجميع، وبعد أن وعدته أنا أيضا أن أتلاف أخطائي السابقة معه في المستقبل.

والآن يا سيدي نستعد لزفافنا الجديد ولحياة جديدة يتحمل كل منا فيها عيوب الآخر وهناته ويجعل كل منا هدفه فيها أن يسعد شريك حياته لا أن ينتقم منه أو يثور عليه، ولا أستطيع أن أصف لك فرحتي وفرحة أبنائي برجوع أبيهم إلينا ولا كيف تسعدهم ضحكاتي معه ونحن نجهز شقته الصغيرة لكي ننتقل إليها، إنني أكتب لك رسالتي الثانية لأشكرك على كلمتك التي كانت سببا هاما من الأسباب التي دفعت زوجي لأن يعود لنفسه ويتنازل عن عناده ودفعتني أيضا لأن أتنازل عن عنادي وألتقي معه في منتصف الطريق، ولقد استأذنته في أن أكتب لك بما جد من أمرنا فرحب قائلا أنه لا يستحي من أن يعترف بخطئه فخير الخطائين التوابون، بل ورحب بأن أكتبها لعلها تجعل بعض الرجال الذين يستهينون بكرامة زوجاتهم يراجعون أنفسهم، وتجعل بعض الزوجات اللاتي يتطاولن على أزواجهن يمسكن ألسنتهن ويتحملن حياتهن بدلا من تصعيد الأمور إلى حد الطلاق وتشتيت الأبناء فقد لا يكون من الحظ السعيد ما يجمع بينهم مرة أخرى بعد الفراق كما جمع الله بيننا من جديد، فلا يدفع الثمن في النهاية إلا الأبناء وشكرا لك وجزاك الله عني وعن زوجي وأولادي خير الجزاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: ليست كلماتي هي التي كان لها فعل السحر مع زوجك وإنما كلماتك أنت في رسالتك، وخاصة تلك العبارة التي حرصت على أن أحتفظ لك بها في الرسالة لإدراكي لتأثيرها الطيب على الطرف الآخر. وهي العبارة التي تقولين فيها على ما أذكر «أعترف أنني مازلت أحبه لكنني الخ..»، فاعترافك بأنك مازلت تحملين له الحب رغم ما جرى بينكما ورغم الانفصال الذي قارب السنوات الأربع كان هو الدعوة السحرية له لكي يعيد التفكير في الأمر كله من منطلق جديد، فالرجل يسعده دائما أن يحس بأنه محبوب من شريكة حياته وأم

أطفاله رغم هناته معها أو تجاوزاته، ويشقيه دائما أن يستشعر مشاعر البغض والكراهية من جانبها أو حتى المشاعر الحيادية التي لا تحمل له كرها ولا حبا، لهذا فقد أسرته أنت أولا بهذه الكلمات ومهدت لي الطريق عنده، وساعده على إدراك قيمة ما فقد بانفصاله عنك، تلك التجربة الفاشلة التي خاضها وأتاحت له فرصة المقارنة بين من لم تبد حرصا عليه ولا احتمالا له ولا اقتناعا به، وبين من قبلت به ورضيت بظروفه وتحملت تجاوزاته ولم تحمل له بالرغم من ذلك سوى الحب. ونحن لا نعرف الأشياء أحيانا إلا بأضدادها والمرء قد يحتاج في بعض الأحيان إلى الابتعاد بعض الشيء عن اللوحة الجميلة لكي يستوعب مزاياها ويرى كل أبعادها وخصائصها التي يحجبها عنه القرب الشديد والاعتياد وفي ذلك يقول الشاعر العربي:

ما كنت أعلم ما مقدار وصلكم حتى هجرت وبعض الهجر تأديب

ولا شك أن كل ذلك ينطبق عليك أنت أيضا يا سيدتي كما ينطبق عليه «فبعض الهجر تأديب»، فعلا وتهذيب وترويض لكلا الطرفين على أن يكون أكثر مرونة مع شريك حياته وأكثر فهما لحقائق الحياة بحيث يستطيع أن يميز بحكمة بين ما يستحق منها التوقف عنده وبين ما لا يستحق أن يتوقف أمامه دقيقة واحدة من مناوشات الحياة اليومية وفي خلفية اللوحة أو في بؤرتها كان هناك وطوال الوقت أنبل الأسباب وأشرفها وأكثرها مدعاة لأن يتعالى المرء فوق الجراح والصغائر وهم الأطفال الثلاثة الذين لا تعرفين كيف تصفين فرحتهم الطاغية بعودة أبيهم إليهم ورؤيتك وأنت تتضاحكين معه، والقلوب البريئة تعي بفطرتها ما لا نتصور نحن أحيانا أن تسمح لها أعمارها الصغيرة بإدراكه وهي لا تستشعر السعادة الحقيقية ولا الأمان إلا بين أبوين متعاطفين متراحمين، ولا تشقى بشيء أكثر من شقائها بوقوعها بين أبوين متنابذين متصارعين متباغضين. فالحمد لله الذي هداكما إلى إنقاذهم من هذا المصير البائس فلا شيء في الحياة يا سيدتي يعدل حياة هادئة وأسرة آمنة يتطلع صغارها إلى الغد بقلب سعيد، وشكرا لك على رسالتك ولزوجك على نبل غايته منها وعلى شجاعة اعترافه بخطئه ورجوعه عنه، فشجاع النفس حقا هو من لا يستحي من الاعتراف بخطئة إذا أخطأ.. ومن لا يتوانى عن الاعتذار لمن أخطأ في حقه.. وضعيف النفس حقا هو من يكابر ويراوغ ويعاند عناد الحمير رافضا الاعتراف بالحقيقة التي يراها الجميع فيفقد حب الآخرين بعد أن يفقد احترامهم ومع تمنياتي لكما بحياة آمنة سعيدة دائما بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البصمة القاسية!

أنا شاب عمري 38 سنة، أعمل مهندسا بإحدى الشركات العامة بالمدن الجديدة، منذ بضع سنوات كنت في زيارة لصديق لي يعمل بالكلية التي تخرجت فيها فرأيت فيها إحدى الطالبات وأعجبت بجمالها وهدوئها واحتشامها فطلبت منها عنوان أسرتها لأزور والدها في أقرب فرصة وأعطتني العنوان. وبعد أيام توجهت إلى المدينة التي تعيش فيها أسرتها وتبعد عن مقر عملي بمسافة متوسطة تقطعها السيارة في ساعة.

وقدمت نفسي لأبيها وهو من رجال التعليم وللسيدة والدتها وهي موظفة جامعية فوجدت لديهما علما مسبقا باسمي وسبب زيارتي، وارتحت للأب والأم وللجو العائلي للأسرة وطلب الأب مني أن أكتب له اسمي وبياناتي وأتركها له لكي يتحرى عني، وبعد 15 يوما من الزيارة جاءني الخبر السعيد بالموافقة على إتمام الزواج فور أن تنتهي فتاتي من امتحان السنة النهائية بعد أسابيع. وتزوجنا بعد تخرجها وسعدت بزوجتي وأقمنا في شقتي التي أمتلكها في أجمل موقع بمدينتي وأنجبت زوجتي لي طفلة جميلة تضاعفت بها سعادتي، وبعد عام ونصف العام من زواجنا سافر صهري للعمل بإحدى الدول العربية. وبعد سفره بقليل كنت مع زوجتي في زيارة لأسرتها ففوجئت بوالدتها تطلب مني أن أنقل حياتي إلى المدينة التي تقيم فيها الأسرة وأستأجر مسكنا بها وأتخلى عن شقتي التي اغتربت 3 سنوات عن مصر لكي أستطيع شراءها. وصدمت بالطلب وطلبت أن أسمع رأي زوجتي التي تشاركني حياتي. ففوجئت بها تردد نفس الكلام بنفس المبررات بدعوى أن تعيش بالقرب من أسرتها ورجوتها ألا تتسرع في هذا الأمر الهام وأن تعيد التفكير فيه لأنه من الصعب على أن أتخلى عن مسكني وأهلي وأغير حياتي فجأة على هذا النحو، وطلبت منها أن نعود إلى بيتنا بعد انتهاء الزيارة كالمعتاد، وأن ندع هذا الأمر للتفكير الطويل، فتدخلت الأم وأعلنتني أن زوجتي لن تعود معي إلا إذا استجبت لهذا المطلب واستأجرت شقة بالقرب منهم ونظرت لزوجتي التي عاشرتها بالمعروف منذ تعارفنا. منتظرا منها ألا تتخلى عني، ففوجئت بصمتها يخذلني.. وغادرت بيت أصهاري ومرارة الخذلان في صدري وتركت زوجتي وابنتي هناك في انتظار أن يعود صهري في إجازة نصف السنة الدراسية القريبة ليفصل بيننا بحكمته وعدله وخاصة أنني تعاملت معه منذ تعرفت عليه كأب. وتدخل الأصدقاء من الجانبين لإقناع زوجتي بالتخلي عن فكرة السكن بالقرب من الأسرة والعودة لمنزل الزوجية دون جدوى. ثم عاد الأب لمصر وتوجهت إليه وكلي أمل في أن يحسم المشكلة ويعيد الاستقرار إلى حياة الأسرة الصغيرة. ورويت له كل ما حدث ففوجئت به هو أيضا يردد نفس كلمات الأم، وبين ذهولي وخيبة أملي تذكرت فجأة أن الأم قد روت فيما قبل أنها حين تزوجت صهري كان يقيم في مدينة تبعد عن أسرتها نفس المسافة تقريبا، فنجحت بعد الزواج بقليل في أن تقنعه بأن ينقل حياته وعمله إلى مدينتها هي، ويترك مدينته وسكنه فيها وأهله لتعيش هي بالقرب من أهلها. وتنبهت في هذه اللحظة إلى أن

القصة القديمة تتكرر مرة أخرى بنفس التفاصيل، مع اختلاف واحد هو أنني لا أرى سببا واحدا مقنعا لأن أتخلى عن حياتي ومدينتي وأهلي بها لأعيش في سكن بالإيجار في مدينة أهل زوجتي، وأدركت أنني كنت أطلب المستحيل من صهري حين انتظرت منه أن يحسم الأمر لصالحي وتولاني اليأس ورجعت إلى مدينتي وعملي حزينا واستمرت زوجتي وطفلتي في حياتها ببيت الأسرة، ومضت الشهور كئيبة وفي إحدى الليالي اتصلت أم زوجتي بشقيقتي الكبرى لتبلغها بنبأ مزعج هو أن طفلتي التي تبلغ من العمر عامين فقط في حالة خطيرة بمستشفى الحميات، وتطلب منها إبلاغي بذلك وتهيئتي للموقف حتى لا أفاجأ إذا نزل عليها قضاء الله بين لحظة وأخرى، وهرولت منزعجا إلى مدينة زوجتي وأسرعت إلى المستشفى لأجد طفلتي في غيبوبة وعلى رأسها كمادات الثلج وحرارتها ثابتة 40 درجة منذ عدة أيام، واستفسرت والقلق يقتلني من الطبيب المعالج عن أسباب تأخر حالتها على هذا النحو، وأجابني بأن السبب هو تأخير علاجها علاجا سليما عند بداية المرض - وتركها لمدة 3 أسابيع لعلاج طبيب امتياز ليس له حق ممارسة العلاج - من أفراد الأسرة مما أدى إلى فشله في تخفيض حرارتها وتشخيص مرضها وحين أدرك خطورة الحالة أدخلها المستشفى بعد فوات الأوان.. ولم أسمع باقي حديث الطبيب، وحملت ابنتي في صدري وكمادات الثلج فوق رأسها وأنا حريص على ألا تهتز خلال الطريق وسافرت فورا إلى القاهرة وعرضتها على أكبر أساتذة طب الأطفال وأدخلها كل منهم مستشفى يتعامل معه لإجراء كل الفحوص والأشعة لها، إلى أن أظهرت الأشعة المقطعية والتشخيص السليم للمرض حاجتها إلى جراحة عاجلة في المخ. وأرسلني الطبيب الكبير إلى جراح المخ والأعصاب الشهير وأدخلت ابنتي مستشفى خاصا في مصر الجديدة وأجرى لها الجراح الكبير الجراحة واستخرج من رأسها صديدا ودما فاسدا تجمعا فيه بسبب إهمال العلاج السليم وطول فترة ارتفاع درجة الحرارة، وخرجت ابنتي من غرفة الجراحة إلى غرفة العناية المركزة لمدة 8 أيام طويلة، ثم غادرتها بعد أن منّ الله علينا وعليها بالشفاء، وإن كان المرض قد ترك لها ولنا بصمة قاسية لا ذنب لهذا الملاك الطاهر فيها وهي شلل الجانب الأيمن من جسمها وعدم القدرة على الرؤية والسمع ولا حول ولا قوة إلا بالله. إن القلب ليبكي على حالها لكن ماذا نفعل أمام إرادة الله سبحانه وتعالى والأطباء يقولون لي إنها سوف تتحسن تدريجيا مع مرور الوقت. وأن الأمل كبير في وجه الله سبحانه وتعالى في أن تسترد عافيتها وما فقدت من حواسها باستمرار العلاج والعناية، وإني لأكتب لك راجيا منك ومن قرائك أن تدعوا الله معي أن يمن على ابنتي بالشفاء التام إن شاء الله.. كما أكتب لك أيضا راجيا أن تخاطب زوجتي التي تقرأ لك بانتظام لكي تدعوها لأن تتفكر بإمعان في مستقبل طفلتنا الوحيدة المعذبة هذه وأن تعود لمملكتها الصغيرة لنعتني معا بملاكنا الصغير ونصل به إلى بر الشفاء بإذن الله.. عسى الله أن يغفر لنا ما تقدم من ذنب وأن يرضى عنا ويأمر لوحيدتنا بالشفاء.. وشكرا لك مقدما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: والله يا سيدي أنه لو كانت بينكما كل خلافات الدنيا وصراعاتها وليس هذا الخلاف التافه وحده، ثم جرى لطفلتكما البريئة ما جرى لها من إصابة الأقدار لكان حقا على زوجتك أن تنفض يدها من كل شيء وتهرع للعيش معك وللتعاون معك على رعاية هذه الطفلة المعذبة ومساعدتها على استعادة حواسها وصحتها!

و «المصائب تجمعن المصابينا»، كما يقول الشاعر والمحن تؤلف بين النفوس المتغاضبة وتذيب الخلافات.. وأي محنة أشد إيلاما لأب وأم من محنة تعرض صغيرتها الوحيدة لهذا المرض القاسي؟

ثم لماذا لا نحتكم دائما في أمورنا إلى المنهاج العادل الذي شرعه الله لنا، فنريح أنفسنا ونرضى بعدله وحكمه.

وقد قال جل شأنه «أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم» ولو شاء سبحانه أن ينقل كل زوج حياته وعمله وسكنه إلى حيث تقيم أسرة زوجته، لأمرنا أن نسكنهن حيث تقيم «أمهاتهن وآباؤهن»، وليس ضروريا بعد ذلك أن نعمر الأرض ولا أن نسعى وراء الرزق ولا أن تلحق كل زوجة بزوجها. وتفارق أهلها كما هي سنة الحياة.

لقد نهى الله في هذا الشأن عن أمر واحد فقط هو أن يكون الانتقال بالزوجة إلى حيث ينتقل الزوج متعمدا منه بقصد الإضرار بها أو التضييق عليها أو تعريضها للخطر حتى تتنازل عن حقوقها لتنال الطلاق منه. وفيما عدا ذلك فسنة الكون هي أن تتبع المرأة زوجها إلى حيث يقيم وتتهيأ له سبل الحياة. والزواج عهد وميثاق على أن يتشارك الزوجان الحياة حلوها ومرها وأمنها وخوفها، والعقد شريعة المتعاقدين، والشرع الذي يبيح للزوجة أن تشترط على زوجها ألا يتزوج عليها بغير موافقتها لابد أنه يبيح لها بالضرورة ما هو أقل من ذلك شأنا. وهو أن تطلب منه قبل الزواج أن تعيش معه في مكان محدد بعيد أو قريب من أهلها وللرجل أن يقبل أو يرفض ذلك قبل الارتباط بها بالرباط المقدس، وبالتالي فلا حق لها في أن تفرض عليه بعد الزواج والإنجاب وتشابك خيوط حياتهما معا أن ينقل حياته إلى مكان آخر مادامت قد قبلت بظروفه كلها قبله.. ولي الذراع وترجيح المصلحة الشخصية الضيقة على مصلحة الأسرة كلها ومصلحة الأبناء على وجه الخصوص.. أنانية بغيضة لا تتفق مع روح المشاركة التي هي عماد الزواج وتخرج الزوجة عن طاعة زوجها التي أمرت بها فيما لا معصية فيه للخالق.

والمرأة حين ترتبط بزوجها برباط الزواج المقدس يرفع الله عنها ولاية أبويها عليها ويلحقها بولاية زوجها تقديسا لعلاقة الزواج وإعلاء لشأنها، وقصة المرأة التي استفتت الرسول الكريم في زيارتها لأبيها خلال سفر زوجها وكان قد أمرها قبل سفره بألا تغادر بيتها حتى يعود، قصة معروفة ومروية في الكتب، وقد أمرها الرسول بأن تطيع زوجها في ذلك فكيف يمكن تقبل خضوع زوجتك لأمها في هذا الأمر الغريب الذي يوافق هواها؟

وكيف يسمح لها ضميرها الديني والأخلاقي بأن تمزق أسرة صغيرة لمثل هذا السبب وحده خاصة بعد محنة طفلتها الصغيرة؟

يا إلهي.. ألا يكفي زلزال واحد عرفنا منه خلال دقيقة واحدة من عمر الزمان أنه لا قيمة لشيء في الوجود مقابل لحظة إحساس واحدة بالأمان والاطمئنان للغد؟ ترى كم زلزالا نحتاج إليه لكي نتخلى عن كثير من غبائنا البشري وتعنتنا مع أنفسنا ومع أننا وحدنا على حق كل الحق.. والآخرون على ضلال أي ضلال؟!

ثم ولمن ترق القلوب إذن، إذا لم يرق قلب زوجتك لطفلتها الضحية فتعود إليها وإليك وتتعاون معك على رعايتها وتمريضها خاصة وهي لا تنكر عليك خلقا ولا سوء معاشرة؟ وماذا تفعل إذن الزوجات «المجاهدات» اللاتي يتحملن كل أنواع الأذى من أزواج جبابرة ومستهترين حرصا على سعادة أبنائهن واستقرار حياتهم؟

لقد كان المفكر الفرنسي مونتسكيو يقول: إننا يجب أن نقنع بعض الناس بالسعادة التي بين أيديهم ويجهلونها بالرغم من أنهم يتمتعون بها!

ويبدو أن زوجتك تحتاج إلى هذا النوع من الإقناع الذي أرجو أن يتفتح له عقلها وقلبها قبل فوات الأوان. فعودي يا سيدتي إلى طفلتك وزوجك ولا تضاعفي من عذاب طفلتك وسوء مصيرها.. وكل شيء قابل للتفاوض بعد ذلك في ظل الوفاق والرغبة الصادقة المتبادلة في إسعاد شركاء الحياة. ولتكن طاعتك لزوجك في هذا الأمر العادل هو أول ما تتقربين به إلى الله، لكي يتم نعمته على طفلتك ويخفف عنها عناءها.. فكل شيء يهون - صدقيني - إلى جانب اسعاد هذه الطفلة التعيسة وما أنت مطالبة بشيء كثير من أجلها.. ولا أنت سترتادين الفضاء أو ستعيشين في الجوزاء.. وإنما على مبعدة ساعة واحدة من بيت أهلك وأسرتك.. فما أتفه «التضحية»، إن كان ثمة تضحية هناك.. وما أنبل العطاء الذي ستقدمينه لطفلتك وزوجك ولنفسك حين تتقاسمون جميعا رحلة الحياة والأمل في الشفاء.. أتمه الله على طفلتك.. ورفع عنها كل بلاء.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحقيبـة

أنا أنسة في التاسعة والعشرين من عمري على قدر بسيط من الجمال، أحمد الله عليه، وأنا خريجة معهد عال، ومحجبة وهادئة وخجولة وحساسة جدا.. وأكتب لك هذه الرسالة لكي يقرأها كل أب وكل أم ويحاولا أن يجنبا أطفالهما الصغار ما عانيته أنا في حياتي. ولكي يعرفا أن الزواج ليس لهوا ومتعة وإنما حياة مقدسة بكل ما فيها من فرح وحزن وألم وسعادة فلقد كان عمري شهرا واحدا حين انفصل أبي عن أمي ومضى كل منهما في طريق مختلف.. وبعد قليل تزوج أبي من أخرى وتزوجت أمي من آخر، وعرفت فيما بعد أن زوج أمي قد رغب في أن يضمني لبيته ويربيني لكيلا يحرم أمي من طفلتها الوليدة، فكان رد فعل أبي لهذه الرغبة الإنسانية هو إهانته والإساءة إليه. ونشبت بعض المشاكل بينهما بسبب هذا الأمر، كان أبي دائما هو البادئ بها فكانت النتيجة أن كرهني زوج أمي وحرم عليها أن تراني أو تنفق عليّ كما حرم عليّ زيارتها في بيتها، وامتثلت أمي لهذا الحكم القاسي منذ كان عمري شهورا ومازال الحكم ساريا حتى الآن! وكانت أمي حين تغلب عليها عاطفة الأمومة وتشتاق لأن تراني.. تتحايل على ذلك بحجة زيارة أمها وتراني سرا، أما أبي فلقد انقطع عني نهائيا لا أراه ولا يراني ولا يسأل عني حتى بلغت من العمر 12 عاما وكأنه بذلك لم يرحمني فيضمني إليه ويربيني ولم يسمح لرحمة زوج أمي بأن تشملني حين أراد ضمي اليه. وكان كل ما يربطني به نفقة ضئيلة لا تكفي لإطعام دجاجة يرسلها لجدتي بالبريد، لأنه يقيم في مدينة وجدتي تقيم في مدينة أخرى، ولن أحكي لك ما عانيته في طفولتي من آلام ومتاعب، إلى أن ضاقت جدتي المثقلة بأبناء صغار مات عنهم أبوهم فاستمعت لنصيحة إحدى خالاتي بأن تسلمني لأبي لعله يستشعر مسؤوليته عني، وهكذا حملت حقيبة ملابسي الصغيرة وأنا في الثانية عشرة من عمري وسافرت إلى المدينة التي يقيم فيها أبي وأمي وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها أبي وأتأكد من ملامحه.

ورحبت بي زوجة أبي في اليومين الأول والثاني.. وفي اليوم الثالث تراجع الترحيب وأطل الفتور وفى الأيام التالية ظهر الضيق بي واضحا حين عرفت أني جئت للإقامة الدائمة وليس في إجازة صيفية قصيرة كما كانت تتصور، فلقد أثارت المشاكل مع أبي وحسمت الأمر بقرار صارم بألا أبقى في البيت يوما آخر ورضخ أبي على الفور. وحملت حقيبتي مرة أخرى وانتقلت إلى بيت صديقة لأمي إلى حين البت في أمري وكانت سيدة طيبة ولديها بنتان.. وجاءت أمي وتمت مناقشة مشكلة وجودي في الحياة وتبودلت الآراء.. ثم استقر الرأي على أن الحل المناسب هو إلحاقي بمدرسة داخلية.. واستمعت للقرار صاغرة وأنا أسأل نفسي لماذا يا ربي وأبي وأمي على قيد الحياة وتقدمت بأوراقي للمدرسة، وانتقلت إليها فعلا، فإذا برحمة ربي تهبط عليّ من حيث لا أدري ولا أحتسب. وإذا بالسيدة الطيبة التي استضافتني ترفض هذا الوضع لي.. وتأخذني من المدرسة لأقيم عندها وأنشأ مع بنتيها، وفرحت بهذا الحل الذي لم أحلم به وانتقلت إلى بيتها مرة

أخرى.. وعاملتني هذه السيدة بأفضل مما تعامل به بنتيها لأن الرحمة طبع أصيل فيها.. وكانت لي نعم الأم ونعم السيدة الفاضلة الحنون التي سأحمل لها في قلبي ووجداني كل عرفان وتقدير إلى أن أموت. وفى بيت هذه السيدة الطيبة واصلت تعليمي.. ووقفت هي إلى جانبي تحثني على النجاح والحصول على الشهادة لكي أحمي نفسي من تقلبات الأيام، ومضت السنوات بحلوها ومرها. وحقيبتي إلى جواري دائما أحملها وأذهب إلى جدتي في الإجازات لأخفف عن السيدة الطيبة مئونتي بعض الوقت وأنتقل أحيانا بين بيوت الصديقات في استضافة قصيرة لنفس الغرض وأنعم الله عليّ بصديقات وهبهن الله الحنان والعطف على من كان في مثل ظروفي فكن يقدرن مشاعري - ويوجهن لي الدعوات من حين لآخر لقضاء العطلات أو الأعياد أو بعض الأيام عندهن ويرحب بي آباؤهن وأمهاتهن وظللت على هذا الحال حتى حصلت على شهادتي العليا فكان أول ما فعله أبي عافاه الله هو أن قطع عني النفقة الشهرية.. كأنما يقول لي اذهبي وابحثي لك عن عمل، ولم أكن في انتظار هذه الإشارة فلقد بحثت بالفعل عن عمل على الفور وتنقلت بين عدة أعمال وفى هذه الأثناء رأني طبيب يعمل خارج مصر وأعجب بي وتقدم لي عن طريق إحدى الصديقات، ورحبت به كأمل لي في أن تكون لي حياة مستقرة وتحرى الطبيب الشاب عن ظروفي ثم رفض الارتباط بي لأني كما قال من أسرة مفككة بالرغم من أني متدينة وعلى خلق وهو يريد أسرة مستقرة وحسبا ونسبا.. لكن ما ذنبي في ظروفي وأنا لم أردها لنفسي ولم أصنعها.. لقد كان أهون عليّ لو قتلني مما لو أجاب بهذه الاجابة مفسرا سبب رفضه الزواج مني رغم اقتناعه بتديني وخلقي. ولقد ساءت حالتي النفسية وكرهت الزواج وندمت على أني فكرت فيه وتجمعت أحزاني القديمة كلها فدعوت الله وأنا في شدة الضيق.. رب أخرجني من هذا البلد الذي ضاق بي على اتساعه فاستجاب الله لدعائي وحصلت على عقد عمل في دولة عربية، وتركت مصيري ومستقبلي لله يفعل به ما يريد، وسافرت إلى هذا البلد وعملت في جمعية نسائية أعمل وأقيم فيها وأمضيت عامين أديت خلالهما فريضة الحج واعتمرت عدة مرات وخلال وجودي بهذا البلد توفيت السيدة الطيبة التي رحمتني حين ضاقت بي رحمة أبي وأمي، وكان بيتها مفتوحا لي في كل وقت، فأحسست أني قد فقدت سندا كبيرا لي في الحياة وبكيتها كثيرا وحزنت عليها طويلا ودعوت لها الله أن يؤجرها أفضل الأجر والجزاء عما قدمت لي.

وبعد عامين عدت في إجازة إلى بلدي.. فلم أدر أين أذهب، ولا أين أقيم فبيت السيدة الطيبة الراحلة قد تزوجت فيه إحدى ابنتيها وبالرغم من أني أعتبرهما شقيقتين لي إلا أن الوضع أصبح محرجا لي، ولم أجد مفرا من استئجار شقة مفروشة كلفتني الكثير مع ضعف مرتبي في البلد الذي أعمل به.. وحاولت الحصول على شقة لتكون مستقرا لي في بلدي فصدمت بالأرقام المطلوبة، وزرت أبي وأمي وقمت بواجبي تجاههما إرضاء لربي قبل كل شيء.. وقلت فليكن حسابهما معه وليس مع بشر كما كنت أؤدي واجبي تجاههما طوال العامين اللذين أمضيتهما في الخارج، وانتهت إجازتي وعدت إلى حياتي المغلقة في الجمعية النسائية.. حيث لا خروج إلا بصحبة حارس ولا شيء سوى العمل ليلا ونهارا

والإقامة.. ولقد مرضت بعد عودتي واشتد بي المرض فدعوت الله ألا يطيل مرضي لأن المرض هنا عذر غير مقبول ومرفوض، ودعوت الله ألا يذلني بالمرض لأحد. وفكرت أن أسافر إلى أوروبا لأدرس وأعمل.. ولكني خشيت من تعارض تقاليدنا وعاداتنا مع الحياة في أوروبا خاصة وأنا وحيدة ولا سند لي في الحياة فهل رأيت يا سيدي ماذا فعل بي تسرع الأبوين بالطلاق ولديهما مولود عمره شهر واحد ثم انصراف كل منهما إلى حياته ناسيا هذا المولود الذي جاء به إلى الحياة؟

ثم إلى متى يستمر حالي هكذا.. وأنا هنا لا أرى أحدًا ولا يراني أحد كأننا في سجن للنساء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **أكاد أصدق أحيانا أن «جريمة» بعض الأشخاص الوحيدة التي يحاسبون عليها ويدفعون ثمنها فيما يلاقون من عناء.. هي مجرد أنهم قد «جاءوا»، إلى الحياة! وكل أبناء الطلاق المتسرع من هؤلاء الأشخاص الذين يسددون دينا لم يقترضوه ويعاقبون على جريمة لم يرتكبونها. ولعل في رسالتك هذه أبلغ الرد على ما أسمعه أحيانا من كل أم أو أب يفكر في الإقدام على الطلاق بسبب عدم الوفاق الزوجي. من أن تأثير الخلافات والمشاحنات الزوجية أبلغ ضررا على نفسية الأطفال وأخلاقياتهم من عواقب الانفصال والطلاق.**

وهي حجة فاسدة علميا وإنسانيا إذ أنه إذا كان الاختيار بين ضررين فلقد ثبت بالدليل ومن تجارب الحياة المتكررة أن تأثير تمزق الأبناء بين الأبوين بعد الانفصال أبلغ ضررا بنفسياتهم وشخصياتهم من التأثير السلبي لنشأتهم في ظل حياة زوجية غير مثالية. بل إنه لو لم يكن لاستمرار الحياة بين الأبوين مع سلبياتها من عائد سوى نشأة الأبناء تحت سقف بيت يظلهم ويحميهم من غوائل الحياة التي يتعرضون لها بعد الانفصال لكفى ذلك مبررا كافيا لتحمل الأبوين عناء حياتهما مهما بلغت تعاسة كل منهما بالآخر. صحيح أن البعض يؤمنون بما قالته إحدى شخصيات رواية «مسافر بلا متاع» للكاتب والمفكر الفرنسي جان أنوى من أنه لا خير في الأسرة إذا كانت الروابط بين أفرادها فاسدة.. أو منعدمة!

لكن هذا لا ينطبق في رأيي على الأسرة ذات الأطفال الصغار الذين لا ذنب لهم في فساد الروابط أو انعدامها بين الأبوين ويصدق بالضرورة على الأسرة التي لا أبناء لها.. وقد يصدق في بعض الأحيان على الأسرة التي انتهت مسؤوليات الأبوين فيها تجاه الأبناء الكبار، لهذا فقد زادتني رسالتك اقتناعا بما أؤمن به من أنه ما لم تكن هناك أسباب قهرية يستحيل تفاديها فإن من واجب الآباء والأمهات دائما أن يرجحوا سعادة الأبناء الصغار على سعادتهم الشخصية وأن يحتسبوا تعاستهم عند من لا تضيع عنده الأجور. ذلك أنه ليس التشتت وافتقاد إحساس البيت، والانتماء إلى الحقائب بدلا من الانتماء إلى الأسر هو فقط ما يدفعه أبناء

الطلاق المتسرع من ضريبة وإنما قد يكون هناك أيضا ذلك الثمن المؤجل الذي دفعته أنت حين تخلى الطبيب الشاب عن الارتباط بك.، هي ضريبة أخرى فادحة تدفعها الفتيات للأسف أكثر مما يدفعها الشبان إذ يتخوف البعض من الارتباط بهن بحجة أنهن إحصائيا أكثر تعرضا لاحتمالات الفشل في الزواج من الأبناء الذين نشأوا في أسر مستقرة آمنة تقدس الحياة الزوجية وتستبشع فكرة الطلاق مهما كانت المبررات وهي حجة لها تفسيرها لدى علماء الاجتماع لكن لكل قاعدة استثناء دائما.. ولعلي أؤمن بأن من عانى مرارة التمزق بين أبوين منفصلين قد يكون أكثر إشفاقا على أبنائه وأكثر رغبة في تجنيبهم محنة طفولته التعسة، وأنت يا آنستي أبلغ مثال لذلك فالزواج بالنسبة لك يعني ما هو أكثر بكثير من الارتباط برفيق حياة لأنه يعني لك الأمان.. والاستقرار في مرفأ تعود إليه سفينتك بعد طول إبحار وسط الأمواج، لهذا فمثلك قد تحرص على نجاح زواجها واستمراره أكثر من غيرها والزواج في النهاية هو الحل الطبيعي لمشكلتك.. وأرجو أن «يتذكر» أبواك أن من واجبهما -وقد فاتهما الكثير، أن ينشطا لخلق فرصة زواج ملائمة لك تجمع بينك وبين من يستحقك، كما أنه من الأفضل أن تصرفي نظرا عن السفر لأوروبا وأن تبدئي من الآن مشروعا لشراء شقة في مدينتك تدفعين أقساطها على مهل.. فتزيد من مؤهلاتك للاستقرار إلى أن يأذن الله بحل مشكلتك الحل الطبيعي لها قريبا.. إن شاء الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سنوات الحلم!

قد تكون مشكلتي بسيطة بالمقارنة مع ما يعانيه البشر من آلام، لكن صدقني حين أقول لك أنها تؤرقني ومن الممكن أن تتحول فيما بعد إلى مأساة إذا لم أحزم أمري الآن وأتخذ القرار السليم.

منذ أحد عشر عاما كنت طالبا في السنة قبل النهائية في كلية عملية صعبة وتطول بها الدراسة، فجمع الحب بيني وبين زميلة لي في نفس السنة، كنا نتفق في سمات كثيرة من بينها التفوق الدراسي. وكانت فتاتي من أسرة ثرية جدا وكنت أنا من أسرة متوسطة الحال لكن تفوقي كان يفتح لي باب الطموح على مصراعيه.

واتفقنا على أن نتخرج سويا ثم أتقدم إلى أسرتها. ثم اعترض قصة حبنا العارض التقليدي. وجاءتني زميلتي ذات يوم لتبلغني بأنه قد تقدم لها شاب ممتاز ورحبت به أسرتها ورفضته هي بإصرار أثار لها المشاكل مع أمها والأسرة، وطالبتني زميلتي بأن أتقدم لخطبتها قبل التخرج حتى أخفف عنها لوم والدتها والأسرة.. فحاولت تأجيل هذه الخطوبة إلى ما بعد تخرجي لأني كنت على ثقة من تفوقي ومن تعييني معيدا بالكلية بعد التخرج، لكنها حثتني على التقدم وأقنعتني بأن والدتها سوف تقف إلى جوارنا ولن تبالي بنقص إمكانياتي ولا بالفارق المادي بين مستواي ومستوى أسرتها، واقتنعت بذلك واصطحبت والدتي إلى بيت أسرتها.. والتقيت في صالون البيت بأعمام فتاتي ووالدتها حيث أنها يتيمة الأب ومهما وصفت لك مشاعر الاحتقار والازدراء التي قوبلنا بها من جانب الأسرة فلن أستطيع أن أعبر لك عنها ولا عن مشاعر الألم والعجز التي أحسست بها في صالون بيت فتاتي أنا وأمي.. حتى انتهت المناقشة بيننا بما يشبه الطرد لنا ودون مراعاة لأي مشاعر أو اعتبارات إنسانية، وخرجت مع أمي وأنا أحس بالهوان المرير وبأني قد عوقبت على جريمة لم أرتكبها هي ضعف مستواي المادي بالمقارنة مع «ثراء» أسرة حبيبتي.

وتجرعت الألم فترة طويلة، وزاد منه أني قد فهمت من اللحظة الأولى في اللقاء أن والدتها كانت تعرف ما سوف ينتهي إليه من رفض وازدراء لنا. لكنها شجعت ابنتها على أن أتقدم لها حتى تعجل بالنهاية المنتظرة لقصتي معها وتضعها أمام الواقع القاسي وهو رفض كبار الأسرة - وهي في مقدمتهم- لي.

وحققت صدمة المواجهة القاسية مع الأمر الواقع نتائجها التي أرادتها الأم الداهية، فقد اقتنعت فتاتي بعدها بأننا من عالمين مختلفين ولا لقاء بينهما، وبعد قليل تزوجت من زوج تتوافر فيه كل المواصفات المناسبة لأسرتها من إمكانيات ودخل ومركز إلخ. وتم عقد قرانها في الأجازة الصيفية التي تسبق العام الجامعي الأخير لنا وقطعت دراستها مؤقتا وسافرت معه إلى بلد عربي، وانكفأت أنا على ذاتي ووضعت كل همي في دراستي ـ وكلما تذكرت مهانة لقاء الصالون وذكرياته المريرة أحسست بغصة مؤلمة في حلقي ثم نفضت الذكرى بعنف من رأسي لأعود إلى واقعي. ورغم محاولاتي فلقد كانت البصمة التي تركها على حياتي غائرة،

فلقد حدثت لي بعد أسابيع منه بعض المضاعفات المرضية وعرضت نفسي على الأطباء فذهلت حين اكتشفت إصابتي بمرض السكر وأنا في العشرينيات من عمري وكل ذلك بسبب ما فعله بي أهل فتاتي في هذا اللقاء الدامي!

واستسلمت لمشيئة الله وأنا جريح القلب والنفس. وتخرجت متفوقا كما أردت وعينت بعد قليل بالكلية التي تخرجت فيها، وبعد ثلاث سنوات من العمل بها تركتها وسافرت للعمل في دولة عربية، وتوفيت أمي رحمها الله خلال عملي في الخارج فغاب عن حياتي آخر صوت كان يحثني بإشفاق كل حين وينبهني إلى ضرورة ألا يسرقني العمر وأتأخر في الزواج فشغلت عن هذا الأمر حتى نسيته، وبقيت في الخارج بضع سنوات ثم عدت إلى مصر منذ ثلاثة أعوام وأقمت في مسكن أمي القديم وافتتحت لنفسي مكتبا مهنيا لا أريد تحديد نوع نشاطه حتى لا يعرفني زملائي.. واستقرت حياتي واكتشفت فجأة أني قد تجاوزت الثلاثين ببضع سنين ولم أتزوج بعد، وشاءت الظروف أن أتعرف على شقيقة صديق أعجبت بها ولقيت قبولا منها فتقدمت لأسرتها وكان أهلها معي غاية في الكرم وساعدوني كثيرا وذللوا لي كل العقبات، وتزوجنا في هدوء ولمست من اللحظة الأولى طيبة زوجتي ورقتها وارتحت إلى ذلك كثيرا ومضت حياتنا هادئة بلا إثارة ولا مشاكل إلى أن كنت في مكتبي منذ ثلاثة شهور فإذا بفتاتي القديمة تدخل على فجأة بعد 11 عاما من آخر لقاء رأيتها فيه وتحييني فتعيدني في لحظة واحدة إلى سنوات الحلم القديم الذي عشته وداعب خيالي. وتكررت الزيارة بعد ذلك فرأيت شبحا لفتاتي أو لحطام إنسانة أحببتها بعنف ذات يوم وليست نفس الفتاة القديمة.

وروت لي معاناتها مع زوجها وعن معاملته الشاذة لها التي أدت إلى إصابتها في إحدى الفترات بشلل مؤقت، مازالت تعاني حتى الآن من بعض آثاره، وعرفت أنها رغم زواجها وإنجابها طفلا في السادسة من عمره كانت كلما عادت إلى مصر تتقصى أخباري إلى أن توصلت إلى في هذه الزيارة الأخيرة واكتشفت للأسف أنها لم تتخرج في كليتها ولمست أيضا تغيرا جوهريا في روحها وشخصيتها، فلم تعد بنفس رقتها القديمة، وإنما أصبحت عصبية ومتوترة وعلى شيء من العنف المعنوي وانزعجت بشدة حين اكتشفت أنها تكره ابنها جدا، وأن علاقتها مع زوجها عنيفة إلى أقصى الحدود، وأنها حاولت الانتحار ذات مرة بطريقة مؤلمة جدا، ورغم كل ذلك فقد جاش صدري بأحاسيس فياضة أعادتني إلى الحياة وأعادت للأيام إثارتها وطعمها القديم، والآن يا سيدى فإن فتاتي السابقة تريد أن تحصل على الطلاق من زوجها وتترك له ابنها ثم نتزوج ونقيم في شقة أمي القديمة التي طردني أهلها منذ 11 عاما من بيتهم حين اقترحتها عليهم كمسكن مؤقت للزوجية إلى أن تتحسن أحوالي، وأنا أيضا أريد ذلك لأنه حلمي القديم لكن ما ذنب زوجتي الطيبة وهي لن ترضى أبدا بأن أتزوج عليها؟ وما ذنب «طفلي» الذي سيأتي إلى الوجود خلال أسابيع قليلة في كل ذلك؟

إن زوجتي إنسانة طيبة وهادئة، لكني أعيش معها حياة فاترة، وكنت سعيدا بها إلى أن هبت عليّ فجأة هذه النسمة من نسائم سنوات الحلم فأعادتني للحياة الحقيقية ووضعتني أمام الحيرة والاضطراب فهل أدع هذه الفرصة تمضي إلى

سبيلها وأواصل حياتي الهادئة؟ أم أتمسك بها وأعرض حياتي مع زوجتي للزلازل والبراكين؟ ومن المؤكد أنها سوف تصل إلى حد الطلاق؟ بماذا تشير عليّ.. وبماذا تنصحني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **سنوات الحلم يا صديقي قد تصلح لأن يستعيدها الإنسان أحيانا في خياله فيعيش في جوها الأثيري الحالم بضع لحظات ويجيش صدره بانفعالات وأشجان أيام البراءة القديمة التي كانت تعدنا بالسعادة وتحقيق الآمال. لكنها لا تصلح غالبا لاستعادتها هي نفسها من الماضي إلى أرض الحاضر.. وبهذه البساطة كأنما قد ركبنا «آلة الزمن» للروائي الانجليزي (هـ. ج. ويلز)، فرجعت بنا إلى الوراء عشر سنوات أو تزيد في لحظات.**

ولو كان ذلك ممكنا لما تحققت لنا السعادة التي نتصورها أو نحلم بها لأسباب عديدة أولها أننا لسنا نفس الأشخاص الذين كنا هم في تلك الأيام، وإنما نحن أشخاص آخرون تغيرت في شخصياتنا وأفكارنا واستجابتنا لدواعي السعادة أو الألم أشياء كثيرة.. ولسنا على يقين من أن ما كان يسعدنا في الماضي هو نفسه ما سوف يحقق لنا السعادة والهناء الآن. كذلك فإن الأفكار والأماني والأحلام حرة طليقة دائما كالطيور المغردة التي تنتقل بخفة ورشاقة بين رؤوس الأشجار، أما «الأفعال»، والتصرفات فهي مثقلة دائما بعشرات الاعتبارات التي لا يمكن تجاهلها أو التغاضي عنها عند الإقدام عليها.

فالحياة التزام أخلاقي وواجب انساني عام لا يستطيع الإنسان معه أن يستسلم لأهوائه ورغباته وحدها بغض النظر عن تأثيراتها السلبية على الآخرين...

ومن يفعل ذلك متحررا من أي قيد يخرج عن المسار العام للأخلاق السائدة في مجتمعه ويستحق لوم الآخرين وانتقادهم. فالعالم ليس غابة مفتوحة يجري فيها كل إنسان وراء أحلامه في السعادة أو اللذة دون حساب، وإنما هو على حد تعبير فنان جامح كالرسام الهولندي رمبرانت الذي خرج هو نفسه عن المسار العام الأخلاقي لمجتمعه ودفع ثمن ذلك غاليا، ففص ضيق محاط بالقيود الأخلاقية والاجتماعية من كل جانب، وأبسط هذه القيود هي حقوق الآخرين علينا، وواجبنا في ألا نسعى وراء ما نتصور فيه سعادتنا على حساب سعادتهم الشخصية واستقرار حياتهم، وفيما يخصك أنت مثلا فهناك زوجة محبة طيبة عاشرتك عشرة هادئة مستقرة ثلاث سنوات وتحمل لك في أحشائها الآن جنينا سيأتي من عالم الغيب خلال أسابيع وقد تقدمت إليها بملء حريتك فلقيت منها القبول والترحيب ومن أهلها الرعاية والمساعدة والتكريم. فأين موقعها.. وأين موقع طفلها المنتظر من هذه الأحلام؟

ثم أين موقع زوج الأخرى، وطفلها البريء الذي لا ذنب له هو الآخر في نظرة أسرة أمه الطبقية للأمور.. ولا في مذبحة الصالون التي دبرتها لك جدته بتدبير قاس شرير؟

وحتى لو كانت علاقة فتاتك القديمة بزوجها متعثرة أو محكوما عليها بالفشل فلماذا يتم ذلك على مقربة منك وبتشجيع غير مباشر من جانبك؟ ولماذا تساهم في التعجيل بانهيارها بظهورك في أحلام هذه السيدة مرة أخرى ومشاركتها في خططها وبرامجها للمستقبل بعيدا عن زوجها وطفلها.

إنها مشكلتها الخاصة وليست مشكلتك أنت ولا دور لك فيها ولا مسؤولية.. فلتواجهها إذن بعيدا عنك وتتخذ بشأنها ما تراه مناسبا لها من قرارات بغير تشجيع منك.. ولا وعد بأي خطط للمستقبل، وسوف يختلف الأمر في تقديرها للأمور كثيرا في هذه الحالة.

أما أنت فإذا أردت رأيي ففي تقديري أنك لن تسعد مع هذه السيدة إذا تكدر صفو حياتك مع زوجتك الطيبة وفقدتها ولن يستمر جيشان المشاعر طويلا بعد الزواج إذا تزوجتها وأنت مثقل بالإحساس بالذنب تجاه زوجتك وأم طفلك، لأن حبك لها وحبها لك ليس حب العمر الحقيقي في حياتكما، وإنما هو حب زمن البراءة والأيام الجميلة فقط لا غير، فقصتك معها لم تطل أكثر من شهور، فإذا كانت قد حفرت في نفسك آثارا غائرة بعد ذلك فبسبب ما تعرضت له من إهانة قاسية أشعرتك بالمرارة وقسوة الحياة وليس بسبب ضياع الحب نفسه، وهي من جانبها أيضا لم تتمسك بك طويلا ولم تكافح من أجلك ولم تقاتل لإقناع أهلها بك وإنما استسلمت للنظرة الواقعية على الفور وتزوجت بعد أسابيع قليلة من مجزرة الصالون، ولو أعطى كل منكما حب العمر الحقيقي للآخر لما فرط فيه بهذه السهولة ولما انهزم هكذا في أول محنة!

ولا يعني هذا أن كلا منكما لم يحمل مشاعر الحب الصادق للآخر إنما يعني فقط أنها كانت مجرد قصة لم تكتمل.. ولم تصمد لأي ضغط وقد أعادها إلى الأذهان سوء حظ هذه السيدة وتعاستها مع زوجها، ولو كانت حياتها معه موفقة أو عادية لما ظهرت مرة أخرى في حياتك ولما نالت منك أنت أي اعتبار سوى اعتبار الاعتزاز الطبيعي بذكرى من أحببت ذات يوم.

وأكبر دليل على أن تعاستها مع زوجها هي المحرك الأساسي للمشاعر القديمة «كراهيتها» المزعومة لطفلها، فالحق أنها لا تكرهه ولا يمكن لأم سوية أن تكره طفلها.. وإنما هي في اضطراب أعصابها تكره فيه أنه رمز ارتباطها بزوجها ورمز إحساسها بالواجب الذي يملي عليها أن تستمر حياتها مع زوجها حرصا على مصلحة طفلها، وهذا إحساس مؤقت يزول مع تغير الأوضاع في حياتها سواء بالانفصال أو انصلاح الأحوال.

وسواء أكان هذا أو ذاك فهي لا تصلح لك ولا أنت في وضعك الجديد تصلح لها.. فهي ليست فتاتك الرقيقة القديمة التي أحببتها في أيام البراءة القديمة، وإنما هي الآن سيدة بائسة عصبية حادة الطبع نارية المزاج أفسدت عليها تعاستها حتى مشاعرها الطبيعية تجاه طفلها.

شيء أخير أود أن ألفت نظرك إليه هو أنني أخشى أن تكون من بين أسبابك التي لا تعيها الآن جيدا للاستسلام لحلم استكمال القصة الناقصة، رغبة كامنة في العقل

الباطن لرد الاعتبار والثأر للنفس من مهانة الرفض والازدراء التي أورثتك الألم والمرض، وهي رغبة طبيعية في نفس أي إنسان قد لا تلام عليها، لكن الزواج لرد الاعتبار وحده يفقد أهميته كثيرا بعد إتمامه، فتفتر المشاعر سريعا ويحل الشقاق.

لهذا كله فإن نصيحتي لك هي أن تكف عن الاتصال بهذه السيدة وأن تؤجل اتخاذ أي قرار بشأنها إلى ما بعد مجيء طفلك إلى الحياة وسوف تكتشف بعد مجيئه أن إحساسك كأب مسؤول عن وليد صغير لا يستطيع تجاهله فيما يتخذه لنفسه من قرارات يختلف جذريا عن إحساسك الآن كزوج تعرضت حياته لهبة قوية من نسائم الذكريات.

وسوف يكون قرارك بإذن الله لصالح هذا الوليد.. ولصالح أمه الوديعة الطيبة.. وسوف تعرف وقتها أن نسائم الذكرى بعد الزواج والإنجاب قد تثير في النفس أشجانها وتأملاتها، لكن الإنسان لا يحاول إعادة الزمن إلى الوراء وإنما يمضي في طريقه مزودا بشحنة انفعالية مؤقتة يردد مع محمود سامي البارودي:

أين أيـام لـذتي وشبابي أتراها تعود بعد الذهاب؟

ويؤمن معه ومع العقلاء أيضا بأن ما «يذهب لا يعود»، ولا ينبغي له أن يعود لمن كان يتحمل مسؤوليته الأخلاقية والأدبية عن طفل بريء وزوجة طيبة مثلك.. وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطائر البعيد!

أعرف أن مشكلتنا ليست من المآسي التي أقرأ عنها في هذا الباب.. لكنك أنت أيضا يا سيدي الذي قلت أن كل ما يتعلق بالإنسان من شئون وشجون يستحق منا الاهتمام والاحترام ولو كان بسيطا وبهذا المنطق الذي أحببته أروي لك قصتنا.

لقد تفتحت عيناي فوجدت نفسي طفلة تلعب بين ثلاثة أشقاء يكبرني أخ وتليني أختان صغيرتان ولم أجد في بيتنا سوى أمي التي طلقت من أبي فترك لها الشقة بما فيها، ثم هاجر إلى مدينة أخرى واستقر بها وتزوج واختفى من حياتنا نهائيا كأنه لم ينجبنا ولم يعرفنا وفي هذه البيئة نشأت فرأيت أمي مهمومة دائما بتوفير لقمة العيش لنا.. تتردد على أهل أبي تطالب بنفقة أبنائها فتعود مرات خائبة الرجاء وتعود ببضعة جنيهات مرة كل عدة شهور، وينصحها البعض باللجوء إلى المحكمة فترفض حتى لا تقطع الشعرة الأخيرة بينها وبين أهل أبي حرصا على مستقبلنا وتقوم بكل ما تستطيع أن تقوم به أم مكبلة بأربعة أولاد لتكسب بضعة قروش توفر بها مطالبنا من الخياطة.. إلى رعاية أطفال العمارة القديمة التي نسكن بها خلال فترة عمل أمهاتهن مقابل أجر زهيد تتقبله شاكرة ولا تساوم فيه أبدا إلى تدميس الفول على موقد (يوش)، طول الليل ويحرمنا من النوم لنأكله، وهو طعامنا الرئيسي ولتبيعه لمن يرغب من الجيران بأرخص من سعر المحل، ويشتريه منا جيران السكن ليس فقط إشفاقا على حالها، وإنما لثقتهم التامة في نظافتها.. فقد كنا رغم فقرنا البشع وبساطة ملابسنا آية في النظافة وشقتنا «تبرق» دائما من نظافتها رغم الأثاث القليل المتهالك ولا أنسى في طفولتي حين انتقل إلى عمارتنا القديمة ساكن جديد لا يعرف ظروفنا وكان متزوجا حديثا ويبدو متعاليا ومتغطرسا وشكا من «وش» الموقد أثناء الليل وعرف حكاية الفول، فإذا به يشكونا في قسم الشرطة بأننا نزعج السكان ونعرض العمارة لخطر الحريق وجاءنا شرطي يستدعي أمي للقسم لسؤالها فارتعشت من الخوف وبكت وبكينا معها وصرخنا عاليا والشرطي يحاول طمأنتها بأن الأمر بسيط ولا يعدو بضعة أسئلة بلا جدوى حتى خرج السكان من شققهم وعرفوا الحكاية وغضبوا لها.. جدًا. وإذا بثلاثة من جيراننا الأفاضل وأحدهم كان في هذا الوقت معاون نيابة شابا والآخر مهندسا والثالث مدرسا يطلبون من الشرطي الانتظار، ثم يرتدون ملابسهم ويذهبون مع أمي إلى قسم الشرطة ويواجهون الساكن الجديد بأنهم مرتاحون جدا لوش موقد الست أم حسين وعلى استعداد لأن يأتوا بباقي السكان ليشهدوا بذلك ثم ينهالوا عليه لوما وتقريعا إن وقف ضد امرأة ضعيفة تعول 4 أطفال لا عائل لهم، وتكافح لتوفير لقمة العيش الشريفة لهم وشاركهم ضابط الشرطة بعد أن عرف القصة في تأنيبه، فلم يملك إلا أن يتنازل عن الشكوى، وسبحان الله الذي لا يتخلى عن عباده الضعفاء فإن هذا الساكن الذي كان يبدو متغطرسا قابل أمي على السلم بعد ذلك بأيام فبادرها بالتحية ثم قال لها «سماح يا ست ام حسين لأني لم أكن أعرف ظروفك»، فسامحته بنفس راضية وجاءتنا زوجته العروس الجديدة أيضا تعتذر ثم أصبحت من زبائننا المستديمين في طلب

الفول، وبعد أسابيع اصطحب هذا الساكن أمي إلى محل عمر أفندي واشترى لها بوتاجاز مصانع صغيرا بالتقسيط باسمه وكان أول موقد بوتاجاز يدخل بيتنا ودفع لها مقدم الثمن مقابل خصمه من حساب الفول وبدأت تدفع أقساطه لزوجته كل شهر ثم أنجب مولودا فأقامت أمي له «السبوع» في شقتهم وبعد انتهاء أجازة الوضع ورعاية المولود أصبحت زوجته تتركه عندنا وتذهب مطمئنة إلى عملها، وما محبة أحيانا إلا بعد عداوة. المهم يا سيدي أن أمي لم تترك شيئا تستطيع أن تفعله لإطعامنا وتعليمنا إلا وفعلته وحين بلغ شقيقي الأكبر سن الثانية عشرة بدأ يعمل طوال الأجازة في أي عمل إلى موعد الدراسة. أما أبي وهذا هو أعجب شيء رأيته أو سمعت عنه فقد اختفى من حياتنا نهائيا ولم يفكر يوما واحدا في زيارتنا أو رؤيتنا وظل كذلك إلى أن مات وعمر أكبر أشقائي 16 سنة، ولم نعرف بوفاته إلا بعدها بشهور ولم نحزن عليه وكيف نحزن على من لا نعرفه ولم نر من عطفه أو حنانه شيئا أو كيف نحزن على من نشأنا ونحن لا نسمع ذكره من أمنا إلا مرتبطا بكلمة «النذل»، الذي تخلى عن زوجته وأطفاله الأربعة.. جريا وراء أرملة لعوب تعرف بها ونقل عمله إلى مدينتها وعاش معها حتى مات، رغم أن أمي كانت شابة وجميلة أيضا.

ومضت الأيام بنا حتى وصل شقيقي الأكبر إلى الثانوية العامة فرسب فيها لأننا غير قادرين على توفير الدروس الخصوصية له وفي العام التالي نجح بمجموع ضعيف لا يؤهله للالتحاق بالجامعة وأشار علينا الجيران بأن يلتحق بأي معهد لمدة سنتين لكن شقيقي فاجأنا بشيء حول هدوء حياتنا إلى جحيم فلقد قرر السفر إلى أوروبا ليعمل هناك. وفجعت أمي فيه فجيعة كبرى وهو الذي كانت تحلم بأن يتحمل عنها مسؤولية إخوته ويكون رجل الأسرة التي بلا رجل.. ثم كيف يسافر.. ومن أين يأتي بثمن التذكرة وكيف يتخلى عن أخواته البنات؟

وأصبح العويل والبكاء هو المشهد اليومي في حياتنا، ولم تنجح جهود الجيران في إقناعه حتى صاحت أمي يائسة منه مطالبة بأن ندعه لنفسه لأنه نذل، كأبيه ويريد أن يهرب من مسؤوليته عن 3 بنات وأمهن، يتركنا وهو رجل الأسرة الوحيد وخاصمته خصاما نهائيا، ومضى أخي في الإجراءات بجنيهات قليلة كان يدخرها من عمله في الصيف ثم طلب مني قطعة الذهب الوحيدة التي كنت أمتلكها وهي غويشة خفيفة ولم أستطع رغم معارضتي لسفره أن أرفض منحها له ثم سافر للإسكندرية، ورفضت أمي أن تصافحه وهو يغادرنا بينما بكينا نحن طويلا، ورفضت أنا مرافقته لمحطة القطار فرافقته شقيقتي الأصغر مني واعترف لها في المحطة بأنه اقترض مبلغا من صاحب العمل الذي يعمل معه كل صيف وسيرده إليه، وقال لها أنه لا يهرب من المسؤولية لكن حياتنا قاسية وفقرنا شديد ولا أمل لنا إلا في معجزة تنتشلنا من هذا الهوان.. وأنه سيحاول أن يصنع هذه المعجزة وطالبها بأن نعذره ولا نقسو عليه لأنه شقيقنا مهما حدث منه وعادت شقيقتي من المحطة محمرة العينين من البكاء.

وسافر شقيقي ولا نعرف كم بقي في الإسكندرية أو ماذا فعل حتى استطاع شراء أرخص تذكرة على ظهر سفينة مصرية إلى اليونان.. ولا متى سافر اليها؟

فقد شغلتنا «الكارثة الجديدة» عن كارثة سفره.. وهي كارثة المبلغ الذي اقترضه من صاحب العمل بغير أن يصارحه بأنه ينوي السفر وإنما ادعى له أن أمي تحتاج لعملية جراحية وسوف يسدده له بالتقسيط على 4 شهور، ولا تتخيل الأيام السوداء التي عشناها بعد سفره حين بدأ صاحب العمل مطالبتنا بالسداد.. ولا كيف أصبحت حياتنا أشد جفافا وحرمانا بعد أن بدأت أمي تقتطع من قوتنا القليل قيمة هذا القسط وكنت في السنة الثانية من دراستي الثانوية وشقيقتي الأصغر مني في الإعدادية والصغرى في أولى إعدادي.. وتحجرت الدموع في عيني أمي.. ولم يعد لها حديث إلا عن النذل الكبير، وهو أبي رحمه الله.. والنذل الصغير، الذي كرر سيرة أبيه وهو أخي.. وأصبحنا نتنفس الحزن والغم ليل نهار، وزاد منه أن شقيقي الذي وعدني بأنه سيكتب لنا بمجرد وصوله.. وسيرسل لنا جزءا من أول نقود يكسبها لم يكتب لنا ولم يرسل لنا نقودا وانقطعت عنا أخباره عاما كاملا حتى بدأت رغم حبي الغريب لهذا الشقيق الذي طالما شاركني همومي، أشك في صدق حكمي عليه.. وأكاد أصدق رأي أمي فيه وبعد عام طويل فوجئت بأول خطاب منه لي وبداخله شيك بمبلغ بسيط واعتذار طويل منه عن عدم كتابته لنا طوال العام الماضي، لأنه كان كما قال يلحس البلاط ويقاوم الموت جوعا أو تجمدا من البرد في أوروبا.. ويطلب العفو ويثق في أن قلبي سوف يدلني على أنه ما سافر وتغرب إلا من أجلنا.

وخفف المبلغ البسيط عنا بعض متاعبنا خاصة أنني كنت على مشارف امتحان الثانوية العامة.. ثم بدأت خطاباته تنتظم وتتوالى وفى كل منها شيك بمبلغ صغير وطلب جديد لأمه أن تعفو عنه وتعذره، ونجحت في الثانوية العامة والتحقت بمعهد عال واستمرت خطابات أخي ومنها عرفت أنه استقر في إحدى دول شمال أوروبا وأنه يعمل لكنه لم يحقق بعد أي نجاح يذكر.

ثم بدأ المبلغ الذي يرسله إلينا يتزايد حتى أصبح هو دخلنا الأساسي وبدأ شقيقي يرسل لنا مع بعض العائدين ملابس لأمي ولنا، وفي العام الثالث طلب مني في خطاب أن أطلب من أمي أن تستريح من العمل والشقاء لأنه قد أصبح قادرا على إعالة الأسرة وضاعف المبلغ الذي يرسله إلينا فاستقرت أحوالنا المادية وتنفسنا الصعداء لأول مرة ربما منذ ولادتنا، ومضت خمس سنوات طويلة ونحن على هذا الحال وذات مساء دق جرس الباب ففتحته أمي فاذا بشقيقي واقفا أمامها ينظر إليها صامتا في خوف!.. أي والله العظيم في خوف كما اعترف هو لي فيما بعد ثم يقول لها: هل أدخل يا أم حسين؟

فصرخت أمي من الفرحة وجئنا على صراخها وكانت مناحة من الدموع والضحك والتهليل وجاءت وراءه حقائبه وأخرج منها هداياه لأمي، فكانت كلها ذهبا في ذهب وقال لها وهو يقدمها أنه لم ينس أبدا أنها باعث مصوغاتها قطعة وراء قطعة لتطعمنا وتحمينا من الموت جوعا وكانت هداياه لشقيقاته الثلاث.. ذهبا وملابس وحقائب يد وكشاكيل ملونة واقلاما وساعات الخ.

وسامحته أمي من قلبها حين قال لها أنه ليس نذلا ولا جبانا لكنه رأى أن في عنقه «ثلاث عرائس» يتحمل مسؤولية زواجهن فمن أين يجهزن إذا لم يغامر ويقدم

على المستحيل؟ وقبلته في جبينه راضية وداعية له بالستر والصحة وامضى معنا شقيقنا شهرا كان كالأحلام فقد عرفنا فيه لأول مرة أن في القاهرة دورا للسينما ومطاعم وكازينوهات على النيل وحدائق للحيوان وبرجا في الجزيرة بل ومسارح أيضا يضحك الناس فيها من قلوبهم!

وسافر شقيقي بعد أن دفع لنا ثمن تركيب تليفون في شقتنا ليتصل بنا من غربته، ودخل التليفون بيتنا بعد سفره بشهر وأصبح يتصل بنا مرة كل أسبوع ويرسل لنا المبلغ المقرر كل أول شهر وبدأ يعود كل سنة في الصيف ويمضي معنا شهرا، وتخرجت من معهدي وبدأت أعمل والتحقت شقيقتي الأصغر منى بالجامعة، وأصبح هدف أخي في حياته هو أن نتعلم جميعا ونتزوج ممن يسعدنا ويعوضنا عن أيام الشقاء، وتقدم لي شاب وافقت عليه لكني أجلت رأيي النهائي إلى حين عودة شقيقي وجاء والتقى به واستراح إليه من أول لقاء وأصبحا صديقين وأنفق شقيقي على زواجي بكرم وسخاء وجهزني بأحسن جهاز كان يمكن أن أحلم به، وتزوجت وأنجبت وكسبت أسرتي رجلا طيبا هو زوجي.

وبعد ثلاث سنوات تخرجت أختي التالية وخطبت بنفس الطريقة وكانت الكلمة الأخيرة في زواجها لشقيقي، الذي جاء وأنفق على زواجها بنفس الكرم ونفس السخاء، وشاء الله أن يكون زواجها بداية تغيير جديد في حياته فقد لفتت نظره في فرحها إحدى صديقاتها وسألني عنها وكلفني بجس نبضها فرحبت به مما عرفته عنه من شقيقتي ومني وخطبها قبل السفر وعاد بعد ستة شهور وعقد قرانه عليها واصطحبها وسعدت معه وأنجب منها بنتين حتى الآن وأعطاه الله على قدر كفاحه ونيته الطيبة وبره بأمه وشقيقاته فأصبح يمتلك نصف فندق صغير يعمل فيه في المدينة التي يقيم فيها.

ويملك سيارة ورصيدا في البنك ويسكن في شقة جميلة وحافظ على العودة لنا كل صيف فإذا شغله عمله أرسل زوجته وطفلتيه ثم يعود بعدهما بشهر أو أكثر وقد أعاد في إحدى زياراته طلاء شقة أمي وأعاد فرشها بأثاث حديث قائلا لها أنها «عروس»، أيضا ويجب أن يكون بيتها لائقا بها.

ولم يبق منا دون زواج سوى أختي الصغرى التي تدرس الآن بالسنة النهائية بالجامعة وتنتظر حظها هي الأخرى وقد أغدق عليها شقيقي بالهدايا والملابس، ووعدها بأن يجهزها كأفضل ما يكون الجهاز والحمد لله كثيرا على ذلك وعلى نعمته علينا بهذا الأخ الكبير ومن قبله بأمنا الصالحة المكافحة التي أدمنت الكفاح ولا تريد أن تستريح حتى الآن فتفصل لأطفالنا ملابسهم وأعادت فتح «الحضانة» المنزلية التي كانت تفتتحها في الماضي ولكن بلا أجر هذه المرة.. فتطالبنا بإيداع أطفالنا عندها كل يوم رغم ما في ذلك من مشقة عليها ويتصل بها شقيقي تليفونيا كل يومين على الأكثر، ويتصل بكل منا كل أسبوع ويعود كل سنة وقد أصبح شقيقي الآن في الثامنة والثلاثين من عمره ومضى على هجرته 19 عاما طويلة وأصبحت ابنته الكبرى في التاسعة من عمرها، وأصبحت المشكلة التي بيننا وبينه الآن هي أننا نريده أن يعود ليستقر بيننا ويقيم لنفسه أي عمل يناسبه فقد اكتشفنا أن حاجتنا النفسية إليه ونحن زوجات وأمهات لم تقل عن حاجتنا اليه ونحن فتيات

صغيرات، وربما زادت مع تقدمنا في السن واستقرار حياتنا فهو أبونا الذي لم نعرف لنا أبا غيره، وحرام أن نحرم منه ويظل بعيدا تفصله عنا بحار وآلاف الأميال ما بقى لنا من عمر ونريده إلى جوارنا لنستشيره في أمورنا.. ويشكونا إليه أزواجنا إذا غضبوا منا كما يفعل الأزواج الآخرون ونشكوهم نحن إليه إذا أغضبونا.. فالأخ عزوة كبيرة وشقيقنا أعطاه الله قلبا عطوفا وحنونا، ونحن محرومات من هذه العزوة رغم كل ما يفيض به علينا شقيقنا من حب وعطف وكرم، ولهذا فنحن نريده إلى جوارنا وكفاه اغترابا وغربة وزوجته تؤيدنا في ذلك رغم سعادتها معه في الخارج لكن شقيقي غير مقتنع بذلك، ويقول لنا أنه عاجز نفسيا عن العودة والاستقرار في مصر بعد أن أدمن الحياة في أوروبا منذ سن الثامنة عشرة، علما بأنه والحمد لله متدين ويحافظ على صلاته وصيامه رغم طول نهار الصوم هناك حيث يفطر في رمضان في العاشرة مساء وأحيانا بعد ذلك، كما أنه لا يشرب الخمر ولا يدخن لكنه كما يقول لا يتصور لنفسه حياة في مصر الآن رغم حبه الشديد لبلده واستمتاعه بكل يوم يمضيه معنا في الأجازة، وهو يقرأ لك بانتظام منذ 7 سنوات ويقول أنه كان يشم «رائحتنا» رائحة مصر في بابك الجميل، هذا كما أنه معجب بآرائك وقد كتب لك منذ 5 سنوات يستشيرك في مسألة شرعية هي مسألة (...) التي أرجو ألا تشير إليها في الرسالة وكانت هذه المسألة تشغله في ذلك الوقت فرددت عليه في الردود الخاصة واستراح لرأيك وعمل به، وأنا أريدك أن تخاطبه بقلمك وتدعوه للعودة لبلده ليستقر بيننا ويفتتح له أي عمل يجعلنا نحتفظ به بالقرب منا ونراه كل أيام السنة بدلا من مرة كل سنة فما هو رأيك في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: **قرار العودة بعد رحلة عشرين عاما من الهجرة، من القرارات المصيرية في حياة الإنسان التي ينبغي أن تنبع من داخله وتصدر عنه باقتناع تام ولدوافع ذاتية وشخصية لا تقل قوة عن الدوافع العائلية والاجتماعية التي تدعوه لذلك، وإلا فإن القرار إذا جاء لمجرد الاستجابة للضغوط العائلية والاجتماعية بغير اقتناع داخلي به فإنه يحمل معه بذور فشله واحتمالات النكوص عنه بعد فترة قصيرة أو طويلة.**

فالإنسان يتحمل دائما تبعات القرارات التي يتخذها بملء إرادته واختياره واقتناعه الخاص سواء أكانت صائبة أم خاطئة، ولا يتحمل بنفس القدر تبعات القرارات التي تجيء استجابة لضغوط خارجية أو بغير اقتناع أصيل بها.

ومع اتفاقي معك في حاجتكن النفسية لقرب شقيقكن الوحيد منكن وبأهمية دور الشقيق الأب في حياتكن إلا أني أفضل في مثل حالة شقيقك أن تتركوه لنفسه بعض الوقت إلى أن يتحول نداؤكن الخارجي له بالعودة إلى نداء داخلي يهتف به في باطنه بأنه قد آن للغريب أن يهجع إلى جوار من يحبونه، ذلك أننا في النهاية لا نسعد أبدا في المنفى الأبدي ولا يطمئن قلب الطائر البعيد إلا إذا عاد ذات يوم إلى عشه بعد رحلة بطولية طار فيها طويلا ضد الريح..

وغريزة العودة للوطن من أقوى الغرائز التي يشترك فيها الإنسان والطيور والحيوان والأسماك.. وثعابين الماء مثال عجيب على هذه الغريزة الكامنة في النفوس فهي تهاجر متى اكتمل نموها فإذا كانت في أوروبا مثلا قطعت آلاف الأميال في مياه المحيط قاصدة الأعماق السحيقة جنوب جزيرة برمودة، وهناك تضع بيضها وتموت ثم تخرج صغارها للحياة وهي لا تملك أية وسيلة تهتدي بها إلى موطنها الأصلي، ورغم ذلك فإنها تعود أدراجها قاطعة نفس الرحلة الخارقة إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها!

وهذه الغريزة أصيلة إلى حد كبير في الإنسان أيضا فهو يحب الأرض التي نشأ عليها ولا يفارقها غالبا إلا مضطرا، والرسول الكريم أشار ذات يوم إلى جبل أحد وقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه!»، وحين اضطر للهجرة من مكة فارقها موجع القلب شاكيا لربه قومه الذين أرغموه على فراقها.

وعملية الإقناع بقرار مصيري كهذا القرار لا تتحقق دفعة واحدة أو بمجرد مناشدة مؤثرة، وإنما تتم عبر مراحل متدرجة تبدأ بهز الأفكار المستقرة الثابتة ثم محاولة تعديلها وإلغائها ثم محاولة زرع الفكرة الجديدة والإقناع بصوابها، والمرء قد يرفض الفكرة التي تعرض عليه بإصرار لكنه لا يستطيع رغم ذلك أن يمنع تأثيرها التلقائي على عقله وتستقر بعض رواسبها في وجدانه ومع تراكم الرواسب تتغير الأفكار وتلين المواقف.

والحق أنكن لستن في حاجة إلى جهاد طويل لإقناعه بصواب فكرة العودة لأن بذورها مستقرة في وجدانه وفى وجدان كل مصري يغادر بلاده مهما طال به الاغتراب فالمصري قد يغيب عشر أو عشرين سنة أو أكثر لكنه لا يتصور لنفسه في النهاية إلا مصيرا واحدا هو العودة لبلده ذات يوم ويعيش في غربته بنفسية المسافر الذي سيؤوب يومًا ما من سفره لهذا قلت ذات مرة أننا شعب مسافر، ولسنا شعبا مهاجرا كالشعوب المهاجرة الأخرى التي تمد جذورها لأعماق الأرض في البلاد التي تهاجر إليها.

وإلى جانب ذلك فهناك في ظروف شقيقك الخاصة ما سوف يسرع به إلى الاقتناع بالعودة إليكن بعد سنوات معدودة وهما بنتاه! فالبنات على وجه الخصوص هن أقوى حافز لعودة الغريب إلى أرضه حين يبلغن سن الصبا والشباب خوفا عليهن من تأثيرات الحياة في المهاجر، ورغبة في ربطهن ببلادهن.

والمرء يعود في النهاية يا سيدتي لمن يحب ولمن يحبونه وأنتن إلى جانب مصلحة بناته ورغبة زوجته «دوافع»، لا يمكن مقاومتها إلى ما لا نهاية ومن أجمل ما قرأت مؤخرا في قصة أمريكية هذه العبارة الجميلة التي تقول: إن الوسيلة الوحيدة لإعادة غائب بعيد هو أن تحبه حبا صادقا نقيا من القلب فيشع إشعاعاته عليه في غربته ويجتذبه للعودة اليك ذات يوم، تماما كما يجتذب قطب المغناطيس... رؤوس الدبابيس الشاردة بعيدا عنه!

فإلى أن يأتي الوقت الذي يراه شقيقك مناسبا لعودته فـ «كل مكان ينبت العز طيب»، كما يقول الشاعر، ومادام شقيقك يؤدي واجباته العائلية تجاهكن جميعا

ويفيض عليكن من حبه وعطفه ورعايته الكثير ومادامت الصلة موصولة بينكن وبينه دائما، فلترافقه عناية الله في أي أرض يحل بها، فبأمثال شقيقك هذا الذي يرعى حدود الله في نفسه وأسرته وأخواته، تطيب الحياة وتتخلص من كثير من أسباب العناء، والطائر البعيد الذي يستشعر واجباته العائلية تجاه من يتحمل مسؤوليتهم النفسية والمادية أقرب كثيرا لمن يرعاهم من طائر يقيم في الجوار لكنه لا يؤدي واجباته ولا يرعى الله في رعيته، ولقد كان أبوكم يعيش على بعد عشرات الكيلو مترات منكن، فكان أبعد عنكن بآلاف السنين الضوئية من هذا الأخ القريب للغاية وإن بعدت به الديار.

فانتظرن فلسوف يعود الغائب إليكن ذات يوم قريب بإذن الله ولسوف تفاجأن به واقفا مرة أخرى أمام باب شقة الأسرة ولسان حاله يقول مع الشاعر العربي: فلا عرفت الدار قلت لربعها ألا عم صباحا أيها الربع واسلم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلام اليقظة!

أكتب هذه الرسالة لأروي لك تجربة حياتي وأستفيد بخبرتك فيها.. فمنذ 17 عاما كنت شابا حاصلا على شهادة فوق المتوسطة وانتظر التعيين، وذهبت ذات يوم إلى مكتب القوى العاملة لأقدم أوراقي إليه فشهدت بالمصادفة مشاجرة عنيفة بين فتاة جميلة حاصلة على دبلوم التجارة جاءت للغرض نفسه، وبين الموظف المختص وقد بدأت المشادة بأن وجهت الفتاة إليه سؤالا عن موعد التعيين أو شيء كهذا، فلم يرد على سؤالها وتشاغل عنها فانفجرت فيه بعصبية شديدة ووجهت له عبارات عنيفة ورد عليها الموظف بعصبية أشد، ونهض من وراء مكتبه ليطردها أو يعتدي عليها. فوجدتني بتلقائية أحميها ورائي وأدفعه عنها بقوة وتأزم الموقف بيننا وكاد ينتهي بنا في قسم الشرطة لولا أن تدخل الحاضرون وفضوا النزاع وسمحوا لنا بالانصراف فخرجت الفتاة معي وعلى السلم سألتني عن اسمي ثم طلبت مني توصيلها إلى محطة الأتوبيس خوفا من أن يلاحقها الموظف ويعتدي عليها. وقبل أن تركب قالت لي بلهجة شبه آمرة: تعال زرني في البيت لأقدمك لأهلي ويشكروك! ثم أعطتني عنوانها وركبت الأتوبيس في عظمة لا تتناسب مع فستانها البسيط وبعد انصرافها دهشت لكل تصرفاتها، وقررت أن أنسى القصة كلها وألا أزورها، لكني في اليوم التالي وجدت نفسي أتجه إلى بيتها، وطرقت الباب وقدمت نفسي لشاب فتحه لي ففوجئت بأنه يعرفني ويرحب بي وتعرفت على الأب الذي شكرني كثيرا وعرفت أنه موظف بوزارة الأوقاف وعنده أربعة أبناء. وجاءت الأم أيضا وشكرتني وشكت لي من عصبية ابنتها التي تجر عليها المتاعب، وأحسست بعد قليل أني لست غريبا على هذه الأسرة وأمضيت معهم وقتا طيبا وانصرفت، فجاءت الفتاة ورائي وودعتني على السلم وأكدت على أن أزورها مرة أخرى! وزرتها بالفعل وتكررت الزيارات واللقاءات بيني وبينها ووجدت نفسي غارقا في حبها وهي أيضا كذلك.. وبعد أسابيع طلبت مني أن أخطبها من أبيها فأبديت لها مخاوفي من أن يرفضني وأنا بلا عمل ولا مال ولا شقة، وأبي موظف مثقل بالأعباء مثله فطلبت مني أن أتقدم بغير أن أخشى شيئا.. ووافق أبي بصعوبة شديدة على فكرة الخطبة قبل العمل وتوفير إمكانيات الزواج.

واشترط عليّ أن أحصل من أبيها على موافقته أولا قبل أن يزوره ليخطب لي ابنته، وفاتحت أباها في الموضوع فلم يرحب بي كما توقعت وطلب مني أن يبحث كل منا عن نصيبه مع آخر تكون ظروفه أفضل قليلا، لأن كلينا غير قادر على إمكانات الزواج، وعدت بالخيبة إلى أهلي.. لكن الفتاة لم تسكت عما حدث وإنها تمسكت بي وصارحت أهلها بذلك، وانتابتها نوبة هياج شديدة ضدهم وحاول أبوها تبصيرها بالمشاكل التي تنتظرنا بلا فائدة، وأخيرا حسم الأمر بالرفض النهائي فإذا بالفتاة تحاول الانتحار بقطع شريان يدها وتم إنقاذها في اللحظة الأخيرة ونقلت إلى المستشفى واستسلم الأب لرغبة ابنته وتمت الخطبة.. وخلالها تم تعييني في إحدى الشركات، أما هي فقد جاءها التعيين في جهة حكومية بعيدة..

وظنت أن موظف القوى العاملة الذي أهانته وراء ذلك، فهاجت وخرجت ثائرة لكي تذهب اليه وتنتقم منه، وهرولت وراءها حتى نجحت في تهدئتها وإعادتها إلى بيتها، وبعد شكاوى عديدة وجهود مضنية تم تعديل التعيين إلى جهة قريبة وبدأت أكافح للحصول على سكن وحصلت بمعجزة على شقة صغيرة من غرفتين في المساكن الاقتصادية، وساعدني أبي بما يستطيع في إعداد الجهاز، أما أبوها فلم يساعدنا بشيء لأن عنده بنتين أخريين! وتم الزواج في شقة شبه خالية من الأثاث، وبدأنا بعد أن عملنا نشتري قطع الأثاث البسيط قطعة وراء قطعة وهي سعيدة بحياتها الجديدة وأنا سعيد بها وبكل شيء رغم نوباتها العصبية التي إذا هبت لأي سبب انفجرت كالبركان فلا أجد طريقة لمواجهتها سوى اللين والصبر إلى أن تهدأ وتمر العاصفة بسلام، ولولا صبري وتجنبي لإثارتها بقدر الإمكان لتحطمت حياتنا الزوجية عشرات المرات وليس مرة واحدة. ولم يكن أمامي مفر من احتمالها والصبر عليها خاصة بعد أن أنجبنا طفلنا الأول، كما أنها كانت حين تصفو تصبح رقيقة وجميلة وتحاول أن تنسيني ما تحملته منها، وجاء الطفلان الآخران تباعا فضاقت بنا الشقة وازدادت أعباء الحياة علينا.. وبدأت زوجتي تتذمر باستمرار من ضيق المسكن وقلة النقود، وإذا واجهتنا أزمة مادية طارئة وعجزت عن تدبير النقود اللازمة لها انفجرت فيّ ولعنت اليوم الأسود الذي رأتني فيه.. وتحسرت على شبابها الذي دفن معي في هذه المقبرة، وتساءلت بمرارة وحقد بماذا تزيد عنها أختها الصغرى التي تزوجت تاجرا عنده سيارة وشقة واسعة في القاهرة، وشقة في الإسكندرية ويقبل قدمها، كل صباح! أو ماذا تزيد عنها هؤلاء الأخريات اللاتي يرفلن في الترف؟! وعبثا أحاول إقناعها بأن لكل إنسان ظروفه ورزقه وأن لدينا الكثير مما ينبغي أن نشكر الله عليه كالأولاد والصحة والحب.. الخ.. ولكن بلا أي فائدة فهي إذا انفجرت لم تسمع لشيء إلا لشياطينها.. وكم اضطررت لأن أقترض من أخي الأصغر منى لألبي طلباتها ولأقدم لها الهدايا في المناسبات حتى لا تشعر بأنها أقل من غيرها.. فتصفو بعض الوقت وتبدو جميلة وسعيدة، ثم يتعكر جوها فجأة بلا مقدمات فتمضي الأيام وهي ناقمة على كل شيء ومكفهرة الوجه ولا ترد على تحيتي في الصباح ولا تتكلم معي، إلى أن أنهض ذات يوم من النوم فتبادرني بالتحية كأن شيئا لم يكن فأعرف أن العاصفة قد انتهت، ونواصل حياتنا أو فترة الهدنة المؤقتة إلى أن يجد جديد فتتكرر نفس القصة بحذافيرها، وفى هذا الجو المتقلب عشنا ثلاثة عشر عاما كاملة يا سيدي ناهيك عن مقاطعتها لأهلي بلا سبب والشياطين التي تركبها إذا علمت يوما أني قد زرت أمي بغير استئذانها! فإذا قلت لها أن زيارة أمي واجب عليّ خاصة بعد وفاة أبي، هاجت وقالت لي إن أمي تكرهها وتنظر لها بنظرات كراهية صامتة! مع أنها كانت توصيني دائما باحتمالها من أجل الأولاد ولا تذكرها معي إلا بخير في حين لا تذكر هي أمي أبدا إلا بسوء!

المهم أنني احتملت كل شيء من أجل الأولاد، ومن أجل فترات الهدنة بين الأزمات إلى أن لاحظت منذ عام ونصف، أن نوبات النكد والخصام قد تقاربت بشكل لافت للنظر وأن فتراتها أصبحت تطول أكثر من المعتاد فاستعنت عليها بأهلها فلم يصلوا معها إلى شيء، ثم فوجئت بها ذات يوم تطلب مني الطلاق في هدوء.. ولم

يكن ذلك شيئا جديدا بل كان دائما من مراسم كل خلاف، لكن الجديد كان هو الهدوء الذي طالبتني به بالطلاق دون خلاف ولا عصبية، وربما لهذا السبب وحده استشعرت خطورة الأمر هذه المرة وسألتها معاتبا: أتريدين الطلاق وابنك الصغير لم يبلغ عامه الثالث بعد؟.. فأجابت بالإيجاب.. ولجأت إلى أهلها شاكيا بلا فائدة، وأصبحت تطالبني بالطلاق كل يوم مرتين، مرة في الصباح ومرة في المساء، حتى ضقت بكل شيء وأكدت لها أنني لن أطلقها مهما فعلت لأني لا أريد أن أشرد أطفالي الثلاثة.. فإذا بها تمسك بموسى الحلاقة الذي استخدمه وتهددني بقطع شريانها إذا لم أطلقها الآن وفورا!!

وتذكرت فجأة وأنا في قمة ضيقي ونكدي حين حاولت الانتحار من قبل ولكن لكي تتزوجني وتفرضني على أهلها وليس لكي تطلق مني، وتعجبت من تغير الأحوال.. وتقلب القلوب وقلت لها أنني سأطلقها وذهبت لإحضار شقيقها وعرضت عليه الأمر للمرة الأخيرة عسى أن يجد له مخرجا فاختلى بها فترة من الوقت ثم خرج إليّ وطالبني بطلاقها فطلقتها.. وعرضت عليها أن أترك لها الشقة وأقيم مع أمي وأختي الصغرى التي لم تتزوج بعد فرفضت وطلبت أن تصطحب معها طفلها الصغير وتقيم عند أهلها. وغادرت زوجتي بيتها، وانطويت على نفسي مجروح النفس والكرامة أنظر للطفلين وأتحسر على حيرتهما بعيدا عن أمهما. وأملت أن ترجع إلى رشدها بعد شهور، لكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد تزوجت أم أولادي يا سيدي بعد انتهاء عدتها بيوم واحد من رجل آخر.. ومن هو الذي تركتني من أجله؟.. إنه زوج وأب لأولاد كبار وجد لحفيدين أيضا ويكبرها بخمس وعشرين سنة.. لكن كل ذلك يهون لأنه تاجر مستريح ماديا ويركب سيارة فاخرة وعنده شقة في الإسكندرية تماما كزوج أختها الصغرى! وقد أقامت معه في شقة لا تزيد في مساحتها عن شقتي لكنها في حي أرقى وأثاثها أفخر وفيها الفيديو والدش أو الإيريال الدولي الذي يلتقط تليفزيونات الدنيا!

كما ترك هو بيت أولاده وأقام معها إقامة دائمة في الشقة ويذهب إلى أولاده كل يومين لمدة ساعات، وقد علمت أن هذا كان شرطها وأنه استجاب له سعيدا وراضيا.

ورغم ما أحسست به من مرارة فقد تصبرت واستسلمت لمصيري وأكثرت من الصوم وأفرغت أحزاني في رعاية الولدين والاهتمام بشئونهما وإعداد ملابسهما وطعامهما، ومن حين لآخر أرسل ابني الكبير - وعمره ١٢ عاما - لكي يحضر لي شقيقه الأصغر من بيت ماما، الجديد لكي أراه لمدة ساعة. ومضت شهور على هذا الحال إلى أن كان الأسبوع الأخير من العام الدراسي حين عاد ابني الكبير من المدرسة ففوجئت به يجر في يده شقيقه الأصغر وفي يده الأخرى حقيبة صغيرة يتعثر فيها.. وسألته عما حدث فعرفت منه أن أمه «الحنون» قد ذهبت إليه عند موعد خروجه من المدرسة وسلمته شقيقه وحقيبة ملابسه وقالت له أن زوجها لا يريد ابنها معها لأن الشقة صغيرة وهو يريد الهدوء! هل تتصور هذا يا سيدي؟!

وهل تتخيل حالي وابني الصغير الذي يبلغ من العمر 3 سنوات يبكي من الجوع وتعب المشي، وابني الأكبر يسألني هل معنى هذا أن ماما لم تعد تريد أحدا منهم أو

تحبه؟

لقد هتفت في أعماقي: حسبي الله ونعم الوكيل.. وحاولت أن أخفف عن الأولاد وأشغلهم بترتيب أوضاع حياتنا الجديدة.. ولكن جرح الألم كاد يقتلني وذهبت لأمها وشقيقها فقالا لي أنهما لم تعد لهما سيطرة عليها وأنهما رفضا قبول الولد عندهما أو توصيله لي حتى يجبراها على الاحتفاظ به لكنها لم ترتدع وفي النهاية طلبا مني أن أتزوج غيرها لترعى أولادي ولكي أنساها!

فغرقت في هم كبير.. وأضيفت إلى تعاستي الشخصية معاناتي كأب وأم في رعاية أولادي ومحاولة تعويضهم عن حرمانهم من أمهم.. ووسط لحظات التعاسة أجد نفسي أحيانا أستسلم لأحلام اليقظة فأتخيل مطلقتي وقد اكتشفت أنها لم تحقق السعادة في الحياة التي اختارتها وأنها أحست بتأنيب الضمير لتضحيتها بأولادها في سبيل حياتها الشخصية.. وعادت إليّ نادمة تطلب مني الصفح وأن تعود لتعيش خادمة تحت أقدامي بقية العمر وترعى أولادها، فأصفح عنها بعد تمنع وأعيدها إلى عصمتي وخاصة أني سمعت أن زوجها الجديد لا يقابل نوباتها العصبية بالصبر واللين كما كنت أفعل وإنما بالحذاء.. وسمعت أنها ثارت عليه لأول مرة بعد شهرين من الزواج فضربها علقة، دامية وطردها من الشقة ورغم ذلك فقد عادت إليه كالكلبة، بعد يومين أمضتها في بيت أهلها ودون أن يذهب لإعادتها! لكن هذا الحلم ليس سهلا بعد أن صبرت مطلقتي على فراق أولادها تسعة شهور الآن.. ولولا أني أرسلهم إلى بيت أمها كل شهر مرة لما طلبت رؤيتهم.

وفي أحيان أخرى استمع إلى نصيحة الأهل والأصدقاء بأن أتزوج من أرملة أو مطلقة لتتقاسم معي رعاية أولادي ورحلة العمر لكني أرى الخوف في عيونهم من أن أتركهم كما تركتهم أمهم فأتردد ويطول ترددي.. فبماذا تنصحني يا سيدي أن أفعل؟.. هل أنتظر حلم اليقظة هذا.. أم أتزوج أم أبقى وحيدا مع ما أعانيه من آلام ومتاعب وأتفرغ لأبنائي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: أحلام اليقظة يا صديقي قد تصلح لأن يهرب **إليها الإنسان أحيانا من واقع أليم يعجز عن احتماله، لكنها لا تصلح لأن يبني خططه على أساسها أو ينتظر تحققها في أرض الواقع، إنما فترات هروب قصيرة إلى واحة الخيال من عناء الواقع، لا يجوز أن تطول عن لحظات.. ولا أن يستنيم إليها المرء طويلا وإلا اختلطت لديه الحدود بين الواقع والخيال.. وطاشت تقديراته وأحكامه وحلم يقظتك على وجه التحديد حلم بعيد المنال في المنظور القريب على الأقل لأن زوجتك السابقة شخصية جامحة أنانية تطلب لنفسها ما تراه ملائما لها وتقاتل للحصول عليه، ولا تضع في اعتبارها إلا رغباتها وحدها. وقد فعلت ذلك حين حاولت الانتحار لتفرضك على أهلها وحين هددت به لتنال حريتها منك وتتزوج «الآخر»، فإذا كان خطؤها في المرة الأولى محتملا.. فهو**

في المرة الثانية جريمة لا تغتفر، لأن له ضحايا أبرياء هم أنت وأولادها الثلاثة الذي لم يتم أكبرهم الثالثة عشرة من عمره، ومن لا تردها غريزة الأمومة ولا عاطفتها تجاه أطفالها الصغار عن الاستسلام لرغباتها وهوى نفسها لا يردها عنها شيء آخر في الوجود، ذلك أن غريزة الأمومة هي أقوى غرائز المرأة ودوافعها على الإطلاق، ومن لم يرق قلبها لصغارها فيدفعها للتمسك بهم واحتمال ظروف حياتها من أجلهم أو حتى للاحتفاظ مؤقتا بطفلها الصغير الذي يحتاج لرعايتها، لا أمل في الاعتماد على صحوة ضميرها أو مراجعتها لنفسها أو ندمها على ما فعلت. ثم هبها فعلت ذلك ـ وهو ما أستبعده الآن على الأقل ـ فهل تستطيع أنت أن تصفح عنها وتمحو من نفسك كل أثر لغدرها بك وتنكرها لأطفالها؟

لقد كانت حياتك معها سلسلة متصلة من العواصف والبراكين التي تقف عاجزا أمامها ولا تملك معها إلا انتظار انتهاء «النوة»، العاصفة حتى تلتقط أنفاسك بعض الوقت قبل أن يموج البحر بعاصفة جديدة، وقد احتملت حياتك معها مدفوعا بأنبل الدوافع وهو الحرص على سعادة الأبناء من ناحية وبضعفك العاطفي تجاهها من ناحية أخرى، مع اعتقادك أنها على الحب الذي جمع بينكما مازالت مقيمة وأن ما تعانيه من انفجاراتها إنما يرجع إلى مزاجها الناري المتقلب وليس إلى جفاف عاطفتها تجاهك.. فكيف ستكون حياتك معها لو تحقق هذا الحلم المستحيل، وقد عرفت الآن بخيانة القلب الذي أحببته وتحملت من أجله كل هذه الأهوال؟

صحيح أن الحب قلب غفور قد يغفر الكثير من الخطايا للأحباء، لكن هناك بعض الحالات التي تنطبق عليها بصدق عبارة الشاعر الحكيم طاغور حين قال أنه:

حين ينقسم الحجر إلى نصفين فإنه يمكن إعادة وصله بيسر وإحكام ليعود كما كان من قبل بغير أن يلحظ أحد انقسامه السابق، أما مع الإنسان فإن الأمر يختلف لأنه كائن حي ومتغير دائما.. وعندما يفترق الناس لفترة طويلة أو يحدث بينهم ما لا يمكن الصفح عنه، فإنه لا يمكن إعادة ضمهم ليعودوا كما كانوا من قبل.

وحالتك هذه للأسف من الحالات القليلة التي لا يمكن إعادة وصل، الحجر المنقسم فيها ليعود كما كان من قبل، ليس فقط لخيانة الحب ولا الغدر بعهد من اختاره القلب وكاد يفقد الحياة من أجله، وإنما لبشاعة تنازل الأم عن أطفالها الصغار بهذا اليسر بغير أن يهتز لها رمش إلى حد تنازلها عن حضانة الطفل الوليد لأن زوجها الذي يحقق لها مستوى الحياة الذي أرادته لا يحتمل وجوده معها! إن العجماوات يا صديقي لا تتنازل عن صغارها بهذه السهولة وإنما تقاتل وتخمش بمخالبها وأظافرها من يحاول انتزاعها منها.. والحديث الشريف يقول للآباء والأمهات: الزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم، وكثيرون هم من يضحون باعتبارات السعادة الشخصية والاعتبارات المادية لكيلا يتخلوا عن أبنائهم أو عن واجبهم الإنساني والديني في رعايتهم وإحسان أدبهم.. فكيف تأمل خيرا فيمن تخلت عن واجبها المقدس تجاه أطفالها الصغار بهذا اليسر ولولا أنك ترسلهم إليها لما طلبت رؤيتهم؟!.. وكيف تتصور إمكانية عودة الحياة بينك وبينها مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن ولم ينشرخ بينكما؟

يا صديقي.. لقد فرطت كثيرا مع هذه السيدة، ولم تلتفت من البداية إلى الإنذار المبكر الذي كان ينبغي أن تتلقاه وتتفهمه عن مزاجها العصبي وطبعها الناري من اليوم الأول لتعرفك عليها في مكتب القوى العاملة، فهي لم تكن تصلح لك ولا كنت تصلح لها، وقد نالت ما تستحقه الآن من الحياة ومن نمط الأزواج الذين يصلحون لها فدخلت في عصمة رجل يعرف كيف يتعامل مع شياطينها.. وكيف يروضها كما يروض مروض الوحوش النمرة الشرسة ومستقبلها معه رهين بخضوعها لتسلطه وتجبره عليها، كما حدث لـ «كاترين» الشرسة في مسرحية شكسبير «ترويض النمرة»، التي رفض كل الشبان أن يتقدموا لخطبتها لطبعها الشرس وجموحها.. إلى أن جاءها زوجها المجرب «بتروشيو» وأخضعها بخبرته وحنكته لشخصيته وتسلطه، حتى كان يتعمد أن يشير إلى القمر الساطع أمام الآخرين ويقول لها أنها «الشمس المباركة»، فتؤمن على ما يقول وتردد وراءه أنها الشمس المباركة بعد أن جربت عاقبة مخالفته في الرأي.. ولكل جامح آفة من جنسه!

أما أنت فلقد كان استمرار حياتها معك رهينا بقدرتك على الصبر والاحتمال والمرونة وقد آن لك الآن أن تنال من الدنيا من تستحقها ومن تعرف لك قدرك وتشاركك حلو الحياة ومرها بلا تسلط ولا عدوانية ومن تقاسمك رعاية أولادك وربما أولادها أيضا..

فهز رأسك بعنف يا صديقي كلما راودك حلم اليقظة المزعج هذا لكي تطرده منه إلى الأبد.. ولا تحكم على نفسك بالوحدة والمعاناة بقية العمر وإنما استجب لنصيحة الأهل والعقلاء، وابحث لنفسك عن شريكة عمر ملائمة لك ولسنك وظروفك الاجتماعية والمادية وفوض أمرك لربك فيمن تخلت عن صغارك ولم تحفظ لك عهدك.. وانتظر تعويض السماء لك عما لقيت معها من عناء ولسوف تأتيك جوائزها تترى قريبا، وقريبا جدًا بإذن الله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيت النار

هذا هو ثالث خطاب أكتبه إليك ولا أجد في نفسي الشجاعة لإرساله وقد سبق لي أن أردت منذ سبع سنوات أن أكتب إليك وأنا طالبة بإحدى الكليات لأشكو لك من حياتنا وما نعانيه أنا وشقيقي الطالب الجامعي وقتها.. في بيت النار.. الذي نعيش فيه مع أبي وأمي فقد كانت حياتنا فيه شعلة مستمرة من لهب الشجار والعراك بين أمي الموظفة التربوية وأبي الموظف الحكومي. شعلة تسمع فيها طقطقة الخشب حين يحترق ويرتفع فيها «الشبشب» أحيانا.. ويعلو فيها الصوت بأقذع الألفاظ دائما إلى جانب الفضيحة التي تجلجل كل بضعة أيام في العمارة، مما كان يخزينا ويخجلنا ويسبب لي أنا وشقيقي ألما نفسيا بالغا، وقد بلغ هذا الألم قمته ذات مرة حين ترك أبي البيت بعد أحد هذه الصدامات العنيفة وضغطت عليّ أمي ضغطا شديدا وأنا تلميذة صغيرة بالمدرسة الثانوية للذهاب معها إلى قسم الشرطة لتحرر محضرا ضد أبي وتستشهد بي فيه على أنه ضربها، وذهبت مكرهة، ووقفت أمام مساعد الشرطة وراحت أمي تستنطقني.. والكلمات تتجمد في فمي ولا تريد أن تخرج حتى أشفق عليّ مساعد الشرطة ونهر أمي قائلا لها: حرام عليك ما تفعلين يا سيدتي، إن ابنتك.. بنت طيبة ولا تريد أن تشهد على أبيها.. فسوي الموضوع بعيدا عن الشرطة.. وخرجت من القسم باكية وأمي تلومني على خذلاني لها وبسبب هذه المعاناة المستمرة، كانت تأتيني نوبات من الانتفاضات والتشنجات العصبية وأنا نائمة لا أعرف بها إلا حين تخبرني عنها أمي في صباح اليوم التالي لأنها كانت تنام معي منذ فترة طويلة هاجرة فراش أبي، وقد استمرت هذه الانتفاضات تطاردني عدة سنوات بعد ذلك .

وفى مثل هذا الجو الكئيب عشنا سنوات الصبا وأوائل الشباب وبدلا من أن نستمتع بأجمل فترات العمر.. تجرعنا فيها كل ألوان المعاناة، وكلما انفرد بي أبي حكى لي عن مأساته مع أمي التي أضاع معها زهرة عمره وكلما انفردت بي أمي حكت لي عن مأساتها مع أبي الذي خدعها وأخذ «شقاء» عمرها كما تقول، ويطلب مني أبي التوسط لدى أمي وتطلب مني أمي التوسط لدى أبي وكذلك يفعلان مع أخي.. ونقف نحن عاجزين ومحبطين بينهما.

وفى السنة الأخيرة من دراسة أخي الجامعية تعرف على فتاة وأحبها ووجد في حبه لها مهربا من جو البيت الثقيل، وبدأ يخرج معها ويشركني معه في نزهاتهما ليخفف عني، ثم تخرج في كليته وعمل في مدينة نائية يقيم بها ثلاثة أسابيع من الشهر ثم يأتي ليقيم معنا أسبوعا واحدا. وأحسست لغيابه عني بفراغ موحش ووحدة قاتلة، فقد كان سلواي الوحيدة وشريكي الأوحد في المعاناة.. وكم وقفنا متجاورين في جانب من الغرفة نرتجف من الخوف والألم ونحن نشهد معركة جديدة بين أبوينا منذ سن الطفولة. ثم تخرجت في كليتي وعقد أخي قرانه على فتاته ورحل معها للعمل في إحدى الدول العربية وسعد بالتخلص من المعاناة، وبقيت وحدي في بيتنا الكئيب أحاول أن أشغل فراغي بشيء مفيد والتحقت بدراسة حرة بإحدى الكليات، وفى هذه الأثناء تقدم لي شاب يعمل بالخارج وعائد

في أجازة لكي يبحث عن نصفه الآخر ويخطب ويعقد قرانه في نفس الأجازة، ولم اتحمس للفكرة من البداية، لكن أمي نزلت فوقي بثقلها وضغطها لأوافق عليه لأنه عريس جاهز ولا يعيبه شيء، ولست أنكر أنني أعجبت به كشخص، ولكن حافزي الأول لقبوله كان أنه يعمل في دولة عربية وسوف أهرب معه من بيت الشقاء الذي أعيش فيه وهكذا وافقت على الارتباط به بلا حماس، ولست أدري حتى الآن كيف خطبت له وعقد قراني عليه وتزوجت خلال أسبوعين فقط، وبعد الزفاف المتعجل سافرنا إلى أحد الشواطئ في رحلة شهر العسل.. فكانت أيامه أتعس أيام حياتي.. وفي الفندق الذي أقمنا به كنت أنظر أحيانا إلى زوجي وهو نائم إلى جواري في الفراش واتعجب من نفسي وأتساءل من هذا الرجل؟.. ولماذا تزوجته ولماذا فعلت ما فعلت، إلى حد أني فكرت أكثر من مرة أن أحمل حقيبتي واتسلل وحدي عائدة للقاهرة، لكن هيهات أن أفعل ذلك وقد وقعت الفأس في الرأس كما يقولون.. ولم يبق أمامي إلا استكمال المشوار الذي بدأته باختياري، وانتهت أجازة العسل وعدنا للقاهرة وسافر زوجي إلى عمله.. وانتظرت أن يستدعيني إليه وعاد أخي في أجازته ففوجئ بزواجي وتعجب له وانفرد بي يسألني هل أرغمني أحد على هذا الزواج فنفيت له ذلك.. لكنه فهم دوافعي وتمنى لي السعادة.. وارسل زوجي يستدعيني إليه وسافرت وتخلصت من بيت الأحزان الذي عشت فيه سنوات عمري الضائعة، وكل أملي أن أحيا حياة هادئة مريحة ووجدت زوجي إنسانا طيبا لا يدخر وسعا في إسعادي وتخلصت بعد شهور من الزواج من الانتفاضات العصبية أثناء النوم، وبعد عامين أنجبنا طفلتنا الوحيدة الجميلة، ورغم ذلك كان المفروض أن يعمق مجيء الطفلة الروابط بيننا.. لكن ما حدث كان العكس.. فقد أحسست بأن هناك فجوة بيني وبين زوجي تتسع يوما بعد يوم.

فأنا للأسف لم أحبه رغم احترامي له وتقديري لأخلاقه وأحس كذلك بأنه لم يحبني رغم حرصه على علاقتنا لأنه لم ينطق بكلمة واحدة يعبر لي بها عن حبه لي منذ زواجنا ويتعلل في ذلك بأنه لا يعرف هذا النوع من الكلام وأنه يعبر عن مشاعره بالأفعال لا بالأقوال، ولم يكن من المعقول أن أهدم بيتي لسبب تافه كهذا، فواصلت الحياة معه، لكنه حدث بعد ذلك ونحن في أجازة بمصر ما أشعرني بأنه لم يثق فيّ حتى الآن ثقة كاملة من الناحية المادية.. فغضبت جدًا وصممت على عدم العودة إليه بعد سفره لعمله.. ثم تراجعت عن تصميمي وسافرت إليه وفى نيتي أن أختبر مشاعري تجاهه، ومنذ عودتي إليه وأنا أحس بأن مشاعري تجاهه مشاعر نفاق لأني لم أحبه وأتهرب غالبا من علاقتنا الخاصة حتى بدأت أشعر بأنه قد بدأ يكرهني في صمت لهذا السبب. إنني أراجع حياتي الآن فأجدها فاترة مملة.. وساعد على ذلك المجتمع المغلق الذي نعيش فيه حيث لا صداقات ولا زيارات، وزوجي قليل الصداقات بطبعه وأرجو ألا تنصحني بمغالبة الملل بالعمل لأني عملت فترة ثم تفرغت لطفلتي وهو غير متاح لي الآن.

وقد سمعت مرة أن الزواج إذا لم يدفع الإنسان خطوات إلى الأمام فإنه يكون قد أساء الاختيار. وأنا أحس أني لم أتقدم للأمام وإنما رجعت خطوات إلى الوراء، فهل أقدم على طلب الانفصال وأقلب المائدة بكل ما فيها وأواجه نفسي والمجتمع

والناس وأحاول أن أتذوق طعم الحياة الذي حلمت به منذ صباي حين كنت أحلم بالحب والزواج والطموح إلى أشياء كثيرة أم أترك الحال كما هو عليه وأواصل حياتي الفاترة، مع العلم أني أشعر بحاجتي لطبيب نفسي ينقذني من الاكتئاب، وهل إذا أقدمت على الانفصال يكون ذلك تمردا على النعمة التي بين يدي وخاصة أن طفلتي هي روحي وجزء لا يتجزأ من كياني.. أم بماذا تنصحني؟.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول: الإنسان لا يتزوج يا سيدتي لكي يتقدم خطوات إلى الأمام أو إلى الخلف وإنما لكي يسكن إلى شريك يطمئن به جانبه ويشاركه أفراح الحياة وأشجانها. وأكبر خطأ يرتكبه في حق نفسه هو أن يرتبط بإنسان لغير سبب سوى دافع الهروب من مشكلة عجز عن مواجهتها أو تحملها، وهذا ما فعلت بنفسك للأسف حين قبلت من طرق بابك مدفوعا بآماله المشروعة في السعادة، لمجرد رغبتك في التخلص من حياتك في «بيت النار»، الذي يتلظى كل يوم بلهب الشجار والشقاق. لكن الإنسان من ناحية أخرى مسؤول دائما عن اختياراته وأفعاله، وليس من الشجاعة أن ينكص عن تحمل تبعاتها، أو أن يرضى للآخرين بأن يدفعوا نيابة عنه ثمنها. ولقد كانت مقدمات زواجك خاطئة بكل تأكيد، لكن النتائج لم تخرج بعد عن دائرة السيطرة والتصحيح، ومشكلتك الأساسية هي أنك قد تزوجت عن غير اقتناع كامل بزوجك.. وفي تعجل لم يسمح لبذرة القبول النفسي بالزواج بأن تنمو تدريجيا فتثمر زهرة الحب في موعدها الربيعي. ثم ساعدت طبيعة زوجك المتحفظة على بطء هذا النمو أو إيقافه، وأنت تقولين أنك لم تتقدمي في حياتك «خطوات إلى الأمام»، بهذا الزواج لكني اختلف معك في ذلك رغم اعتراضي على الفكرة من أساسها، فلقد قطعت «خطوات» لا يمكن إنكارها إلى «الأمام» فغادرت بهذا الزواج بيت الجحيم الذي كنت تعيشين فيه وتخلصت من الانتفاضات التشنجية التي كانت تزعجك وأنجبت طفلة جميلة تستمتعين برعايتها وستعملين جاهدة على أن تجنبيها ما قاسيت أنت منه بين أبويك وتعيشين حياة هادئة بلا نزاع ولا شقاق مع زوجك الطيب الذي لا يدخر جهدا لإسعادك وحالتك الصحية والاجتماعية والمادية طيبة.. وطفلتك طبيعية وليست عليلة معاقة والحمد لله.. «وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا». فكيف لا يكون كل ذلك خطوات إلى السعادة بإذنَ الله؟ حتى ما رويته لي عن المسألة المادية التي حذفتها من رسالتك لا يستحق منك هذه المغالاة في الغضب ولا في الاستنتاج منها أنه لا يثق فيك من الناحية المادية، فهي شأن تافه لا يستحق الاعتبار وليست دليلا أبدا على ما توصلت إليه من نتائج، ثم إنها من حقه أولا وأخيرا وفيما عدا ذلك فهو لا يقصر في حقوقك ولا ينى عن محاولة إسعادك ويتحمل صابرا تهربك منه، مع ما في ذلك من جرح لمشاعره كزوج وكإنسان.. ومع كل ذلك فإن مشاعرك تجاهه ليست في النهاية عدائية ولا مشاعر كراهية، وإنما مشاعر حيادية فقط لأن شرارة الحب لم تولد بعد في قلبك تجاهه.. وهذا شيء طبيعي لأنه يندر أن يكره الإنسان السوي «الآخر» الذي يحبه ويحسن معاشرته حتى ولو لم يستجب لمشاعره العاطفية وقد ذكرني ذلك بما قرأته في رسالة لقارئ فاضل من أن المحبة لا يمكن أن تكون عاقرا أبدا لأنها إن لم تلد محبة فهي تلد خجلا تجاه من

يحمل لنا تلك المحبة! وهذا هو حالك مع زوجك الآن أو ما ينبغي أن يكون عليه حالك معه.

وإذا كنت تشكين من فتور حياتك وخلوها من لذع الحب فتذكري أن هناك من فرضت عليهم ظروفهم عشرة من يحتملون منهم كل ألوان المعاناة ومع ذلك فهم يمضون في الحياة طاوين أجنحتهم على تعاستهم ويحتسبون شقاءهم ومعاناتهم عند من لا تضيع عنده الأجور. وما حال أبويك رغم اعتراضي على أسلوبهما ببعيد، فقارني حياتك بحياة هؤلاء، وستجدين أن الأقدار قد ترفقت بك كثيرا، وتذكري دائما أن من واجبك أن تعطي زوجك وطفلته فرصتهما العادلة في السعادة والحياة الخالية من الآلام وسوف تشاركينهما سعادتهما كاملة، حين يأذن الله لشرارة الحب بأن تولد في قلبك.. أو حين تتوافقين مع أوضاعك وترضين عنها في جملتها وتتجاوزين عما ينقصها.. وأي الناس قد اكتملت له كل أسباب السعادة!؟ إن الكارثة الحقيقية ليست في فتور حياتك إذ ما أهون هذه المشكلة بالقياس إلى آلام الحياة الأخرى، وإنما في منبت الشقاء الذي ولدت فيه وعشت زهرة عمرك، فلقد أجرم أبواك في حقك أنت وشقيقك بإشراككما معهما في مشكلتهما الشخصية فبذرا بذور الاكتئاب في نفسيكما وأثرا من حيث لا يحتسبان في قدرتكما على الاستمتاع بالحياة وإدراك قيمة الأشياء والأهداف والمعاني.. وهذه هي جناية بعض الآباء والأمهات الذين لا يتجملون أمام أبنائهم ولا يستخفون بنزاعاتهم ومعاركهم وفضائحهم عن الأبناء.. ولا يعفونهم من معاناتها معهم كأنما يعز عليهم ألا يقاسوها وحدهم غير مدركين عمق الآثار النفسية التي تترسخ في أعماقهم وتؤثر في تكوينهم النفسي وفي تصوراتهم وأفكارهم عن الزواج والسعادة والحياة، إنك ضحية لأنانية أبويك فحاذري أن تكرري القصة وتصنعي ضحية جديدة لنفس الجريمة هي طفلتك لأن من تعرض للظلم هو أقدر الناس على الإحساس بمشاعر الضحايا وأبعدهم عن أن يظلم الأبرياء بمعاناته واختياراته من بعده. أما زوجك فنصيحتي الوحيدة له هي أن يواصل الصبر عليك إلى أن تتفتح له مسامك في وقت قريب وأن يحاول الاقتراب منك ويرخي العنان للسانه ليعبر بالكلمات عن مشاعره تجاهك إلى جانب الأفعال فهذه اللفتات الصغيرة ترضي النفوس وتؤلف بين القلوب.. وتقرب الشركاء ولا يجوز لرجل أو امرأة أن يتحفظا فيها.. فلقد كان الرسول الكريم لا يتحفظ في التعبير عن مشاعره القلبية تجاه السيدة عائشة، ولا يرى في ذلك عيبا، وروى عن عمر بن الخطاب وهو المعروف بشدته وجديته قوله: ينبغي للرجل أن يكون في أهله «أي مع زوجته»، كالصبي أي في الأنس والبساطة فإذا كان في القوم كان رجلا!.

وكان الإمام الشافعي يمازح زوجة له فيقول متشكيا: ومن البلية أن تحبه.. فلا يحبك من تحبه! فتجيب عليه زوجته ببيت شعر مماثل فيه على غزله بدعابة مماثلة والاهتمام بهذه اللفتات الصغيرة.. يرقق القلوب الجافية ويفتح فيها الثغرات التي يتسلل منها الحب، ولقد روى قاض أمريكي نظر آلافا من قضايا الطلاق أن معظم الحالات التي نظرها قد بدأت بإهمال اللفتات الصغيرة كنسيان الزوجة أن تودع زوجها وهو خارج إلى عمله بكلمة وداع طيبة أو نسيان الزوج مناسبات الزوجة الخاصة أو إهماله التعبير عن مشاعره تجاهها.

فواصلي المحاولة مع زوجك وانظري إليه بعين جديدة منصفة تضع سعادته كإنسان اخترته بملء إرادتك أيضا وسعادة طفلتك في الاعتبار، فلقد حسم مجيء الطفلة الأمر ولم يعد هناك مجال للاختيار أو الوقوف طويلا أمام الاعتبارات العاطفية واستعيني بالطبيب النفسي على التخلص من الرواسب الاكتئابية التي مازالت مستقرة في أعماقك من سكنى «بيت النار»، واذكري نعمة الله التي أنعمها عليك وعندها سوف تتغير أشياء كثيرة في روحك وأعاقك.. وسوف تقتربين من السعادة والرشاد بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخديعة

أنا شاب في الخامسة والثلاثين من عمري نشأت في أسرة طيبة بالجنوب وحيدا بين ثلاث شقيقات، ففزت بنصيب الأسد من حب ورعاية أبويّ وشقيقاتي، ونعمت بجو أسري صالح طوال فترة تعليمي حتى تخرجت في الجامعة وعملت في مدينتي بالجنوب في وظيفة مرموقة، وخلال دراستي الجامعية لم تكن لي أية علاقة بالجنس الآخر، وبعد تخرجي وعملي بدأ أبي وأمي يلحان عليّ في الزواج ليسعدا برؤية أولادي في حياتهما، وبدأت أمي ترشح لي الفتيات الملائمات فوافقت على إحداهن وخطبتها وكانت علاقتي بها هي أول صلة لي بعالم الجنس اللطيف، ولم تستمر الخطبة طويلا فقد انتهت بالفشل بسبب اتهام أمي لخطيبتي بمحاولتها السيطرة عليّ. وانطوت هذه الصفحة من حياتي. ونسيت التجربة بعد شهور وركزت جهدي في عملي وتشاغلت به، وتزوجت آخر شقيقاتي فخلا البيت إلا من أبي وأمي ومني. وذكرني أبي يوم زفافها ودموعه تترقرق في عينيه بأمنيته القديمة في أن يرى أحفاده من ابنه الوحيد قبل أن يسبق إليه الأجل، ووعدته خيرا. ولم يمض على هذا الحديث شهران إلا وكان الأجل قد وافاه فعلا رحمه الله.. كأنما كان يستشعر اقترابه منه. وعشت مع أمي وحيدين في مسكننا وازددت انشغالا بعملي لأهرب من إلحاح أمي عليّ بالزواج. وذات يوم عدت من عملي فوجدت باب شقتنا مفتوحا وتخوفت من ذلك ودخلت منزعجا فوجدت إحدى جاراتنا ومعها ابنتها الشابة وابنها الصغير مع أمي وعرفت منهم أن أمي قد فاجأتها إغماءة بسيطة وهي تفتح الباب لأمر من أمور البيت، فأسرعت إليها الجارة الطيبة التي كانت تصعد السلم وسندتها ونادت ابنيها ليعيناها على إعادتها لمسكنها، واستدعوا لها الطبيب وبقوا معها ليطمئنوا عليها. وشكرتهم بحرارة على ما فعلوا واستردت بعض اطمئناني على أمي، وتعرفنا منذ ذلك اليوم على تلك الأسرة الطيبة. وحاولت رد جميلها بالاهتمام بابنها الصغير ومساعدته في دروسه بإعطائه درسا أسبوعيا بلا مقابل، وخلال دروسي له أعجبت بشقيقته ذات الجمال الهادىء والحجاب الرقيق، وأعجبت بتدينها ومحافظتها على صلاتها ففاتحتها بعد شهور بإعجابي وحبي لها وفاتحت أمها برغبتي في الزواج منها ورحبت بى كما رحبت أيضا أمي وتمت الخطبة سريعا وسط سعادة الجميع وتزوجنا وسعدنا معا بحياتنا.. لكن الشهور الأولى مضت بغير أن تحمل زوجتي وبدأت أمي تلح عليّ في السؤال عن أخبار الحمل والإنجاب وأتهرب من أسئلتها وأطالبها بألا تجرح مشاعر زوجتي بسؤالها.. ولكن هيهات لقلب الأم أن يتخلى عن هذه الطبيعة. وهكذا عرفت حياتنا الهادئة المشاكل بسبب كلام أمي مع زوجتي عن الحمل والإنجاب، وطلبت زوجتي مني أن تعرض نفسها على الطبيب، فرفضت ذلك نأيًا بنا عن المشاكل، لكن المشاكل لم تفارقنا بل تزايدت بين أمي وأسرة زوجتي بسبب هذا الموضوع. وبعد تردد طويل اتفقت مع زوجتي على أن أذهب إلى طبيب مختص وتذهب هي إلى طبيبة متخصصة، فإذا تبين لنا أن أحدنا غير قادر على الإنجاب، فإننا نحتفظ بهذا السر فيما بيننا ولا نطلع عليه أحدا مهما حدث. وذهبت إلى الطبيب وأجريت الفحوص والتحاليل. وجاءت نتائجها بمفاجأة

قاسية لي هي عدم قدرتي على الإنجاب، رغم تمتعي بكل مقومات الرجولة. وترددت ماذا أفعل بما عرفت؟! وقررت بعد تفكير طويل ألا أخبر زوجتي بهذه الحقيقة إلى أن تنتهي هي من فحوصها وتحاليلها. ثم عدت ذات يوم إلى مسكني فوجدت زوجتي تبكي وأسرعت تخفي عني دموعها حين شاهدتني، وفسرتها بأن أمها مريضة وفي حالة سيئة، وحمدت الله أن زوجتي لم تسألني عن نتائج تحاليلي وتجاهلت أنا الموضوع وإن كنت قد أحسست بأنها تخفي عني سرا لا أعرفه.. وبعد أسابيع قليلة توفيت أمها إلى رحمة الله، ومضت شهور قليلة ثم عدت إلى بيتي فلم أجد زوجتي. وعرفت أن أمي قد زارتها فحدثت مشكلة جديدة كالعادة بسبب إيلامها لها بحديث الحمل والإنجاب، وأسرعت إلى بيت أسرة زوجتي فقابلتني لأول مرة بطلب الطلاق، وسألتها عن السبب، فأجابتني بأن التحاليل قد أثبتت عدم قدرتها على الإنجاب.. وأنها أخفت عني هذه الحقيقة المؤلمة حتى لا تصدمني، وكانت تتعذب بالتساؤلات الصامتة في عيني عن نتيجة الفحص، وإزاء كرم أخلاقي معها وعدم سؤالي لها عن النتيجة حرصا على شعورها.. فإنها تريد لي ألا أرتبط بمن لن تهبني الأبناء.. وتريد لنا أن نفترق لأبدأ حياتي مع غيرها بالرغم مما تكنه لي من حب كبير.

لقد كان هذا ما واجهتني به زوجتي يا سيدي. فهل تدرى بماذا أجبتها عليه؟.. لقد كان المفروض أن أهون عليها آلامها وأصارحها بأنني أيضا غير قادر على الإنجاب، وأن هذه هي إرادة الله وعلينا أن نعيش حياتنا معا ونسعد بحبنا وعشرتنا الجميلة بلا أي إحساس بالذنب عندي أو عندها، لأن كلينا في «الهوا سوا»، كما يقولون، لكني لم أفعل ذلك بكل أسف ولا أعرف حتى الآن سر هذه النزعة الأثمة التي دفعتني لأن أكتم عنها ما أعرفه عن نفسي، وأمثل عليها دور الزوج المضحي الذي يتمسك بزوجته ويتخلى عن حلمه في الإنجاب من أجلها.. وفعلت ذلك كله، وقلت لها بلهجة الشهامة أنني سأقف إلى جوارها إلى أن تعالج وتشفى وتستطيع الحمل والإنجاب بإذن الله، وأنني لا أريد منها أطفالا وأكتفي بالحب الذي يجمع بيننا وأجد فيه كل تعويض وسعادة. وعجزت عن أن أصارحها بالحقيقة، فقد أبت على رجولتي «وصعيديتي» وتقاليدنا وعاداتنا بأن أصارحها بأنني مثلها غير قادر على الإنجاب. وعدت معها إلى بيتنا وأصبحت أغضب من أمي غضبا شديدا وأقاطعها حين تعايرها بعدم الإنجاب، إلى أن تسترضي زوجتي، وتفانت زوجتي من ناحيتها في محبتي وحنانها بي وسعدت جدا بحياتي معها بالرغم من نسياني أحيانا تقمص شخصية الزوج المضحي وإفلات لساني بعبارة عابرة أتشهى فيها الأطفال قبل أن أستدرك سريعا مؤكدا لها أن بيتنا هو جنة للسعادة بغير متاعب الأطفال.

والحقيقة التي أصارحك بها الآن يا سيدي هي أنني لا أستطيع أن أستمر في أداء هذا الدور للنهاية.. ولا أستطيع أن أراها تتعذب بإحساسها بالنقص وتأنيب الضمير وتقصيرها في إسعادي بالأولاد.. وأحزن كثيرا لرؤية نظرة الانكسار مستقرة دائما في عينيها حين تنظر إليّ ساهمة.. كما لا أستطيع رؤيتها وهي تغفر لي كل شيء وتصبر على عصبيتي معها أحيانا مهما فعلت، لإحساسها بأن لي

«فضلا»، عليها.. وقد زاد الأمر سوءا أنها واصلت العلاج منذ ذلك الحين بصبر وبلا كلل وبغير أن تتخلى لحظة واحدة عن الأمل في استرداد قدرتها على الحمل والإنجاب، وطوال السنوات الماضية كنت أراها دائما على موعد مع الطبيبة.. أو مع معمل التحاليل.. أو لأخذ حقنة وأدوية.. أو لإجراء عمليات جراحية، وكل ذلك وهي تطالبني من حين لآخر بالا أتحمل هذا الحرمان، وأن أطلقها وأتزوج غيرها.. فأرفض وأكاد أصرخ في وجهها معترفا لها بالحقيقة المرة. وهي أني لست صاحب فضل عليها، بل أنا محروم مثلها من الإنجاب، ولا أمل لي فيه معها أو مع غيرها، لكي تهدأ وتستريح وتهدأ أيضا أمي وتستريح من معايرة زوجتي وكيل الشتائم لها، ومن ترشيح عروس جديدة كل يوم لي لأتزوجها وأنجب منها، وأملأ البيت بالأطفال كما تريد.

لقد اصطحبتها معي لأداء الحج والعمرة.. لكني أحس بأن الله سبحانه وتعالى لم يتقبل مني لأني إنسان مخادع أظلم زوجتي وأقابل كل هذا الحب الكبير منها بالكذب والخداع وادعاء الشهامة.

فإذا سألتني لماذا أصارحك أنت الآن بكل ذلك.. وهل استيقظ ضميري متأخرا.. فإني أجيبك بأن ضميري متيقظ منذ البداية، لكنه جبان.. أما ما جعلني ألجأ إليك لأستشيرك في أمري فهو أن العلاج قد بدأ يؤتي ثماره مع زوجتي، وبدأت تستجيب له كما تقول.. وما يشغلني الآن هو ماذا أفعل حين يتحقق لها الشفاء وتصبح قادرة على الإنجاب؟

إنني لا أطيق مواجهة زوجتي بالحقيقة، ولا أحتمل في نفس الوقت فراقها.. وهو من حقها لكي تنجب من غيري إذا أرادت ذلك، وقد فكرت مع تحسن تحاليلها وازدياد احتمالات نجاح علاجها، أن أختلق معها مشكلة من أي نوع ثم أطلقها لتتزوج غيري وتنجب الأطفال، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك وهي كل حياتي، كما أنها لن تغفر لي ما فعلت بها إن صارحتها بالحقيقة بعد كل ما تجرعته من ذل وهوان لعدة سنوات على يد أمي بسبب هذا الأمر.. فاذا أفعل يا سيدى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: يا صديقي لقد أفسدت قصة جميلة لزوجين شابين متحابين علما أن الله لم يرد لهما معا الإنجاب، فتساندا في مواجهة الحياة وتعاطفا وازدادا امتزاجا بعد أن تأكد كل منهما أنه الشريك المثالي لصاحبه.. ونصفه الصحيح الذي لا يكتمل إلا به فلماذا أفسدت هذه القصة الجميلة التي جبرت بها الأيام نقص كل منكما؟.. ولماذا استسلمت لنزعتك الغريبة هذه لتقمص شخصية الزوج المضحي الصابر على نقص زوجته لكي تستحوذ عليها وتتملكها وتتسيدها وتجتني منها عطاء عرفان أنت أول من يعرف أنك لا تستحقه. ثم وأكثر من ذلك ترضي لزوجتك بمعاناة الإحساس المرير بالنقص تجاهك وهي في غنى عنه، وبتحمل الأذى من أهلك وفي مقدورك بشهادة حق يطالبك واجبك ودينك ألا تكتمها، أن ترفعه عنها.. لقد قال أحد الصوفية «إن الحب هو ايثار المحبوب على

نفس المحب»، وأنت يا صديقي لم تؤثر من تحب على نفسك. بل ولم ترض لها بالعدل الذي تتساويان فيه معا في أمر لا حيلة لأحدكما فيه.. ولا عيب، وكل ذلك لأنك توهمت خطأ أن معرفة الحقيقة تنقص من قدرك.. وتمس رجولتك، مع أن الجميع يعرفون أنه لا علاقة فسيولوجية للرجولة أو الأنوثة بالقدرة على الإنجاب أو بالحرمان منها، وأن ناقص الرجولة قد ينجب ومكتملها قد يكون محروما من الإنجاب، وأن كل ذلك أقدار مقدورة لا فضل لأحد فيها ولا جريرة.

ولأن كل شيء يعرف بعد حين.. وليست هناك خديعة يمكن أن تستمر للأبد، فلقد جاء الوقت العصيب الذي لابد فيه من كشف المستور مهما أجهدنا أنفسنا في إخفائه. وفى ذلك فإن أمامك طريقين لك أن تختار منها ما يتوافق مع مبادئك.

الأول: هو أن تتخلص من الإثم الذي تتحمله الآن بلا مبرر وهو إثم كتمان الشهادة والنكوص عن إنصاف مظلوم تستطيع إنصافه، وكتمان الشهادة إثم عظيم كما تعلم، فإذا أردت أن تتخلص من عبئه أمام ربك أولا فصارح زوجتك بالحقيقة كاملة واطلب صفحها وفهمها لضعفك البشري، ولعجزك عن مواجهة الموقف في حينه بين أسرتك في مجتمعك مع تسليمك الكامل لخطئك في حقها وسكوتك عن معاناتها الطويلة. وخيرها بعد ذلك الصفح وتجاوز المرارات وبدء صفحة جديدة من حياتكما لا انكسار لأحد فيها تجاه الآخر ولا ادعاء للفضل أو الشهامة من طرف تجاه طرف، ولا إذلال لها فيها من أهلك ولا معايرة، وبين أن تنال حريتها وترى رأيها في حياتها بملء إرادتها لأن إخفاء نقص جوهري في شريك الحياة كنقص القدرة على الإنجاب عن الآخر، يعطيه الحق في الانفصال عنه إذا أراده.

وفى هذه الحالة.. فإنها إما أن تصفح عنك بطبيعتها المتسامحة العطوف، حتى ولو تغيرت النفوس لفترة تطول أو تقصر، وعاتبتك عتابا مؤلما على صمتك على إذلالها طوال السنوات الماضية وتحملت أنت لومها وعتابها بل وغضبها وربما هجرها لك لفترة قصيرة.. ثم تبدآن بعد ذلك حياة سوية خالية من الادعاء والمن بشهامة لا مبرر لها من جانبك، ومن الانكسار ومعاناة الإحساس بالنقص.. والذل من جانبها ولا يكون فيها لأحد فضل على الآخر إلا بالحب وحسن العشرة وجميل الرعاية، وإما أن تعجز هي عن الصفح والغفران.. والتخلص من المرارة.. وتطلب الانفصال.. وفي هذه الحالة لابد أن تجيبها لما تطلب على أمل الإصلاح في المستقبل.. أو بلا أمل إذا تمسكت بها أرادت للنهاية.

ولا عجب في ذلك يا صديقي، لأن هناك دائما «ثمنا» يدفعه الناس لأفعالهم وليس من حقهم أن يتشكوا منه أو من فداحته في بعض الأحيان. لكني رغم ذلك آمل أن تتجاوز زوجتك مراراتها.. وتتفهم تأثير بعض تقاليد مجتمعك ونشأتك وحيدا بين شقيقات عليك في عجزك عن مواجهة الحقيقة التي تصورت أن بها مساسا برجولتك. كما آمل ألا تفرط فيك وقد كانت عشرتكما في مجموعها يظللها الحب بالرغم من خطئك في حقها، والحب كما يقولون يا صديقي.. رب غفور ينسى الإساءة مهما عظمت بعد حين، ويصفح عن المخطئين .

أما الطريق الثاني: فهو الطريق «البراجماتي» العملي الذي يبرر الغاية بالوسيلة ويعتمده البعض في سلوكياتهم رغم تصادمه مع المثاليات والمبادئ وبمقتضاه تستطيع أن تجري علاج زوجتك، ثم «تفاجأ» بعدها بالحقيقة القاسية، وتشرك زوجتك فيها وتستمتع بمواساتها وتعاطفها معك، وتواصل خداع نفسك وخداعها. وفى هذه الحالة فإن زوجتك سوف تتخلص أيضا من انكسارها وروحها الذليلة.. لكنك لن تتخلص أنت من وزر ظلمك السابق لها.. ولن تستريح من وخز الضمير بل ولن تستمتع بحياتك معها استمتاعا صافيا، لأن الضمير كما يقول الروائي الأمريكي تيودور درايرز «إذا لم يمنع الإنسان أحيانا من ارتكاب الخطيئة، فإنه أبدا لا يسمح له بالاستمتاع بها».

ولهذا فإني أنصحك بالطريق الأول.. مهما كانت تبعاته، لأنه طريق الصحة النفسية ولأن الخديعة هي أضعف أساس لبنيان الحياة الزوجية، ولأنك تنال به عفو ربك قبل أن تطمح لعفو زوجتك، ولأن راحة القلب لا تتأتى إلا براحة الضمير وتخلصه مما يؤرقه فتحمل أقدارك بشجاعة وتخلص من هذا القيد الذي ينغص عليك صفو الحياة، ولن تكون النتائج في النهاية أفظع من أن تحتمل، فحتى لو لم يصف لك قلب زوجتك، فإنك تستطيع أن تبدأ حياتك مع غيرها إذا أرادت ذلك بلا خديعة.. ولا إحساس بالنقص.. ولا تعذيب للضمير.. وظني بعد كل ذلك أن زوجتك لن تضحي بك.. لكنها فقط ستتخلص من أسر الشعور بالدونية.. والانكسار، وماذا يضيرك في ذلك والإنسان لا يسعد حقا بمشاركة من يشاركه الحياة عن قهر وقلة حيلة وانعدام للبديل.. وإنما يسعد بمن يشاركه حياته عن ارادة حرة وثقة واختيار.

إن هذا هو ما أختاره لك يا صديقي.. أما التشكي من وخز الضمير بلا تحرك للتخلص مما يؤرقه فهو ما ينطبق عليه قول ابن المقفع:

لا يتم حسن الكلام إلا بحسن العمل، كالمريض الذي علم دواء نفسه ثم لم يتداو به فلم يغنه علمه بالدواء عن مرضه شيئا!

وأنت قد علمت دواءك يا صديقي فلماذا لا تتداوى به وتتحمل مراراته على أمل السعادة وراحة الضمير إلى آخر العمر إن شاء الله؟؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الصندوق المغلق!

لا أعرف لماذا أكتب إليك ولا ماذا أريد منك، لكني أحس بأنك قريب مني بشكل ما وأنك ستعطيني من اهتمامك وفهمك ما قد لا أجد حولي فأنا شاب أو رجل في الثانية والأربعين من عمري نشأت بين أبوين طيبين وتخرجت في احدى الكليات وساعدتني الظروف على العمل بهيئة عامة مرموقة، وكان أبي بعيد النظر.. فاقتطع من قوته ما دفعه كمقدم بسيط لشقتي تمليك لي ولأخي الوحيد في منطقة كانت وقتها نائية في المعادي وظل يدفع أقساطها بصبر وجلد إلى أن تخرجنا وعملنا وتحملنا عنه عبء باقي الأقساط وشكرنا له نحن ذلك وتعاونا معه على جهاز شقيقتنا الوحيدة حين تزوجت ونجحنا بفضل الله وبالحب الذي يجمع بيننا في أن نزفها إلى زوجها بأفضل مما تسمح به امكانياتنا، ويكفي أن أقول لك أنني وشقيقي ظللنا ثلاث سنوات بعد عقد قرانها ندفع مع أبي أقساط الأثاث والديون ولا يبقى لي ولشقيقي من مرتباتنا سوى تكاليف المواصلات وربما ثمن الشاي والقهوة في العمل. ولم يشعر أحد من الأهل والأقارب بما نحن فيه من ضيق وتكفينا سعادة أختي مع زوجها الفاضل ونظرة الحب والعرفان في عينيها واهتمامها بنا، ودعوات أبي وأمي لنا في الغدوة والروحة، واطمئنان ضميرنا إلى أننا قد أدينا واجبنا. ثم خطب أخي شقيقة أحد أصدقائنا وفعلت معه ما فعلت مع شقيقتي من قبله فظللت لمدة عامين أسلمه مرتبي أول الشهر ما عدا مبلغا بسيطا للمواصلات والنثريات وهو يكتب كل ما يأخذه مني في «النوتة»، لأنه كما قال ليس مسؤولا مني كشقيقتنا وإنما هي ديون سوف يؤديها إلى حين ميسرة، وتزوج شقيقي وهو في السابعة والعشرين وسعد بحياته الجديدة وأكرمني الله بعمل إضافي في شركة خاصة فدر عليّ أكثر من ضعف مرتبي من الوظيفة وعوضني عن الحرمان الذي تحملته خلال السنوات الماضية وأراد أخي بعد زواجه بعام أن يبدأ في تسديد دينه لي فرفضت لأن زوجته حامل وطلبت منه أن يدخر ذلك إلى أن أتزوج وأحتاج إليه فسألني: ومتى تتزوج يا أخي؟ ووجدت نفسي أتأمل السؤال نعم لماذا لم أتزوج وقد قاربت الثلاثين؟ لقد أمضيت سنوات الجامعة والعمل بغير أن تكون لي أي تجربة عاطفية ورغم شخصيتي الاجتماعية.. وروحي المرحة. ولقد تقربت مني أكثر من زميلة خلال الدراسة وبعد العمل لكني لم أتجاوب مع إحداهن وحين تزوج شقيقي الأصغر أحس أبي وأمي بالقلق تجاهي وعرضا عليّ أكثر من فتاة مناسبة فكنت أرى كل فتاة وأحس بأن قلبي صندوق مغلق أمامها فأعتذر إلى أن يئسا مني. وازداد انشغالي بعملي بالشركة الخاصة وتضاعف دخلي منه فحصلت على أجازة بدون مرتب من وظيفتي وتفرغت له، وكان عملي هذا يفرض عليّ إنهاء بعض المعاملات مع جهات مختلفة فكان الله يعينني على إنهائها بحسن تعاملي مع الناس وكثرة أصدقائي واستعدادي الدائم لخدمة الآخرين وكلما وفقني الله في إنهاء معاملة صعبة كافأني عليها صاحب الشركة مكافأة مالية كبيرة وعلا قدري عنده حتى أصبحت خلال عدة سنوات رئيسا لإحدى إدارات الشركة. وتحسنت أحوالي المالية

واشتريت سيارة صغيرة.. وبدأت في إعداد شقتي الخالية بالمنطقة التي كانت نائية استعدادًا ليوم أتزوج فيه.

وبلغت الثلاثين ولم ينفتح بعد الصندوق المغلق لأية فتاة، ثم أرسلني صاحب العمل لإنهاء معاملة هامة في إحدى الهيئات العامة المرموقة فلاحظت تعنت المسؤول الأكبر عنها في تعقيدها رغم وضوح الحق فيها.

وكنت أنهي معاملاتي ببركة دعاء الوالدين وبالمجاملات والخدمات البريئة لمن يساعدني فيها.. أما الرشوة فلا وألف لا. وحين شممت في الحكاية رائحة غير مريحة رجعت إلى صاحب العمل وطالبته بأن يتحرى حقيقة الأمر مع هذا المسؤول أو يوكله إلى غيري.

وأعفاني الرجل مشكورا من المهمة.. ونسيتها وبعد حوالي شهرين فوجئت بصاحب الشركة يستدعيني إلى مكتبه ويقدم لي فتاة تجلس أمامه بشيء من الكبرياء ويقول لي أنها موظفة جديدة في إدارتي ويطلب منى تعليمها والاهتمام بها، فرحبت بها وطلبت منها النهوض معي فخرجت واستبقاني صاحب الشركة ليعطيني فكرة سريعة عنها.. فإذا به يقول لي أن هذه الفتاة هي «الأمر» الذي شككت أنا فيه عندما تعسرت في إنهاء تلك المعاملة مع الهيئة السيادية الكبرى منذ شهرين، فهي ابنة المسؤول الكبير عنها وقد أراد تعيينها وتم ذلك وبمرتب مضاعف، لكنها مدللة وعصبية وقد تشاجرت مع رئيسها فرشحها للعمل معي لما يعرف عني من طول بال وصبر إلى أن تنتهي معاملاتنا مع تلك الهيئة أو يحال رئيسها إلى المعاش قريبا فيفقد قدرته على عرقلة أعمالنا!

وعدت لمكتبي واستدعيت الفتاة وتلطفت معها في الحديث واخترت لها عملا سهلا .

وبعد يومين أو ثلاثة فوجئت بها تدخل عليّ ثائرة لأن أحد الزملاء أهانها، وأبدى ملاحظة على عدم دقتها في العمل.. فردت له الصاع صاعين ولفت نظرها بحزم إلى أنه لا يصح لها أن تجيب بهذه العصبية على زميلها فانصرفت غاضبة، ولم آبه لها ولاحظت أنها فضلا عن جرأتها وشراستها مع الزملاء غير ملتزمة بمواعيد العمل وكنت أعرف أنه لا فائدة من أن أشكوها لصاحب العمل لأنه لن يتخذ ضدها أي إجراء للأسباب المعروفة، فحاولت أن أحافظ على نظام العمل بأن ألومها بحزم على عدم الالتزام بالمواعيد فتلتزم أياما ثم تعود للاستهتار إلى أن وجدت نفسي ذات مرة أكاد أرجوها أن تلتزم بالمواعيد مراعاة لعدم إحراجي شخصيا وحتى لا تثير حقد الزملاء المطحونين عليها.. ففوجئت بها تقول لي بجرأة علشان خاطرك أنت بس. واحمر وجهي، أما هي فلم يهتز لها رمش ثم غادرت مكتبي وهي تشير لى بيدها كما يفعل الاصدقاء في النادي.. هاي!

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أول من يحضر إلى المكتب.. وآخر من يغادره وبالتزام مثالي بمواعيد العمل.. وبما يطلب منها أداؤه وحمدت الله أن استطعت حل مشكلتها لكني بدأت أشعر بأن مشكلتها مع العمل قد انتقلت إلى مكان آخر.. هو ذلك الصندوق المغلق الذي لم ينفتح لفتاة قبلها فلقد أحببتها واعترفت لنفسي بذلك

بعد إنكار واستنكار طويل، فهي من وسط عائلي ينتسب أو يدعى الانتساب لأهل النفوذ والسطوة في المجتمع وأنا من وسط عائلي عادي لا يعرف القوة ولا النفوذ وهي جريئة عنيدة مدللة.. قوية الارادة إلى حد مخيف.. ترتدي ما يروق لها من ملابس ولا يهمها رأى الآخرين فيها وتفعل ما تشاء حين تشاء بلا تردد وطموحها بلا حدود وأنا شاب بسيط خجول متدين باعتدال، أبي مدير بالمعاش وأمي جامعية قديمة ودنياي بسيطة وهادئة..

لكن الصندوق المغلق انفتح يا سيدي على مصراعيه فقد جاءتني بعد فترة وسألتني عن رأيي في التزامها في العمل فأجبتها بأني مذهول لاستجابتها فقالت لي ببساطة: هكذا أنا دائما لا يستطيع أحد أن يفرض عليّ شيئا إلا بالحب.. وأنا أحببتك!

ووجدت نفسي غارقا في هذه القصة التي لم أتوقعها ذات يوم.

وعرضت عليها كل ظروفي ومخاوف من الفروق الاجتماعية الكثيرة بيني وبينها وبين طريقتي في الحياة وطريقتها.. فهزأت بكل شيء وأكدت لي أن الحب يهد الجبال

واستشرت صديقي الأول وهو شقيقي فغاب عنى أسبوعا أو أكثر وجاءني بنتيجة استقصائه عنها وكانت خلاصة رأيه بعد التحريات أنها لا تصلح لي ليس فقط للفروق الاجتماعية بيننا وشخصيتها الجريئة ولكن لأنها أيضا متقلبة المشاعر ولها عدة تجارب عاطفية سابقة بدأت كلها من جانبها وانتهت كلها من جانبها أيضا!

ونصحني شقيقي بالابتعاد عنها.. ولكن هيهات للغريق أن ينجو من قدر محتوم، فسرت في طريقي ورغم تحفظ أبي وأمي وشقيقتي بتأثير أخي إلا أن الجميع تمنوا لي السعادة مخلصين.. وبدأت خطوات الزواج وعانيت من صلف والد فتاتي وأمها مالم أكن أتصور أني سأواجهه ذات يوم، وفوجئت بمطالب تعجيزية من جانب أبويها رغم وقوف فتاتي في صفي.. واستنفدت كل ما ادخرته وأنجدني شقيقي برد دينه وزاد عليه إقراضي مبلغا كبيرا وتعاون أهلي معي في الحفاظ على مظهري أمام أسرة فتاتي التي بدا من الواضح أنها لم ترحب بي.

وتزوجنا والحمد لله في شقة المعادي. ونهلت من نبع السعادة البكر التي لم أعرفها من قبل، وبدلا من أن ينتهز صاحب الشركة فرصة انتهاء معاملاتنا مع الهيئة التي يعمل بها والد زوجتي لمضايقتها في العمل حتى تضطر للاستقالة من نفسها كما هو المتبع في مثل هذه الحالة إذا لم تكن مفيدة للعمل، أصدر قرارًا بزيادة مرتبها إكراما لي ونقلها لإدارة أخرى في موقع آخر.

وبعد عامين أنجبت حبيبتي طفلنا الأول ومضت الحياة حلوة جميلة. حتى رغم «غلاسة» صهري وتكبر بعض اهل زوجتي بلا مبرر وتذكرت تحذيرات المحذرين وحمدت الله أنها لم تصح.

وبعد انتهاء أجازة الولادة عادت زوجتي للعمل، وبعد فترة لاحظت أنها ضيقة الصدر برعاية طفلنا مع ظروف عملها فعرضت عليها أن ندعه لأمي وأبي بعض الوقت فرحبت بذلك وأصبح الطفل يمضي كل أيام الأسبوع في رعاية أمي ولا تستعيده زوجتي إلا يوم العطلة.. وبعد فترة. أخرى بدأت أسمع من زوجتي لأول مرة تأففا من ضيق معيشتنا رغم أنني أضع كل ما أكسبه من عملي وهو كثير في يدها.

وضاعفت من ساعات عملي حتى أصبحت لا أكاد أتوقف عن العمل لأحصل على دخل أكبر ومكافآت أكثر، وكلما حصلت على مبلغ جديد أسرعت به إلى زوجتي الحبيبة لعلها ترضى. وحدث بيننا نقاش بسيط لم أقل فيه سوى أنني لا أدخر جهدا لكي أكسب كل ما أستطيع كسبه من حلال لأوفر لها الحياة التي تريدها، فإذا بزوجتي تغضب لذلك وتترك البيت إلى بيت أبيها بحجة أنها تحتاج إلى فترة لإراحة أعصابها، وسألتها إن كانت تفضل أن تصطحب معها ابننا فرأت إبقاءه مع أبويّ، وعدت إلى بيت أبي وأمي واكتشفت أني محروم من رؤية ابني معظم الوقت فالتصقت به وبدأت أؤدي له كل ما يحتاج إليه من شئون، وأنام وأنا أحتضنه.. ومضى أسبوع ثم أسبوعان.. وكاد الشهر ينتهي ولم يجتمع شملنا بعد، وكنت خلال ذلك أتصل بها وأزورها من حين لآخر فأجدها مرات ولا أجدها مرات أخرى..

ثم عادت بعد شهر كامل.. وعدنا لحياتنا معا وعدنا لحياتنا معا مع اختلاف واحد هو أني أصررت على عودة طفلنا إلينا لأني لم أعد أحتمل بعده عني، ووافقت زوجتي على مضض بعد أن أكدت لها أني سأقوم بكل شئونه ولم أقصر في إرضاء زوجتي.. لكني أحسست رغم ذلك أن شيئا ما في روحها قد تغير إلى الأبد.. فهي واجمة معظم الأوقات.. شديدة العصبية.. لا تكاد تتحمل مداعبة طفلها لها أو صوت بكائه إذا بكى كما أنها أصبحت تنفر من اقترابي منها، وطلبت مني أن أنام مع الطفل في غرفته لأرعاه في الليل بدلا منها لأن أعصابها مرهقة!

وكل ذلك وزوجتي ترضى أحيانا قليلة فتبهج أيامي بقدرتها السحرية على خلق السعادة حين تريد ذلك، وترجع إلى صمتها ووجومها في معظم الأحيان.. فأعود للانزواء مع ابني في غرفتنا ننتظر الفرج من السماء!

وشيئا فشيئا لاحظت كثرة خروجها منفردة.. وكثرة تليفوناتها الغامضة واختفاءها من العمل في فترات كثيرة مع عدم وجودها في بيت أسرتها.. وبدأ الشك يساورني تجاهها فبدأت أراقبها وأنا أدعو الله أن يخيب فيها سوء الظن.. ولاحظت ملاحظات مؤلمة أحالت نهاري إلى جحيم وليلي إلى عذاب طويل وصارحتها بشكوكي وملاحظاتي على أمل أن تطمئن قلبي وتنفيها لأستريح.. فهاجت هياجا مدويا أتبعته بترك البيت غاضبة. وانحنيت على ابني الوليد المحروم من أمه منذ ولادته تقريبا وأفرغت فيه عاطفتي المكبوتة وفوجئت بعودتها بعد أسبوعين على غير انتظار، غاضبة أيضا كما خرجت وترفض مجرد الحديث معي، وزادت شكوكي لأنها شديدة الكبرياء ولابد أن وراء عودتها من تلقاء نفسها أمرًا لا أعرفه وبدأت أضيق عليها الخناق في الخروج ليلا وذات صباح خرجت إلى العمل

وكانت منذ نقلها إلى موقع آخر قد اشترت بمساعدتي سيارة صغيرة قديمة لتذهب بها إلى عملها، فركبت سيارتها.. ونزلت بعدها بدقائق وركبت سيارتي وتابعتها عن بعد ففوجئت بها تسير في طريق بعيد عن طريق عملها ثم رأيتها تتوقف في شارع خال من المارة ثم تنزل من سيارتها وتغلقها وتتجه إلى سيارة أخرى واقفة بجوارها ويجلس فيها شاب لا أعرفه ثم ركبت بجواره وبدأ يتحرك بالسيارة وهما يتبادلان الضحك والابتسام والنظرات الرقيقة.. وهي تسوى له شعره وهو يضع يده على شعرها ويداعبها بيده في خدها وهي ترد له المداعبة وانتهزا فرصة خلو الشارع من المارة في الصباح وتبادلا قبلة سريعة، ففقدت كل ما تبقى لي من عقل ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ بأعلى قوتي وأنا في سيارتي وأبكي بدون وعي ولا إرادة وأندفع تجاهها أريد أن أصدمهما وأموت ويموتان معي، ولست أعرف ماذا حدث على وجه الدقة وقتها، فلقد اندفعت إليها فأحسا بي ورأتني زوجتي فصرخت.. وتفادى الوغد صدمتي لا أعرف كيف فصدمت الحائط وغبت عن الوعي، وحين أفقت وجدت نفسي في المستشفى القريب وبجواري أبي وشقيقي.. ولم أصب بشيء خطير فلقد غبت عن الوعي من الصدمة العاطفية وليس من صدمة السيارة وعدت مع أبي وشقيقي لبيتي وأنا أحس بالانكسار والخزي والعار واحتضنت ابني الصغير وبكيت بمرارة. وحصلت على أجازة من العمل واعتصمت بالبيت لا أريد أن أغادره حتى لا أرى أحدا ولا يراني أحد.. ولم يسألني أحد من أسرتي عن زوجتي الغائبة لكنهم أحسوا بأن هناك شيئا يتعلق بها. وبعد 3 أيام من جلوسي صامتا محتضنا ابني في صدري معظم ساعات النهار والليل صارحت أبي وشقيقي بالحقيقة المرة وهي أنه لم تعد لي حياة مع هذه الزوجة التي تفانيت في حبها ورعايتها وإرضائها.. فغدرت بي وأحالت حياتي إلى جحيم. وقلت لأبي أني مستعد لإعطائها كل ما تريد إلا شيئا واحدا هو ابني لأنها لم تكن له في يوم من الأيام أمًا ولن تكون. وطلقتها وأعطيتها مختلف حقوقها ما عدا حضانة الطفل. وبدأ أبوها يهددني ويستخدم نفوذه في استدعائي كل يوم إلى قسم الشرطة بتهمة خطف ابني. وبدا «الآخر» شريك واقعة السيارة وهو من أهل النفوذ أيضا يستعرض عضلاته أمام شريكته في الجرم المشهود، وبدأ يتفنن في تلفيق التهم لي لتنغيص حياتي وإجباري على الرضوخ لها لكني صمدت لكل ذلك.. وأصبحت كالمطارد أتنقل مع ابني بين شقق الأهل والأصدقاء حتى إذا جاءت الشرطة إلى بيتي لم تجدني ولم تجد الطفل، وعلى هذا الحال عشت عامين طويلين بعت خلالها شقة الزوجية المنهارة واشتريت شقة أخرى في حي بعيد، وتوفى أبي رحمه الله خلال فترة المطاردة فبكيته بالدمع السخين، وضممت أمي إلى مسكني الجديد مع ابني، ثم هدأت الزوابع حولي لأن زوجتي السابقة تزوجت ذلك الشخص الآخر ففقدت حماسها لاسترداد ابنها مؤقتا وخاصة أن مشاعرها كأم كانت أصلا ضعيفة لكن زواجها لم يطل سوى ستة شهور شهدت كثيرا من الزوابع فقد اصطدمت طبيعتها العنيدة الأنانية المدللة مع طبيعة أشد منها عنادا وصلفا، فلم يستريحا يوما واحدا وتضاربا عدة مرات وتشاكيا للشرطة.. وشكته إلى رئاسته بعد أن أثخنها ذات مرة بالضرب وبالحزام، فنقلته رئاسته إلى منطقة نائية ثم طلقها بعد منازعات مخجلة. فعادت تنازعني في حضانة الطفل وعدت مرة أخرى

لاستدعاءات الشرطة والمحاكم لمدة عام آخر.. ثم هدأت العاصفة من جديد.. لأنها تصالحت مع زوجها الثاني فاشترط عليها ألا تضم إليها ابنها. ومازالت الزيجة الثانية مستمرة بينهما منذ عامين لم يتخللها والحمد لله أية أزمات سوى طلاق آخر والعودة بعده بشهور بحيث لم يبق لها إلا طلاق واحد أدعو الله ألا يتم لكيلا تتذكر، فجأة أن لها ابنا وتبحث عنه ومع أن ذلك لم يعد يخيفني لأن فترة حضانتها له أوشكت على الانتهاء بعد أسابيع.

وأنا يا سيدي أعيش مع ابني هذا وحيدين بعد أن رحلت أمي أيضا إلى رحمة مولاها راضية عني وداعية لي بالسعادة التي حرمت منها.. وقد رتبت حياتي بحيث أكرسها كلها لهذا الطفل المحروم الذي لم يشعر يوما بعطف أمه عليه أو بحنانها، فأصبحت أعود من عملي قبل عودته من المدرسة وأقوم له بكل ما يحتاج إليه من شئون من طعام إلى حمام إلى غسيل ملابس إلى ألعاب إلى أي شيء يحتاج إليه، وفي المساء أذاكر له دروسه وأؤدي معه كل ما يريده من ألعاب فاذا اضطرني عملي للخروج إلى موعد عمل مسائي دخلت إلى المكتب الذي أقصده وابني في يدي وأغادره وهو في يدي لأني أخشى أن أتركه في السيارة فيحدث ما يمكن أن يفقدني ما بقى لي من عقل وحياة، فابني هذا هو حياتي.. وقد وهبه الله شكلا جميلا وروحا طيبة وادعة تنفذ إلى القلوب وطبيعة هادئة وهو لا يسألني عن أمه أبدا وأتجنب بالطبع الحديث المؤلم عنها، وأنتظر الشهور الباقية من انتهاء سن حضانتها له لأسمح لها برؤيته في مواعيد مناسبة وإن كنت أشك في أنها سوف تهتم بذلك.

وقد مضت الآن ست سنوات تقريبا على المحنة التي عشتها خلت خلالها الدنيا من أبي وأمي ولم يبق لي من دنياي القديمة سوى شقيقي وشقيقتي وابني الوحيد، وشقيقي وشقيقتي يلحان عليّ بأن أنسى ما حدث وأتزوج من جديد.. لأمنح ابني المحروم أمًا أخرى بعد أن حرم من أمه الأولى وإخوة يتساند عليهم في الحياة. وأنا أستجيب أحيانا لهذه الفكرة لكني أعود فأفزع منها حين أتذكر صورتي وأنا أصرخ داخل السيارة وأندفع بها في عمل جنوني لأصدم الغادرة والغادر اللذين طعنا قلبي ورجولتي في الصميم.. إنني أنام كل ليلة محتضنا ابني وأفكر هل اختارت لنا الأقدار أن نمضي حياتنا وحيدين معا للنهاية؟ إنني أعرف ان الخير كما تقول دائما في ردودك هو الأصل في الحياة وان الشر هو الاستثناء المفزع وأن الفاضلات من الأغلبية العظمى لكنني أعرف أيضا أن الخيانة قاسية جدا يا سيدي ولا أريد أن أسترجع مرارتها مرة أخرى فبماذا تنصحني أن أفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: أنت يا صديقي تعرف كل ما يمكن أن يقال في مثل هذه الظروف، لكنك رغم ذلك مشفق على نفسك من تكرار المحنة الأليمة وفي البداية لابد أن أقول لك أن مخاوفك هذه منطقية من الناحية النفسية لأن الخبرة المؤلمة التي نتعرض لها تزيدنا إشفاقا على أنفسنا من احتمال تكرارها أو احتمال تعرضنا لها مرة أخرى. لكن هذه المخاوف ليست منطقية من الناحية العملية، لأنه

ليس من العدل أن نحكم على النوع الإنساني كله بتجربتنا الشخصية مع أحد أفراده أو بعضهم كما أنه ليس من المنطق أيضا أن نتصور أننا سنلقى دائما سوء الجزاء ممن نأمن إليهم ولا نحمل لهم إلا الحب والوفاء.

ذلك أن لكل تجربة إنسانية ظروفها الخاصة والعوامل التي أسهمت في إنجاحها أو فشلها، ولا شك أن تجربتك مع زوجتك السابقة كانت مرشحة للفشل منذ البداية لاختلاف الطبائع واختلاف عالم كل منكما وطابع شخصيته عن الآخر.. ولجرأة فتاتك على الاقتحام والانسحاب أو بدء العلاقات وإنهائها بقسوة كما قيل لك بوضوح قبل الزواج ولكن «هيهات للغريق أن ينجو من قدر محتوم» كما قلت أنت صادقا في رسالتك. إذن فسوء الاختيار من البداية هو المسؤول عن النهاية المأساوية وليس أي شيء آخر، ولا شك أن الإغراق في الحب لا يسمح لإنسان باتخاذ القرار السليم بشأن من يحب أو بتقييمه التقييم الصحيح لهذا فإن الحب والمبصر أكثر قدرة على الاختيار السليم من الحب الأعمى، الذي تغيب معه كل القدرة الواعية على التقييم الصحيح. والحياة تصحح أخطاءها بطريقة تدريجية أحيانا فتفرق بين من لم يكن منطقيا أن يلتقموا من الأصل وتجمع بين من كان ينبغي أن تجمع بينهم من البداية وكل ما يأمله المرء هو ألا يكون لهذا التصحيح ضحايا أو آلام تجل عن الاحتمال كآلام تجربتك هذه.. ولاشك أن زوجتك السابقة لم تكن تصلح لك ولا كنت تصلح لها، لكن الكارثة الإنسانية تبدأ حين يصر الإنسان على أن يخالف كل القواعد والأعراف والأصول المتبعة بدعوى أن «القاعدة الذهبية هي أنه ليست هناك قاعدة عامة لأى شيء»، كما قال ساخرا ذات مرة برناردشو.. أو بدعوى أن الحب وحده قادر على أن يهد الجبال كما قالت لك فتاتك في البداية مع أنه لم يثبت حتى الآن أنه وحده قادر للنهاية على حل دائم لمشكلة كمشكلة تنافر الطباع!

والمؤكد أن زوجتك تستحق ذلك «الآخر»، كما يستحقها وأن كلا منهما هو جائزة الآخر أو «عقابه» بمعنى أصح.. ولكل شيء آفة من جنسه!

ولست أدري بعد كل ذلك سببا لتخوفك من تكرار تجربة الزواج رغم حاجتك النفسية والعاطفية إليه. فالحياة لن تكون دائما رحلة متواصلة من العثرات والمحن يا صديقي. وسوء الحظ الذي صادفك في هذه التجربة ليس منطقيا أن يتكرر بنفس التفاصيل لأنك في النهاية لست مستهدفا من الأقدار بحيث تخصك بأن تضع في طريقك وحدك الغادرات والعابثات وإنما هي محنة طارئة عبرت بك كما عبرت بغيرك المحن والخطوب.. وقد صبرت أنت لها إلى أن داوى الزمن جرحك.

وأصبحت الآن مؤهلا لأن تستجيب من جديد لنداء الحياة.. فلماذا الخوف والتردد يا صديقي.. ولماذا تحرم إنسانة فاضلة من حقها العادل في الحياة بإحجامك أنت عن تكرار تجربة الزواج وربما كنت أنت قدرها المقدور؟

فحذار من أن تسمح للشك وسوء الظن بأن يحكما نظرتك للجنس الآخر أو لأي شيء في الحياة وإلا عجزت عن أن تحيا حياة طبيعية ذات يوم، فحسن الظن بالحياة وبالبشر من كمال التوافق النفسي الذي يرشح الإنسان للسعادة والتوافق

مع الآخرين فلا تفقد الآخرين فلا تفقد حسن ظنك بالحياة لمجرد أن غادرة قد وقعت في طريقك ولا تستشعر الخزي أو العار من جراء ذلك.

العار الحقيقي إنما هو عار الغادر وليس عار المغدور به. واعلم أن الخيانة ضد طبيعة الإنسان السوي رجلا كان أم امرأة لأنها خروج على المألوف فاطمئن للغد.. واختر لنفسك ذات الدين والضمير والرحمة تأمن على نفسك وعلى ولدك دائما بإذن الله

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخبر العجيب!

أثارت مواجعي رسالة «الصندوق المغلق»، التي روى لك فيها شاب قصة فجيعته في وفاء زوجته الشابة له وكيف يعيش وحيدا مع ابنه الذي يتعزى به عن الوفاء المفقود، فقررت أن أروي لك أنا أيضا قصتي، منذ 23 عاما رأيت زوجتي لأول مرة وأعجبت بها وتقدمت لخطبتها وتزوجنا وعشنا في سعادة خالصة إلى أن حملت وأنجبت ابننا، وللأسف فقد أخطأ الطبيب المولد وترك في بطنها فوطة من الشاش، فعانت بسببها من مضاعفات عديدة في المعدة، واستمر علاجها عدة شهور واحتاجت هي لأكثر من جراحة أخرى إلى أن شفيت من المضاعفات ولكن بثمن باهظ هو عدم قدرتها على الحمل مرة أخرى.

وخلال تلك الفترة العصيبة التي أرهقتنا نفسيا وماديا توفي والد زوجتي، واستطاع مالك البيت بطريقة ما الحصول على حكم بطرد أمها وإخوتها الصغار من شقتهم فوجدت نفسي بصفتي زوجا للابنة الكبيرة مسؤولا عنهم رغم ضآلة مرتبي ومرتب زوجتي، واستضفتهم جميعا في شقتنا، وواجهت مشاكل عديدة مع صاحب البيت الذي أقيم فيه والذي تصور أني أؤجر لهم شقتي من الباطن، ورتب ذلك علينا أعباء مادية إضافية إلى جانب ما نعانيه من الظروف الأخرى لكننا تمكنا والحمد لله من مواجهة مشاكل صاحب البيت ومضت بنا الحياة إلى أن تزوج الابن الذي يلي زوجتي في السن، وبقيت معنا أمها وشقيقها الأصغر ثم تزوج الابن الأصغر بعد عدة سنوات وبقيت معنا الأم، ولم أفكر لحظة في لوم أحدهما لتركه أمه معنا رغم سعة مسكنه ورزقه وإنما قدرت أن لكل إنسان ظروفه ورضيت بحياتنا وخلال تلك السنوات كنت قد شجعت زوجتي على استكمال تعليمها المتوسط لكي تنسى ظروفها المرضية مع ما ترتب على ذلك من أعباء مادية ونفسية أخرى كحضور زملائها بالعمل والمعهد للبيت لاستذكار الدروس معها وخلافه، وحصلت زوجتي على بكالوريوس المعهد وتمكنت بفضل الله من نقلها إلى عمل أفضل بإحدى الهيئات مما جعل مرتبها يزيد على مرتبي، لكني بعد قليل سافرت للعمل بإحدى الدول العربية فزاد رزقنا واشتريت لها أشياء كثيرة واستطعت تعويضها عن كل الظروف السابقة، واغتربت ست سنوات عدت بعدها واشتريت شقة تمليك وسيارة، وطلبت مني زوجتي إعادة تأثيثها بأثاث لائق فبعت السيارة واشتريت أثاثا جديدا وكتبته باسمها دون أن تطلب مني ذلك. وواصلنا حياتنا إلى أن جاء يوم فوجئت بها تطلب مني أن أكتب الشقة باسمها أيضا. ولم أجد مبررا منطقيا لهذا الطلب فرفضت ففوجئت بها تطلب الطلاق! وتعجبت لهذا الطلب وفهمت أنها محاولة للضغط عليّ للاستجابة لطلبها.. إذ ليس من المعقول أن تكون زوجتي جادة في طلب الطلاق بعد 23 سنة من زواجنا وبعد أن تخرج ابننا الوحيد من معهده وخطبنا له زميلته التي ارتبط بها. لكنها واصلت مطالبتي بالطلاق بإلحاح غريب وصاحب ذلك مضايقات واستفزازات عجيبة.. وفجعت في أمها وشقيقها الأصغر اللذين رافقانا معظم سنوات الرحلة في مسكن واحد حين وجدتها يؤيدانها في مطلبها. وفي إحدى نوبات الاستفزاز استجبت لطلبها

وطلقتها، ولكني طلبت منها عدم مغادرة المسكن وإعطاء نفسها مهلة للتفكير بروية في حياتنا، فليس من المعقول أن تنهار حياة زوجية بهذا الشكل المفاجئ بعد 23 عاما من العشرة وتركت للأيام تهدئة الخواطر الثائرة والانفعالات المؤقتة ثم انتهت شهور العدة وعدت ذات يوم من عملي إلى البيت فلم أجدها في الشقة.. ولم أجد في الشقة نفسها من الأثاث سوى الفراغ والخواء والصمت، فوجئت بأن زوجتي قد حملت الأثاث الذي اشتريته باسمها وتوجهت إلى مسكن شقيقها الأصغر واستعدت توازني بعد قليل وتوجهت إليها عنده وطلبت منها أن تعود إلى بيتها.. فأبت العودة إلا إذا كتبت الشقة باسمها. وتألمت لذلك ألما شديدا.. وتعجبت منها كيف هان عليها أن تتركني وابنها وحدنا في شقة على البلاط في عز برد الشتاء دون أن تفكر في متاعبنا أو حياتنا فيها، وانصرفت حزينا وعشت مع ابني في الشقة الخالية على البلاط نواجه متاعب حياتنا الجديدة.. وبعد فترة علمت أنها قد دخلت المستشفى لإجراء جراحة جديدة لفك التصاقات بالمعدة فتوجهت لزيارتها بالمستشفى وتمنيت لها الشفاء ورجوتها أن تعود لبيتها بعد كل ما حدث فرفضت بإصرار، وانصرفت حزينا وأنا أفكر هل تساوي الشقة كل هذا العناد.. وكل هذه الآلام. وأين مكان ابننا الوحيد من قلب أمه وعقلها في كل ذلك؟ ولم أصل لإجابة شافية عن تساؤلاتي، لكني علمت بعد أيام بخبر عجيب هو أن أحد زملاء زوجتي بالعمل قد تقدم لخطبتها وأنها وافقت عليه.. ولم أصدق الخبر في البداية ثم تأكدت منه فتوجهت إليها في بيت شقيقها ودعوتها من جديد للعودة للبيت وفتح صفحة جديدة في حياتنا الزوجية، فلم تقبل بل ورفضت أيضا أمها وشقيقها الأصغر سامحهما الله. وسكت ذاهلا لحظات ثم سألتها عن الخبر العجيب الذي سمعته فإذا بها تؤكده لي وتضيف عليه أنها سوف تتزوج قريبا وأن زوج المستقبل سوف يكتب لها شقة باسمها! وتساءلت: وماذا عن ابنك الوحيد يا سيدتي؟ فأجابت بأنه قد كبر الآن وسوف يتزوج ويصبح له بيت ذات يوم.. وسوف «يفهم» موقفها جيدا ولن تتأثر علاقتها به. وتأكدت من أنه لا أمل في محاولة تغيير رأيها فسألتها عن شخص العريس المرتقب فإذا بي أصدم صدمة أخرى أشد وهو أنه أحد زملائها بالعمل الذي كثيرا ما دخل بيتي ورحبت به واعتبرته من أصدقائي، ولم أجد ما أقوله فانصرفت وأنا أكثر حزنا. وعلمت فيما بعد من زملائها بالعمل أن القصة قديمة وأنهم كانوا يخشون إبلاغي بها لعدم تأكدهم منها. وفي غمرة أحزاني سألني ابني عما يفعل معها وكيف يكون موقفه فأجبته بأنه شاب رشيد وأنها أمه في النهاية ولا أستطيع أن أمنعه عنها بالرغم مما سببته لي من آلام. وتزوجت زوجتي السابقة من زميلها.. وكان أثاث عشها الجديد هو نفسه الأثاث الذي اشتريته باسمها وبعد أيام من زفافها السعيد اتصلت بابنها باكية وأبلغته أنها تفتقده.. وسألني ابني حائرا عما يفعل فأشرت له أن يذهب لرؤيتها وذهب لزيارتها وعلمت أنها قد زارت أسرة خطيبته وأنها تحدثت عن أن الشقة التمليك التي نقيم بها خالية وأنني يجب أن أعود للإقامة في الشقة القديمة المؤجرة التي أوتها وأهلها عشرين سنة لأنني الأب والأب ينبغي أن «يضحي»، من أجل ابنه.

ولم أنزعج لذلك، لكني مازلت حزينا ومنزعجا من السهولة الغريبة **التي باعت بها هذه الأم وهي في الثالثة والأربعين من عمرها عشرة 23 عاما..**

وأتساءل ماذا يستطيع هذا الزوج الجديد أن يقدم لها أكثر مما قدمته لها ولأسرتها.. وكيف يطمئن إلى ان من باعت عشرة العمر وابنها الشاب سوف تكون أكثر حرصا عليه من حرصها على حياتها وابنها وزوجها الذي قدم لها كل ما قدم.. إنني حزين يا سيدي وأشعر بالحزن والألم.. ولا أعرف ماذا أصنع فبماذا تشير عليّ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: **من سوء الطالع أن نحب من لا يحبنا.. وأن نخلص لمن لا يخلص لنا وأن نحرص على من لا يحرص علينا ومن حقك يا صديقي بكل تأكيد أن تشعر بالمرارة والألم لكنه ليس من حقك أبدا أن تشعر بالخزي أو عدم الاعتبار، فما واجهته قد يواجهه أي رجل قد يفجع في وفاء شريكة عمره، وأي امرأة قد تصدم أيضا في شريك عمرها، وما أكثر الوفاء وما أكثر الغدر أيضا، لكنها الحياة التي ترينا من صور الوفاء ما نحبها من أجله أحيانا، ومن صور الغدر ما نضيق بها من أجله أحيانا أخرى. لكن يبقى دائما أن الوفاء هو القاعدة وأن الغدر هو الخروج عليها لهذا ننزعج له بشدة وترتج علينا الأمور حين نصطدم به ونفقد أحيانا الثقة في النفس والاعتبار ولا عجب في ذلك لكنه ينبغي دائما ألا يتجاوز حدود التأثر الطبيعي لإنسان له مشاعر البشر وأحاسيسهم، ولفترة محددة لابد أن نستعيد بعدها توازننا وتقييمنا الصحيح للأمور.. ونعرف عن يقين أن من غدر بنا فلقد خسرنا كما خسرناه، وأن هناك على الجانب الآخر من هو على استعداد لأن يرحب بنا ويرى فينا هبة الحياة له.. ومنتهى أمله فيها.. لكننا لم نلتق به بعد.. وسوف نلتقي به بالضرورة بعد أن تحررنا من أسر الماضي وقيوده، ولسوف نحس معه بأننا أخيرا قد أصبحنا على الطريق الصحيح لحياتنا وربما اكتشفنا أيضا أن كل ما مضى من العمر قد كان ضربا على غير هدى في صحراء التيه والحيرة وجاء أخيرا أوان الاهتداء إلى واحة الأمان والسعادة الحقيقية.. فهون الأمر على نفسك يا صديقي.. ولا تنشغل بأمرها ولا بماذا تستطيع أن تقدم لزوجها الجديد أو لا تقدم، فما يعنينا الآن هو تحجيم خسائرنا النفسية والصحية ومحاصرتها حتى لا نبدد ما بقي لنا من عمر في المعاناة واجترار الآلام. والحق أنني لم أقتنع منذ البداية بقصة الشقة التمليك كمبرر للطلاق من جانبها، وأحسست دائما أنها مجرد ذريعة للتمسك به.. وتغيير حياتها.. وبدء صفحة جديدة منها مع الطرف الآخر. بل لعلك لو كنت قد قبلت طلبها بمنحها الشقة لما تغيرت النتائج ولبحثت عن مبرر آخر للرفض والتمسك بالطلاق..**

فالقصة قديمة فعلا كما قال لك زملاؤها بعد فوات الأوان ومن تقدم على هذه الخطوة الحاسمة في مثل عمرها لا تثنيها عنها الاستجابة لمطلب مادي كالشقة أو كغيرها..، ولا شك أن زواجها ممن ارتبطت به هو في النهاية - أكرم، لكل

الأطراف من استمرار الوضع الخاطئ رغم تعارض ذلك مع مسؤوليات الأم تجاه ابنها الوحيد.. وتجاه قيم كثيرة في الحياة كالوفاء والعرفان وغيرهما لهذا فدعنا من أمرها فلقد اختارت لنفسها ما أرادت. ولها عاقبة ما اختارت وعليها تبعاته، لكن من لم تضح من أجل ابنها بمغالبة هوى قلبها.. وارتضت له أن تعرضه لهذه التجربة القاسية على نفسه مهما خففت من آثارها عليه بدعوى أنه سوف يفهم ويعذر، ليس من حقها أن تتحدث عن «تضحية»، الأب من أجل ابنه، أو أن تلقي على أحد دروسا في التضحية وإنكار الذات من أجل الأبناء. فلقد اختارت لنفسها ما يتعارض معها، فافعل أنت ما يمليه عليك ضميرك وواجبك تجاه ابنك بغض النظر عن رأيها بشأن الشقة.. فأنت الأب المسؤول عنه وعن تيسير سبل الزواج له سواء أوفت الأم بعهدها أو لم تف، فإن شئت أن تهبه تلك الشقة، فافعل حبا وكرامة.. وإن شئت ألا تفعل فلعلك تستطيع أن تعينه على أمره بطريقة أخرى. وفي العمر متسع بعد ذلك بإذن الله لتضميد الجراح.. وبدء صفحة جديدة من حياتك مع إنسانة أخرى تخفف عنك وحدتك، وتعيد إليك الأمل في كل شيء جميل في الحياة، وتأكد أنك حين تلتقي بها سوف يصبح ما عانيناه من آلام وكأنما كان خبرا مؤلما قرأناه ذات يوم في صحيفة قديمة وتأثرنا به بعض الوقت ثم شغلتنا الحياة عنه بانفعالاتها ومؤثراتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جبـال الحـزن!

لا تروي هذه الرسالة قصة فريدة، ولا تطلب رأيي في موقف اختيار بين أمرين محيرين كما تفعل رسائل الأصدقاء الأخرى لكنها تصور بصدق إنساني آسر حالة وجدانية مؤثرة، وقد رأيت أن أنشرها لنتشارك معا في الإجابة على ما تطرحه من أسئلة حائرة. تقول الرسالة:

لا أعلم هل لي الحق فيما أشكو منه أم لا؟ فمنذ ثلاث سنوات فقدت ابني الكبير بلا مقدمات وهو ممتلئ شبابا وقوة وعافية ودون سبب معلوم إلا أنها إرادة الله سبحانه وتعالى وكان عمره حين غاب عنا فجأة ثانية عشر عاما. لقد كان الله رحيما بنا فتوفى ابني إلى رحمة ربه وهو في فراشه ببيته وأمام أعيننا وفي لحظات، ورغم فداحة المصاب فقد ألهمنا الله التسليم بقضائه وقدره وأعطانا القوة فلم يرتفع صوت بكاء ولم نلبس السواد ولم نقم سرادقا للعزاء ليأتي إليه من يأتي غالبا مضطرا ويجلس وهو يتعجل انتهاء التلاوة ليسارع بالخروج منه ولم ننشر نعيا للتفاخر بالأنساب.. ولا صورته لتثير المواجع وتبرعنا بتكاليف كل ذلك وأكثر منه لأوجه الخير ونفعل ذلك كل عام في ذكراه السنوية راجين أن يتقبل الله منا وأن يشمل روحه الطاهرة برحمته وعفوه..

وأنا رجل مؤمن بالله وبقضائه وقدره وبأن لكل أجل كتابا وموقن بما جاء في آية الذكر الحكيم بسورة الحديد من أنه «مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» صدق الله العظيم.

وما يحيرني بعد ذلك هو أنه بالرغم من كل هذا مازال حزني على ابني كبيرا وعميقا عمق قاع البحر ويملأ كياني كله ويفقدني حماسي للحياة والعمل، ويسوي عندي بين كل الأشياء بحيث أصبح لا أهمية لشيء عندي ولا طعم لأي شيء. ولأني قد تعودت أن أناقش مع نفسي كل الأمور بهدوء فإني أجد أن حزني هذا غير منطقي.. إذ كيف أحزن على ابني وقد متعنا الله به ثمانية عشر عاما كاملة وغيرنا مثلا لم ينجب ولم يعرف طعم الأبوة.

وكيف أحزن كل هذا الحزن وقد كنا معه في البحر الأحمر قبل وفاته بثلاثة أيام، وكنت معه وهو يمارس هواية الغطس أمام ناظري وأراه يهبط إلى عمق سحيق ثم يصعد منه كالفهد القوي وأسأل نفسي الآن وماذا لو كانت وفاته قد حدثت في تلك اللحظة.. وكيف يكون الأمر لو كان ذلك قد حدث وكيف كنت سأتصرف في هذه الحالة.. وأقول لنفسي أليس لطف الله بنا كبيرا أن يموت بعدها بأيام في بيته.. وفي فراشه.. وليس في عرض البحر؟

وكيف أحزن وقد اختاره الله لجواره في لحظة كلمح البصر وغيره تعذب عذابا أليما في كوارث وحوادث وانهيارات ثم مات أيضا في النهاية.. أليس هذا لطفا إلهيا آخر بنا وبه؟ وكيف أحزن وقد كبر أخوه الأصغر وبدأ يسد بعض نقص غيابه

ووهبنا الله طفلا آخر بعد وفاته فحمل عنا وعن أمه على وجه الخصوص بعض جبال الحزن التي كانت تجثم فوق الصدور.

أو ليس لكل أجل كتاب؟ إذن لماذا أحزن كل هذا الحزن لأن الله جل شأنه قد استرد وديعته حين شاء ذلك.

إن ما يحيرني الآن يا صديقي هو أنني إذا كنت قد سلمت راضيا بما كتبه الله لنا.. فكيف يسيطر عليّ هذا الحزن الداخلي الهائل الذي يهد كياني؟

إنني أخشى أن يكون ذلك بطرا بلطف الله بنا.. وابتعادا عن الصبر الذي أمرنا الله به كما أخشى أن يتزايد هذا الحزن ويتوحش داخلي ويسيطر على كل تصرفاتي.. فهل لي من كلمة عاقلة منك.. وهل لي أن أطلب منك ومن قرائك الأفاضل قراءة الفاتحة على روحه وأرواح كل أحبائنا الذين سبقونا إلى دار البقاء؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول: بكى أحد الحكماء على قبر ولده فقيل له: **كيف تبكي وأنت تعلم أن الحزن لا يفيد؟ فأجاب متنهدا: إن هذا هو ما يبكيني!**

وهذا صحيح يا سيدي فنحن نحزن ونحن نعلم جيدا أن الحزن لا يفيد ولن يعيد غائبا من غيبته ونحزن لفراق الأعزاء وللأيام الجميلة التي ذهبت ولن تعود، ولكن إلى أي مدى يحق لنا هذا؟.. وإلى متى!

إن أرقى مميزات الإنسان هي التفكير.. والتفكير العاقل ينبئنا أن الإنسان لابد له بعد أن يسلم بقضاء الله وقدره ويمتثل له أن يسلم أيضا بأن كان ليتأخر عن موعده لحظة واحدة.. ولو اجتمع الإنس والجن على أن يحولوا دونه لأنه أجل محتوم وموعد مسطور من قبل أن يخرج الجنين من ظلام رحم أمه.. وله بعد ذلك أن يبكي أعزاءه ويطفئ النار الحية المشتعلة في كبده بماء الدموع ولا بأس في ذلك بشرط ألا يقول إلا ما يرضي ربه.. فالدموع «مطافئ الأحزان» ولم يخلقها الله النا عبثا وهو «أدرى بلوعة الحزن»، كما يقول الشاعر، وبعد أن يشتفى لابد له أن يتجمل بالصبر.. وأن يستعين بالصلاة على أمره.. وبالانشغال عن أحزانه بكل ما يخفف من لوعتها عليه.. وأن ينخرط في دوامة الحياة ويشغل كل أوقاته بالعمل.. وبالنشاطات الاجتماعية المختلفة وبالاهتمام بالآخرين.. ولا بأس بأن يسعى إلى تجديد حياته والبعد لفترة قصيرة عن موطن الأحزان.. ويسعى لاكتساب صداقات جديدة واهتمامات جديدة تصرف ذهنه عن التركيز فقط فيما يثير أشجانه، فيهدأ لهيب النار تدريجيا.. وتخف حدة الأحزان.. ثم تصبح مع الأيام كندوب الجراح القديمة.. لم تعد تؤلمنا.. لكنها أبدا لا تزول. وهذا هو مصير كل الأحزان مهما طالت إذا أعان الإنسان نفسه عليها وأنعم عليه ربه بنعمة النسيان. وفقد الولد من نكبات الحياة الأليمة.. وفضل الصبر عليها يفتح لأصحابه أبواب الرحمة ويعلي من درجاتهم عند ربهم ويغفر لهم من ذنوبهم، وهو من المواجع الإنسانية القديمة حتى لقد خصص له بعض الأئمة فصولا طويلة في مؤلفاتهم عن

«فضل الجلد عند فقد الولد». والجلد لا يمنع العين من أن تبكي أعزاءها عند الصدمة الأولى لكنه يحمي النفس من الاستسلام للحزن إلى ما لا نهاية ومن شلل الروح وفقد الحماس للحياة، لقد فقد سليمان بن عبد الملك ابنا له وكان معه عمر ابن عبد العزيز قبل أن يلي الخلافة ورجل آخر فقال لها مستنصحا: إني لأجد في كبدي جمرة لا تطفئها إلا عبرة، فنصحه عمر بأن يذكر ربه ويستمسك بالجلد، وتلفت للرجل الآخر يستنصحه فنصحه بأن يبكي إذ لا بأس في ذلك وقد دمعت عينا الرسول الكريم عند فقده لولده إبراهيم فانتحى سليمان جانبا وبكى حتى اشتفى، ثم عاد إليها وقال: «والله لو لم أذرف هذه العبرة.. لانصدع كبدي».

وهذا ما ينبغي أن يفعله الإنسان المؤمن مثلك.. أن يبكي عند الصدمة الأولى بكاء صامتا ثم يستعصم بالصبر والصلاة ويغالب أحزانه.. إلى أن تطفئ الأيام جذوتها ثم يمضي بعد في الحياة حاملا ذكرى أحبائه في صدره.. ملتمسا السلوى والعزاء في وجوه التعويض الإلهي الأخرى.. وفي صور الألطاف الإلهية العديدة كالتي تتحدث عنها، وفي الأمل في رحمة الله.. وعونه للمهمومين.

إن عالم النفس الكبير وليم جيمس يقول: إن الأفعال والإحساس يسيران جنبا إلى جنب، فإذا نحن سيطرنا على العقل الذي يخضع لسلطان الإرادة أمكننا بطريق غير مباشر أن نسيطر على الإحساس.

وعلى هذا فإن الطريق إلى الابتهاج والنسيان هو أن نتصرف كما لو كنا مبتهجين وناسين، لأن السعادة لا تخضع لأي عوامل خارجية وإنما تتأثر بالعوامل الداخلية للإنسان فقط، فإذا سيطرنا على العقل بالإرادة وحثثناه على التفكير في وجوه التعويض الإلهي التي تحيط بنا وعلى ما في حياتنا من أسباب أخرى تدعو للابتهاج أو على الأقل لالتماس السلوى.. استجاب الإحساس تدريجيا واستشعر السلوى والابتهاج. ثم لا يلبث بعد حين أن يتعمق إحساس الابتهاج وينزوي إحساس التعاسة في الخلفية، لهذا قيل: أنت كما تفكر.. فكر في والعزاء السعادة تستشعر رياحينها وفكر في أحزانك دائما تدميك أشواكها.

والإنسان مطالب دائما بأن يتشاغل عن أحزانه.. وبأن يستشعر السعادة في أوهى أسبابها.. ولابد أن تفعل ذلك أو تحاوله على الأقل وسوف يخفف عنك أحزانك ويردك إلى معركة الحياة الصاخبة من حولك أما أسئلتك المعبرة فلا تعليق لي عليها سوى ما قاله الشاعر متفجعا على ابنه:

ولما دعوت الصبر بعدك والأسى

أجاب الأسى طوعا.. ولم يجب الصبر!

وأنت يا صديقي بإيمانك العميق بالله وقضائه وقدره.. وإدراكك لما في حياتك من وجوه التعويض الأخرى.. وبحزنك العظيم أيضا على ولدك قد دعوت الصبر والأسى معا.. فأجابك الأسى «طوعا»، ولم يجبك الصبر.. ولهذا تحس بتفكيرك العاقل أن استمرار حزنك بنفس حدة الصدمة الأولى لم يعد منطقيا وهو كذلك بالفعل فكرر الدعوة للصبر.. وتمسك بأن يلبي لك النداء.. وتأسى بالألطاف الإلهية

التي أحاطت بك.. وضع ابنك الغالي في حشاشة القلب واستمد من ذكراه دافعا جديدا للحياة ولإسعاد أخويه وأمه، ولمواساة المكلومين والإحسان إلى الحياة والإضافة إليها.. وسوف تشعر دوما أنه رفيقك الذي يؤنس حياتك رغم غيابه ويمسح دمعتك.. ويجدد إقبالك على الحياة من جديد بإذن الله، وإذا أذنت لي فلسوف أعطي اسمك وعنوانك لبعض الأصدقاء من جرحى الحياة الذين رزئوا مثلك بفقد الولد ليكتبوا إليك بعصارة تجربتهم مع الألم وكيف تغلبوا عليه وتعايشوا معه وواصلوا الحياة بقلب يخفق بالإيمان بالله والحب للحياة والبشر عسى أن تجد في ذلك ما يعينك على أمرك.. ويأخذ بيدك معهم على طريق السلوى.. فهل تأذن لي في ذلك؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخاتمة

دمعتان سابحتان في نهر الدموع:

قالت الأولى: أنا دمعة رجل بكى حين اغتصب منه صديقه زوجته!

فقالت الدمعة الثانية: وأنا دمعه هذا الصديق بعد أن تزوجها وندم على زواجه منها!

بهذه الأمثولة المعبرة يقدم لنا الكاتب الكبير الأستاذ عبد الوهاب مطاوع كتابه الجديد هذا كأنما يحذرنا منذ البداية من أننا سوف نلتقي على صفحاته بكثير من الدموع الانسانية التي ذرفها أصحابها بين يديه وهم يبثونه شجونهم وآلامهم.. أو بللت صفحات رسائلهم إليه وهم يروون له أحزانهم ويطلبون منه المشورة في أمرهم.

إن الأستاذ عبد الوهاب مطاوع يقدم إلى قرائه في هذا الكتاب مجموعه منتقاة من القصص الإنسانية الواقعية التي تصور أحوال الانسان خلال صراعه الدائم مع أقداره.. وبحثه الدؤوب عن سعادته المفقودة، وقد صاغها بأسلوبه الأدبي الرصين وقدم لقارئه فيها خلاصه معارفه وخبرته الإنسانية بتجارب الحياة وعلاقاتها المتشابكة.

ولقد قدمت مكتبة مدبولي له من قبل مجموعته القصصية الرومانسية «أماكن في القلب» فلقيت رواجا كبيرا بين قرائه.. واليوم تقدم له هذا الكتاب الذي تستطيع أن تقول عنه باعتزاز أنه سفر جديد حافل بالتجربة الإنسانية ومواقف الحياة الجديرة بالتأمل والاعتبار

الناشر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

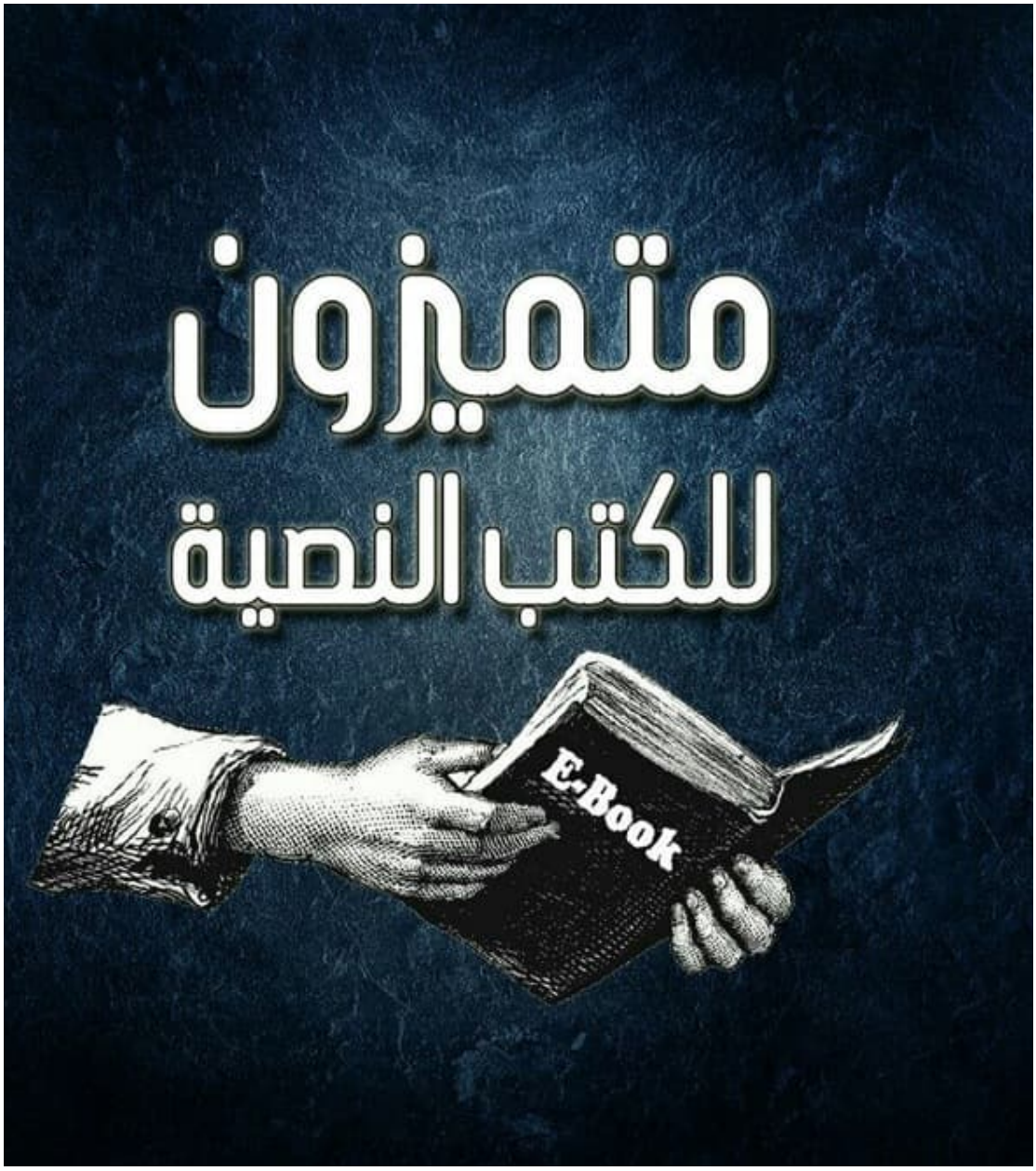
متميزون
للكتب النصية
E-Book

الفهرس:

مقدمة..

الشقيقان

أوراق الشجرة

ثمرة العمر!

القمر الساطع

عودة الغائب!

العود الأخضر!

صفاء النهر

الحياة أشواك!

التاريخ القديم

اللقاء الصامت

السيف البتار!

الباب المغلق!

عبير الأحلام!

السر الخطير!

الفندق!

المحجر!

السهام القاتلة

الشخص الآخر
نظرة الاحتقار
طابع الألم!
بداية القصة!
الـتـفكير الطويل!
التفكير السعيد
البصمة القاسية!
الحقيبـة
سنوات الحلم!
الطائر البعيد!
أحلام اليقظة!
بيت النار
الخديعة
الصندوق المغلق!
الخبر العجيب!
جـبـال الحـزن!
الخاتمة
الفهرس: